



في شمال شرق آسيا

رحلة إلى سيبيريا ومنغوليا
وحدیث فی شؤون المسلمین



محمد بن ناصر العبودي

في شمال شرق آسيا

رحلة إلى سبيريا ومنغوليا وحديث في شؤون المسلمين

بقلم

محمد بن ناصر العبودي



المركز الإسلامي للدراسات والبحوث
Osoul Center For Studies

٢ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر
في شمال شرق اسيا / محمد ناصر العبودي .- الرياض ،
١٤٢٨ هـ

ص.٤ .سم

ردمك: ٧-٤٤٤-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١- ادب الرحلات ٢- سيبيريا - وصف رحلات ٣- منغوليا - وصف
رحلات أ.العنوان

١٤٢٨/٦٢٣٢

ديوي ٩١٠,٩

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٦٢٣٢

ردمك: ٧-٤٤٤-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

- (١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- (٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا - الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- (٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- (٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- (٥) رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م
- (٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

- (١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض - المطابع الأهلية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- (١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (١٢) رحلات في أمريكا الوسطى - المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (١٥) على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (١٦) في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- (١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- (١٨) بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.
- (١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض

عام ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض

عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام

١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام

١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام

١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين - طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة

المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤ هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥ هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤ هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤ هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤ هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤ هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.

(٤٣) بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها

عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع النرجس التجارية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

- (٥٧) في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.
- (٥٨) العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية - طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.
- (٥٩) في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية - طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.
- (٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.
- (٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.
- (٦٢) بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٦٣) بلاد الشركس: الإديفي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٦٤) مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٦٥) تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٦٦) نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة. مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.
- (٦٧) ذكريات من الاتحاد السوفييتي. مطابع النرجس بالرياض عام

١٤٢٠هـ

(٦٨) نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٩) إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٠) في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين. طبع في مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٧١) قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا، من سلسلة الرحلات الكاريبية، مطبعة العلا في الرياض ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٢) مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٣) مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٤) فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة في الرياض ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٥) المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية في الرياض ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٦) في جنوب البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٧) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٧٨) بلغاريا ومقدونيا، من سلسلة رحلات في بلاد البلقان، طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- (٧٩) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر في الرياض، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- (٨٠) بيليز والسلفادور - رحلات في جمهوريات الموز - ، طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م..
- (٨١) ((العودة إلى ما وراء النهر)) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطبعة المسموعة في الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م..
- (٨٢) ((على سقف العالم)) رحلة إلى التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة عام ١٤٢٢هـ.
- (٨٣) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، أو بقية البقية من حديث إفريقيا، طبع في مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- (٨٤) بلاد العربية الضائعة ((جورجيا)). طبع في مطابع العلا في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٨٥) الاعتبار في السفر إلى ماليبار، (من سلسلة الرحلات الهندية). نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة عام ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- (٨٦) ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٢هـ.
- (٨٧) بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٨٨) غاييتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٨٩) إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا في الرياض عام ١٤٢٣هـ.

- (٩٠) وراء المشرقين، رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٩١) إمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى. وهو هذا الكتاب.
- (٩٢) رحلة هونغ كونغ وماكاو، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٩٣) إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- (٩٤) شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبيرية)، طبعته مطابع النرجس في الرياض.
- (٩٥) فوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين.
- (٩٦) إقليم أورنبورغ (سلسلة الرحلات في جنوب روسيا).
- (٩٧) إلى إرتيريا بعد ٣٦ سنة.
- (٩٨) القلم وما أوتي، في جيبوتي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
- (٩٩) في شمال شرق آسيا (رحلة إلى سيبيريا ومنغوليا وحديث في شؤون المسلمين، وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(١٠٠) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(١٠١) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(١٠٢) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(١٠٣) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠٤) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(١٠٥) مآثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠٦) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(١٠٧) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(١٠٨) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(١٠٩) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(١١٠) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(١١١) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة - بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية - نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(١١٢) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١١٣) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) - ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة عام ١٤١٩هـ.

(١١٤) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١١٥) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(١١٦) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم. نشرته رابطة العالم

- الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.
- (١١٧) واجب المسلم في بلاد الأقليات. نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- (١١٨) "العالم الإسلامي: واقع وتوقعات" نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.
- (١١٩) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- (١٢٠) ((حكّم العوام))، طبعته في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- (١٢١) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دار الملك عبد العزيز في الرياض، في أربعة مجلدات.
- (١٢٢) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.
- (١٢٣) أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- (١٢٤) الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض عام ١٤٢٣هـ.
- (١٢٥) أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبد الله العبودي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد عبده ورسوله.

أما بعد:

تتجه رحلتنا الآن إلى (شمال شرق آسيا)، وهذا مصطلح غير مألوف للناس، بخلاف (جنوب شرق آسيا) الذي هو شائع عندهم، على أن (شمال شرق آسيا) أحق بالشيوع والانتشار من (جنوب شرق آسيا)، ذلك بأن الشمال الشرقي من القارة الآسيوية هو أراضٍ يابسة مأهولة بالسكان منذ قديم الزمان، بل ليس فيه بحار واسعة متصلة بالمحيطات، على حين كون الجنوب الشرقي من آسيا هو بحار فيها جزر تعتبر صغيرة بالنسبة إلى مساحة تلك البحار، وإن كانت مزدحمة بالسكان، أو هذا هو حال أكثرها، مثل جزيرة جاوا في إندونيسيا.

فالشمال الشرقي -إذاً- أولى بالتبويه من الجنوب الشرقي للقارة، إلا أن ذلك الشمال قد اختفى تحت ستار حديدي، لا يمكن اختراقه منذ أن استولى الشيوعيون على الحكم في روسيا، وما تبعها من مستعمرات، أسموها بعد ذلك جمهوريات شعبية. وهي توابع تدور في الفلك الروسي الذي مركزه موسكو، وقلبه الذي يدبره هو الحزب الشيوعي الروسي في الحقيقة، وإن كانوا يسمونه بالسوفييتي تضليلاً للسذج الأبعدين عنه، وذراً للرماد في عيون الأقربين منه الذين يعرفون عن حاله ما لا يعرفه غيرهم.

واستمر ذلك عقوداً سبعة من السنين بلغت السبعين.

وكانت هي العقود التي شهدت على مستوى العالم ازدهار السفر

بالبطائرات، بل تقارب القارات، واختصار المسافات، وبالتالي سهولة السفر في كل الأوقات إلى تلك الجهات، فكان أن تكرر - لذلك - مصطلح (جنوب شرق آسيا). ومات أو لم يحيَ أبداً ذلك المصطلح المتعلق بشمال شرق آسيا، إذ لا يذهب إليه أحد، ولا يجيء منه أحد، فكان دونه سد يأجوج ومأجوج، الذي لا يستطيع فيه الولوج، ولا يمكن منه الخروج.

حتى أذن الله بأمر من عنده لم يخطر على بال أحد من خلقه، أن يصاب الشيوعيون بزلزال عقيدي يأخذهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فيعلنون للعالم أن الشيوعية وَهْمٌ بَشْرِيٌّ كبير، بل أعلنوا أنها كانت خداعاً قهرياً عظيماً، قضى على كل ما لدى الشعوب التي ابتليت به، حتى على الخبز التي تقطت منه، فصارت تستجلبه بعد أن كانت لا تحتاج إلا إلى بعض ما كان عندها منه.

وليس ذلك فحسب، وإنما صاروا يتبارون في ذكر فضائح الشيوعية من مصادرة الحريات، وإهدار الكرامات، وشيوع الرشوات، وسيادة الوساطات.

وكان أن تلا إعلانهم إفلاس الشيوعية أن يتحطم ستارها الحديدي الذي ضربته لتحمي به - بزعمها - مبادئ شيوعيتها من أن تتسرب إليها حريات الآخرين.

وقد مضت العقود السبعة المذكورة على ذلك الستار الحديدي المضروب، ومن خلفه شمال شرق آسيا، لذلك لم يطرقه أحد، ولم يخرج منه أحد، وإن كان من يضطر إلى الوصول إليه لرغبة لحكامه في أن يصل إليه، لا بد له من المرور بالمركز في موسكو، ولو كان (شمال شرق آسيا) أقرب إليه من موسكو بمراحل.

فكان ذلك النسيان له، في مقابل الاشتهار والانتشار لجنوب شرق آسيا، وهذا - بطبيعة الحال - بالنسبة إلى العالم الغربي ومن لف لفه، ونحن المتأخرين من العرب المسلمين معهم فيما يتعلق بذلك المصطلح.

وأما بالنسبة إلى أسلافنا العرب المسلمين المتقدمين في الزمان، وكانوا المتقدمين في العلم والمعرفة، فإننا لم نكن نحتاج إلى مصطلح نعرف به تلك المنطقة من شمال شرق آسيا، لأنها بلاد كنا نعتبرها بلادنا، إذ هي بلاد مسلمة، وبلاد المسلمين كلها بلاد للمسلمين كلهم.

ولذلك عرفناها بالعلماء الأعلام، وأئمة الإسلام الذين منهم الإمام البخاري، والإمام الترمذي، والنسائي، ومنهم اللغويون العظام أمثال الفارابي اللغوي، والجوهري، والفلاسفة المشاهير أمثال ابن سينا والفارابي، والعلماء الأعلام الذين جمعوا من فنون المعرفة، بل من محبة المعرفة ما عجز أن يطاولهم فيه مطاول من أهل تلك الأزمان، مثل الإمام أبي الريحان البيروني، والإمام الزمخشري.

وكان أسلافنا يعرفون ما وراء النهر بأنه محاذ لبلاد الترك.

ولم يكن المسؤولون يقولون: إن أهل تلك البلاد هم من الترك بقصد أن يعتبروا أنهم أجنب، أو بمثابة الأجنب عنهم، وإنما كانوا يقولون: إنهم مسلمون، مثلهم في ذلك مثل سلاطين الأتراك العثمانيين الذين اعتبروهم خلفاء على المسلمين، واعتبروا عاصمتهم القسطنطينية عاصمة الإسلام، لأن الأتراك العثمانيين فتحوها باسم الإسلام، بل حولوها حالما فتحوها من دار كفر إلى دار إسلام، حتى سماها بعضهم (إسلام بول) بدلاً من إستان بول، أو (إسطمبول).

وكان أسلافنا يسمون ما قرب من تلك الجهة إلينا بلاد (ما وراء

النهر) الذي هو نهر جيحون المسمى الآن بأموداريا، ويؤلف جزءاً من الحدود بين أفغانستان وتلك البلاد.

وكان أسلافنا العظام من طلبة العلم ومحبي المعرفة يرحلون إلى تلك البلاد لسماع الحديث على الشيوخ من الفقهاء والعلماء، فكانوا ينفقون السنوات في الرحلة والإقامة والعودة بعد التحصيل.

وكانوا يعتقدون حسبما كان واقعاً في الأزمان السابقة أن تلك البلاد هي آخر البلاد التي دخلها الإسلام، فكانوا يقولون قولتهم الشهيرة التي كان ممن أطلقها الأديب النابغة (بديع الزمان الهمداني) بأن بلاد الإسلام تمتد من غانة إلى فرغانة.

و(فرغانة) الآن واقعة في وادي خصيب، يسمى وادي فرغانة، وتسمى عاصمته فرغانة، ويقع في جمهورية أوزبكستان إحدى جمهوريات ما وراء النهر.

وقد ذكرت ما شاهدته فيه في كتاب ((يوميات آسيا الوسطى))، وكنت اخترت لذلك الكتاب عنوان (آسيا الوسطى)، لأن ذلك كان قبل انفراط عقد الاتحاد السوفييتي، واستقلال دوله التي من بينها ست جمهوريات إسلامية، خمس منها في هذه المنطقة، والسادسة هي أذربيجان على مشارف جبال (قبيج)، وهي الجبال التي يسميها عوام الكتاب عندنا بالقوقاز، أو القفقاس، واشتهرت منطقتها بباب الأبواب.

وقد امتد الإسلام إلى ما وراء (فرغانة) بعد إطلاق ذلك المصطلح الذي يحدد بلاد الإسلام من غانا في غرب إفريقيا إلى (فرغانة) في شمال آسيا الشرقي، فامتد حتى وصل إلى سيبيريا التي قامت فيها مملكة (سيبير) المسلمة، التي استمرت فيها باقية حتى قضى عليها قياصرة

الروس، وتولى إيفان الرابع المسمى (إيفان الرهيب)، أو (إيفان المدهش)، فكانت نهاية مملكة سبير في عام ١٥٩٨م.

وامتد الإسلام شرقاً حتى دخل بلاد المغول التي انقسمت إلى قسمين، أحدهما استولت عليه الصين تحت اسم (منغوليا الداخلية)، وذكرت أمرها في كتاب (في مهد المغول)، والقسم الثاني صار دولة مستقلة باسم (منغوليا الخارجية).

وقد غرق هذا القسم في حمأة النظام الشيوعي الذي زاد بعده الجغرافيين عن العالم الحرب بعداً معنوياً خلف الستار الحديدي.

ثم نبذ الشيوعية مسرعاً مسروراً عندما تراخى عنه قيدها، وترك وصف جمهوريته بالاشتراكية الديمقراطية، لتكون (ديمقراطية) حقيقية. لذلك قررنا زيارته ضمن ما قررنا زيارته من بلاد هذه المنطقة. والبلاد التي تتجه إليها رحلتنا هي:

منغولية الخارجية، وبلاد سيبيريا من جمهورية روسيا الاتحادية.

ورغم كون (سيبيريا) بعيدة عن مركز البلاد الروسية في موسكو، ورغم اتساع مساحتها بالنسبة إلى بلاد الروس الأصليين، فإنهم قد ألقوا بالجمهورية الروسية إلحاقاً مثلما ألقوا بها بلاداً عديدة ليست منها، بل هي بلاد لشعوب أخرى، لا يجمع بينها وبين الروس جامع. ومنها بلاد من بلاد المسلمين، مثل الداغستان، وبلاد الشيشان، وبلاد الأنقوش، وبلاد التتار، والبشكير، والشركس، والبلغار.. إلخ. ولذلك سمو جمهوريتهم بالمتحدة لكونها ليست بلاداً واحدة في الأصل، ولا كان سكانها شعباً واحداً.

وسوف نزور مدينتين في سيبيريا بإذن الله من أجل الاطلاع على أحوال الإخوة المسلمين فيها، والمساعدة على مشروعاتهم الإسلامية.

الهدف من الرحلة:

عندما سقطت الشيوعية، ونال الناس الذين كانوا يرزحون تحتها حريتهم، ومنهم المسلمون، أخذوا يتلفتون إلى القيم والمثل التي كانت الشيوعية قد سلبتهم إياها، من ذلك الدين، وبخاصة الدين الإسلامي الذي تعرض لحملات إلحادية، وتشويهية مغرضة طيلة العقود السبعة الماضية، حتى أوحت السلطات الشيوعية التي كانت حاكمة إلى الناس عن طريق التربية والإعلام أن تاريخهم الثقافي الراقي إنما يبدأ مع انتشار الشيوعية عندهم، وجعلها مبدأ من مبادئ الدولة.

وأبعدوا عن مناهج الدراسة، ووسائل الإعلام كل ما يمت إلى المجد الذي كانوا قد اكتسبوه بسبب الإسلام.

وكان هذا القول منهم مقروناً بالفعل الذي هو المنع من كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، حيث حرموا التعليم الديني إلا في المسجد، ماعدا مدرستين اثنتين كانتا تحلة القسم، وهما مدرسة ميرعرب في بخارى، وكان فيها ثلاثون طالباً، ومعهد الإمام البخاري في طشقند، وكان فيه (٤٦) طالباً، فكيف يكفي المتخرجون منهما لحاجة خمسين مليوناً من المسلمين؟

كما حرموا الدعوة إلى الإسلام إلا داخل المسجد مع الإرهاب الذي شنوه على من يعتاد الذهاب إلى المسجد للعبادة إن وجد وقتاً للذهاب، وأباحوا الدعوة والدعاية للإلحاد في كل مكان إلا في المسجد.

فصارت المساحة المحدودة للدعوة إلى الإسلام محصورة في المسجد، والمساحة الممنوحة للدعوة إلى الإلحاد مفتوحة في كل مكان إلا في المسجد، وناهيك بالفرق في السعة بين المساحتين. إلى جانب ما نعلمه من كون المساجد إنما يرتادها كبار السن، لأن غيرهم مشغول بأمور حياته، ومن ذهب في وقت فراغه اعتبر ذلك اتجاه مشبوه، وروقب وألحق به الأذى.

لذلك كان البدء بالعودة إلى الدين الإسلامي من الصفر، ولذلك كان المسلمون فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، ومن ذلك هذه المنطقة من شمال آسيا الشرقي، ومن وسطها بحاجة ماسة إلى عون إخوانهم المسلمين القادرين على المعونة لتحقيق ذلك.

وكان هدف رابطة العالم الإسلامي وعملها هو مساعدة الإخوة المسلمين في أنحاء العالم كافة، في أمور دينهم، والتعاون معهم على البر والتقوى.

لذلك توجهت وفود من الرابطة إلى تلك الدول، وكان منها وفدان برئاستي، أحدهما كان عام ١٤١٠ هجري، الموافق لعام ١٩٩٠م. وذلك قبيل سقوط الاتحاد السوفيتي، وقد ألفت خلال سفرنا ذلك كتابين: أحدهما بعنوان **(الرحلة الروسية)**، والثاني بعنوان **(يوميات آسيا الوسطى)**. وقد طبعا.

وقد قدمنا مساعدات للإخوة المسلمين من رابطة العالم الإسلامي، تمثلت في مبالغ مالية دفعناها للمساجد الجديدة التي كانت تبنى، ولإعادة ترميم المساجد القديمة، ولأمور أخرى من أمور القيام على الدين الإسلامي، مثل التعليم الإسلامي، والشاهد على ذلك ماثل في مساعدتنا للمعهد الإسلامي الجديد في مدينة (دوشنبه) عاصمة جمهورية تاجيكستان.

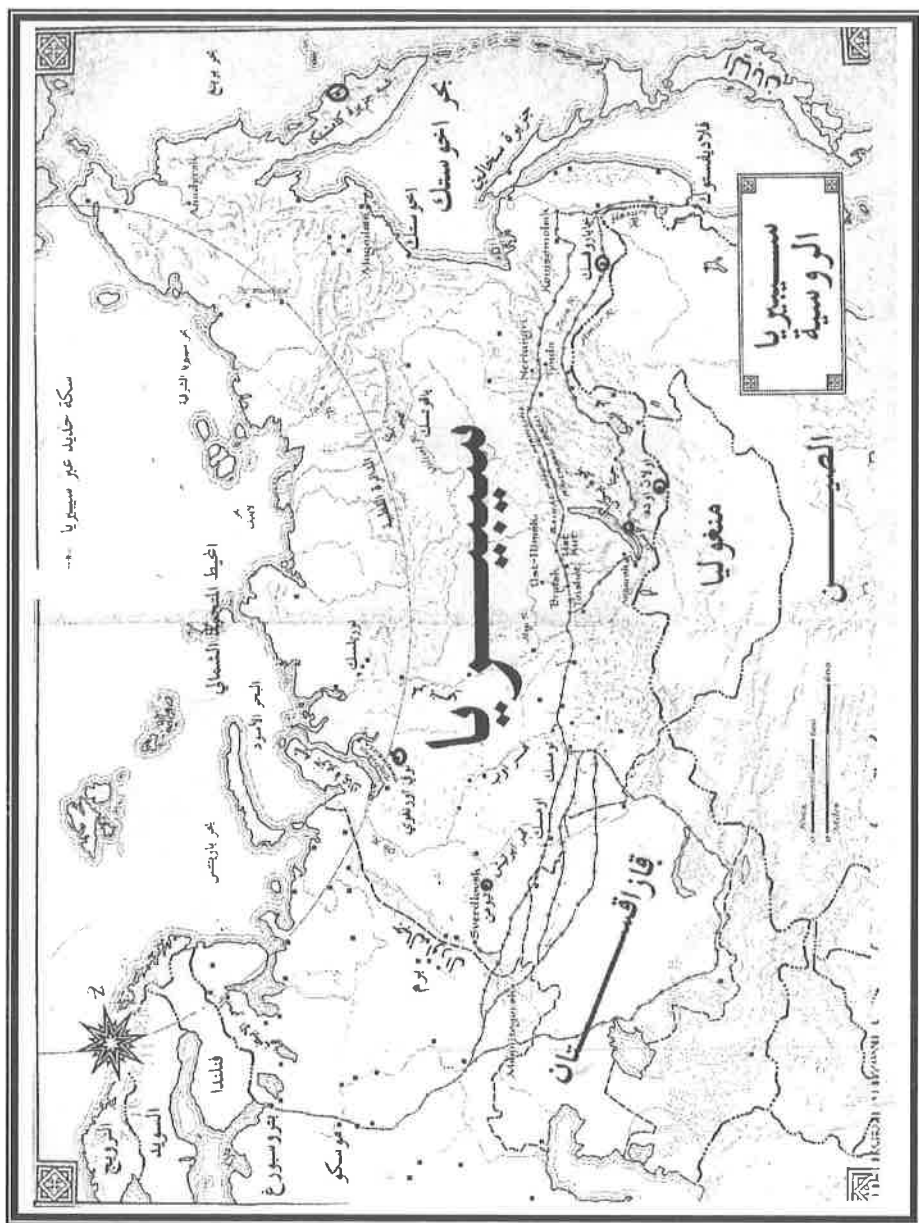
ونحن حينما قدمنا تلك المساعدات لم نقل لهم إنها مساعدات خالصة كالتى تكون بين المانح والممنوح له المساعدات المالية، وإنما قلنا لهم ما نعتقده، وهو أن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى، فالإخوة بدءوا ببناء تلك المساجد، ونحن أسهمنا بشيء من المال في نفقة البناء، فذلك كله تعاون وتعاضد على الخير.

إننا في رابطة العالم الإسلامي واصلنا دعوة رجال الفكر والأدب من الصحافيين والكتاب والعاملين في الشؤون الدينية لزيارة الرابطة، ويتضمن ذلك أداء مناسك العمرة، وزيارة المدينة المنورة، والسلام على رسول الله ﷺ، والصلاة في مسجده الشريف.

واليوم سنواصل في زيارتنا هذه ما فعلناه في ذلك الماضي القريب، وسوف نقص عليك فيما بعد قصة ذلك، طبقاً لما سيكون بإذن الله تعالى.

وكان رفيقاً الرحلة الأخوين الكريمين: الأستاذ محمد محمود حافظ المدير العام للإعلانات والمشروعات في رابطة العالم الإسلامي، والأستاذ رحمة الله بن عناية الله؛ الباحث المختص بشؤون المسلمين في البلدان الشيوعية في الرابطة، وكان مرافقاً لي في رحلاتي إلى تلك البلدان.

سيبيريا



خريطة سبيريا

مقدمة:

سيبيريا:

سيبيريا منطقة شاسعة، تبلغ مساحتها أكثر من عشرة ملايين كم^٢، يبلغ طولها ٧٠٠٠ كيلو متر، وعرضها نحو ٣٥٠٠ كيلو متر، تنقسم حالياً إلى الوحدات الإدارية:

- ١- جمهورية ياقوتيا الذاتية الحكم، مساحتها ثلاثة ملايين كم^٢، عاصمتها ياقوتسك، فيها نحو خمسين ألف مسلم، وسكانها مليون ومائة وواحد وثلاثين ألف نسمة تقريباً.
- ٢- جمهورية تويما الذاتية الحكم، مساحتها ١٧٠,٥٠٠ كم^٢، وعاصمتها تيزيل، فيها نحو أربعين ألف مسلم، وسكانها ٣٥٠ ألف نسمة.
- ٣- جمهورية بورياتيا الذاتية الحكم، مساحتها ٣٥١٣٠٠ كم^٢، وعاصمتها اولان أوده، فيها طائفة من المسلمين^(١)، وسكانها أكثر من مليون نسمة، وأكثر السكان من أصل مغولي.
- ٤- مقاطعة التاي، مساحتها ٩٢٦٠٠ كم^٢.
- ٥- مقاطعة كراسنويارسك مساحتها ٢٤٠١٦٠٠ كم^٢.
- ٦- ولاية تيومن ١٤٣٥٣٠٠ كم^٢.
- ٧- ولاية كورغان ٧١٠٠٠ كم^٢.

(١) ذكرت حالة المسلمين في تلك الجمهورية عندما زرتها، وذلك في كتاب (شرق سيبيريا) الذي لا يزال مخطوطاً.

- ٨- ولاية أومسك ١٣٩٦٠٠ كم٢.
- ٩- ولاية نوفو سيبيرسك ١٧٨٠٠٠ كم٢.
- ١٠- ولاية تومسك ٣١٦٩٠٠ كم٢.
- ١١- ولاية كيميروفو ٩٥٥٠٠ كم٢.
- ١٢- ولاية إيركوتسك ٧٦٧٩٠٠ كم٢.
- ١٣- ولاية فيتا ٤٣١٥٠٠ كم٢.

أما ولاية إيركوتسك التي نقصدها وتبلغ مساحتها ٧٦٧٩٠٠ كم٢ فإنها تقع في شمال بحيرة باي كل، ويقطنها نحو ٢،٥ مليون نسمة، وقد تشكلت وحدتها الإدارية في ١٩٣٧/٩/٢٦، وعاصمتها مدينة إيركوتسك التي تقع عند التقاء نهر أنغارا بنهر إيركوت على بعد نحو ٦٦ كم غرب بحيرة باي كل. ويبلغ سكان إيركوتسك نحو ٦٥٠ ألف نسمة، منهم سبعة وثمانون بالمائة من الروس، والباقيون من الأوكرانيين، والروس البيض، والتتار.

وتمتد سيبيريا من جبال الأورال إلى شواطئ بحر اليابان بمساحة تعادل مساحة الصين والهند، أو قارة أوربا تقريباً، ويعدد من السكان لا يتجاوز ٢٠ مليوناً من النفوس، على حين أن سكان الصين والهند يبلغون ألفي مليون نسمة، ويعتقد أنها أغنى بمواردها المعدنية والطبيعية أكثر من أي منطقة أخرى من العالم، وأن ما كشف وعرف من ذلك إنما هو قليل من كثير، ومن المعروف الآن أنها تحتوي على أكبر احتياطي من الغاز في العالم.

تاريخ سيبيريا:

أ- خانبة سيبيريا ١٤٨٠ - ١٥٩٨:

اسم سيبيريا مشتق من ساير Sabir، وهو اسم لقبيلة تركية كانت تقطن حوض نهر إيرتيش Irtish، ثم انتشرت مضاربها فيما بين نهر أوبي وجبال أورال، وفي القرن الخامس هاجرت إلى الغرب، واستوطن أكبر جماعة من قبيلة ساير في حوض نهر إيديل (الفولقا)، وكانت مدينة سوار التي تقع بالقرب من بلغار عاصمة لهم.

وقد اقتبس الروس هذا الاسم من قبائل ألفي - الأوغورية المجاورة لقبيلة ساير في حوض إيديل، ثم استعملوها على مستعمراتهم التي امتدت نحو شمال شرق آسيا. وقد كانت المناطق التي تقع ما بين جبال أورال ونهر أوبي وإيرتيش حيث الموطن الأصلي لقبائل ساير تعرف باسم سيبيريا الغربية. وترد في المصادر الإسلامية باسم سيير أو إيبير، فمثلاً يقول عنها شهاب الدين العمري بلاد سيير، أما المؤرخ رشيد الدين الهمذاني فيذكرها باسم سيير Sibir، وأحياناً إيبير Ibir.

كان حوض نهر إيرتيش موطناً لقبائل تركية مختلفة، وقد خضع لجنكيز خان الذي أعلن أينال خان القرغيز عن خضوعه له، وبعد موت جنكيز خان، كانت هذه المنطقة من نصيب باتو خان مؤسس دولة التون أورده.

ويعتبر تاي بوقا Taybukal بن ممامق أول حاكم مغولي يتولى إدارة سيبيريا في عهد دولة التون أورده، وكان مقره مدينة تور Tural بالقرب من مدينة تومن Tumen، ثم توالى أبنائه وأحفاده على حكم سيبيريا بصفة شبه مستقلة، حتى غدت تعرف باسم خانبة سيبيريا، أو خانبة تورا.

غير أن هذه الخانية تعرضت لاضطرابات داخلية بعد مقتل أميرها ماز خان، فاضطر ابنه محمد خان أن يهرب إلى مدينة أيسكر Isker التي تقع على بعد ١٧ كم شمال مدينة توبولسكي Tobolski في نهر إيرتيش. ومنها تولى إدارة سيبيريا، ثم خلفه ابنه قاسم خان، وفي عهد يادكارخان تعرضت سيبيريا لمخاطر الغزو الروسي، ولكن أميرها يادكارخان حاول أن يصد الغزو العسكري بقبول التبعية لروسيا، غير أن القيصر الروسي لم يهتم بهذا العرض، إلا أن خنوع يادكار خان أثار سخط الوجهاء والشخصيات، فما كان من كوجم خان إلا أن انقلب على يادكار خان وتولى الإدارة عام ١٥٦٣م.

وقد اهتم كوجم خان بالاستعداد لصد غارات الروس، ولكن قبائل القوزاق Kossak الروسية التي هربت بقيادة الزعيم يوماك من أوكرانيا إلى سيبيريا عام ١٥٧٩، احتلت مدينة تومن عام ١٥٨٠، ثم مُني كوجم خان بهزيمة في موقعة بابا حسن، على أثرها استولى القوزاق الروس على مدينة أيسكر عاصمة كوجم خان عام ١٥٨١.

ولكن كوجم خان لم يستسلم أو يتخاذل، بل استمر في الدفاع عن بلاده، وقتل يوباك قائد القوزاق الروسية في موقعة أت باشي في حوض فاغاي Vagay على رافد نهر إيرتيش في الخامس من أغسطس ١٥٨٤.

وقد اضطر الروس بعد مقتله إلى مغادرة إلى مدينة أيسكر. فبعث القيصر الروسي إليهم فرقة عسكرية بقيادة منصوروف أحد أمراء التتار المنصرين، وكانت هذه الفرقة العسكرية مزودة بالمدافع الحديثة، وهو أمر لم يكن معروفاً في تلك النواحي حينذاك، علاوة على أن العميل المنصر منصوروف كان يستعمل أسلوب الخداع والمكر، مستفيداً من كونه تتارياً مسلماً مرتداً، واتخذ الروس مدينة تومين قاعدة حربية لشن

غزواتهم ضد كوجم خان.

وفي عام ١٥٨٧ أنشأ الروس قاعدة عسكرية تسمى توبولسك Tobolsk في موقع التقاء نهري توبول وأيريتش، ومع أن كوجم خان استطاع أن يستعيد معظم أملاكه حتى توبولسك نفسها عام ١٥٩٠، إلا أن القوات الروسية في كمين لها أسرت أفراد عائلته، ومنهم ابنه الكبير محمد في موقعة أورمين Urmin على نهر أونوي، وقد فت هذا في عضده، وأنهك قواه، واضطر إلى أن يلجأ مع من بقي معه إلى بخارى عام ١٥٩٨.

استفاد الروس في تعزيز وجودهم ببناء القلاع والحصون وإرهاب القبائل البدائية أمثال قبائل أوستياك Ostyak، وفوغول Vogul للانقياد لهم، وكان بعض الإقطاعيين الروس من عائلة استروغانوف Stroganov يعملون على بسط السيادة الروسية من خلال العلاقات التجارية، وإنشاء المستوطنات الروسية التي عملت على استغلال الثروات المحلية، وفرض الضرائب، وجمع المنتجات من القبائل التي تزاول الصيد والرعي.

غير أن مقاومة المسلمين لم تهدأ، رغم وسائل البطش التي استعملها الروس ضدهم، وقد تزعم علي خان بن كوجم بعد والده حركة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الروسي، وقام مع مرزا وروس أمير قبائل نوغاي وزعماء قبائل شيرين بغارات مستمرة على قلاع الروس في تومن وتوبول وأوفا عام ١٦٠٨. كما قام أبلاي خان، وهو حفيد كوجم خان من ابنه إيشيم خان، بغارات ضد القوات الروسية منذ عام ١٦٢٩.

وكذلك ثار أخوه توكه خان بمساعدة من قبائل القالموق عام ١٦٣٦، ولكن قلة إمكانياتهم المادية، وضعف عتادهم في مقاومة الجيش الروسي أدى إلى فشل جهودهم. وأنشأ الروس القلاع والحصون

الحربية في المواقع الإستراتيجية لاتخاذها قواعد عسكرية للانطلاق بغاراتهم وهجومهم على القبائل الرعوية، وأقام الروس حصن مانغازاي Mangazay على مصب نهر تاز في ١٦٠١، وحصن تومسك Tumsk على المجرى الأدنى لنهر توم عام ١٦٠٤، ثم حصن توروفانسك Turufansk على نهر توروخان رافد نهر نيسي عام ١٦٠٧، وحصن ماكوسكي Makoski عام ١٦١٨، وحصن ينسيسك Yeniseysk على نهر ينسي عام ١٦١٩.

وقد ساعدت هذه القلاع والحصون على التقدم الروسي في سيبيريا.

١- قاومت قبائل القازاق التي كانت في حوض نهر نيسي الغزو الروسي الذي اتخذ انطلاقه من حصن قزيل جار الذي أقيم على نهر نيسي عام ١٦٢٨. ولكن الأسلحة النارية التي استخدمها الروس أضعفت من مقاومتهم، فاضطر توتوش زعيم أحد قبائل القازاق إلى قبول التبعية الروسية، ثم انقسم القازاق إلى ثلاث جماعات، بقيت جماعة مع توتوش في منطقة نيسي، وهاجرت جماعة ثانية إلى منطقة يتي سو، وأما الجماعة الثالثة فاستعانت بالقالموق النازلين في حوض نهري أيونيك Iyenek وقرأ أيريتش.

٢- قبيلة بوريات من قبائل المغول البدائية كانت تقطن حوض نهر تونغوسكا Tunguska مع إيفينك Evenk، وهم من التوتغوز ومع القازاق. وعند ما أقام الروس قلعة براتسكي أوستروغ Bratski Ostrog على نهر أنقارا Angara عام ١٦٣٠ قام البوريات مع القازاق بهجوم مشترك ضد القلعة عام ١٦٣٤.

وقد اشتدت مقاومة البوريات للغزاة الروس بشكل عام، وقامت

جماعة منهم بالهجوم على الروس في حوض نهر لينا عام ١٦٤١. ولكن دخول قبائل المانشور في خدمة الروس أضعفت مقاومتهم، ومع ذلك رفض البوريات دفع الجزية لهم فيما بين ١٦٤٤ و١٦٤٨، إلا أن نجاح الروس في بناء حصن أيركوتسك Irkutsk في منطقة أنقارا Angara عام ١٦٥٢ أدى إلى استسلام البوريات لهم.

٣- كانت قبائل التونغوز تقطن حوض نهري لينا وتونغوسكا Tunguska شرق بحيرة باي كل إلى شرق حوض نهر نيسي، و تعيش هذه القبائل متفرقة على الصيد، ومع أنها قبائل محاربة، إلا أن أسلحتها البدائية ما كانت تدفع عنها الغزاة الروس الذين يحملون الأسلحة النارية، علاوة على أن أطماع الروس في الفراء وهي السلعة الرئيسة أدت إلى معاملات غير متكافئة، وفرض الضريبة عليهم في عام ١٦٤٨.

٤- ياقوت: قبائل تركية تقطن حوض بحيرة باي كل إلى نهر لينا منذ فجر التاريخ، و كانت هذه القبائل تتكون من ناماس الذين يوجدون على الضفة اليسرى لنهر لينا، و يوجد في جنوبهم كانغالاس Kangalas ومغين Megin على الضفة اليمنى لنهر لينا، وبورغون Boragon على ضفة نهر تاندا، وفي الشرق باتوروست Baturust وياتولين Batulin، وكان الفراء بمختلف أنواعه أهم السلع التي تتاجر بها هذه القبائل الرعوية التي يتهافت عليها الروس.

و كان الزحف الروسي الذي اختط توسعه التدريجي على محاور ثلاثة: الجيش، والحصون، والتجارة. قد توسع في أراضي قبائل ياقوت من حصن ياقوتسك الذي أقيم على المجرى الأوسط لنهر لينا عام ١٦٣٢، ومع أن قبائل ياقوت قاومت هذا الغزو الروسي عام ١٦٣٣، إلا

أن الجيش الحديث بالنسبة لهذه القبائل الرعوية، مع استخدام أسلوب الضغوط الاقتصادية قضت على حركات المقاومة التي اندلعت في مختلف أراضي ياقوت في أعوام ١٦٣٤، ١٦٣٦، ١٦٣٧. وفي عام ١٦٤١ بعثت روسيا بتر غولوفين Betr Golovin والياً على منطقة ياقوت، فما كان من هذا الوالي الروسي إلا أن قتل ٢٣ أميراً من أمراء ياقوت الذين أخذتهم القوات الروسية رهائن، و بطش بزعماء قبائل المقاومين، و فرض عليهم ضرائب إضافية، حتى بلغ عدد الفراء الذي تم جمعه بالقوة من الأهالي، و إرساله إلى موسكو ١٠٢١٣١ من فرو السمور في عام ١٦٤٥.

وقد قام حصن ياقوتسك بدور مهم في استكمال الغزو الروسي لإقليم سيبيريا، حيث توجهت منه القوات الروسية نحو الشمال الشرقي إلى ممر برينغ وكامجاتكا Kamachatka، ومنه نحو الشرق إلى بحر أوخوتسك Okhotsk، ونحو الجنوب الشرقي إلى حوض نهر أمور، واستمرت هذه التوسعات الروسية إلى شبه جزيرة كالين التي تم احتلالها عام ١٨٧٦.

لقد كانت القبائل التركية والمغولية والتونغوزية التي تستوطن سيبيريا هي في مجملها قبائل وثنية، حاول كوجم خان ملك خانية سيبيريا (١٥٦٣، ١٥٩٨) أن ينشر بينهم الإسلام، واستعان بملك بخارى في إرسال الدعاة إليهم، ولكن عمليات الغزو الروسي لإقليم سيبيريا تسببت في توقف هذه الحركة الرسمية، و دخول هيئات التنصير الروسية التي بعثتها الكنيسة الأرثوذكسية بدعم من الحكومة الروسية، بهدف تحويل هذه القبائل البدوية إلى اتباع الكنيسة الأرثوذكسية، إلا أن موقف هذه القبائل من التوسع الروسي لم يحقق لها نجاحاً ملموساً، في الوقت الذي

نجح التجار المسلمون من التتار وأتراك آسيا الوسطى في إدخال قبائل التتار البدوية في حوض نهر نيسى وأولى إلى الإسلام في عام ١٧٤٥.

وقد رأينا أن ننقل هنا قصة سقوط سيبيريا كما ذكره العلامة أحمد الرمزي، وهو من أهل قازان عاصمة جمهورية تاتارستان، وقد كتب كتابه بالعربية، وطبعه في (أورنبورغ) في جمهورية روسيا الاتحادية قبل أن يستولي الشيوعيون على الحكم، وهو يعرف الروسية والتركية، وقد لخصه من مصادر كثيرة قال:

استيلاء الروس على سيبيريا: وقبل الشروع في بيان ذلك، لا بد من أن نبين نبذة من أوائل أحوال هذه الخانية^(١) على قدر ما وصل إليه علمنا، مع نقصان المآخذ التي في أيدينا.

قال الفاضل المرجاني: «خوانين»^(٢) سيبيريا من أولاد شيبان الذي هو الخامس من أولاد جوجي خان، كان دار ملكهم قلعة سيبير، وباسم آخر ايسكر على مسافة اثنتي عشرة، ويرست^(٣) من مدينة طوبل^(٤)، أولهم جاجي محمد خان بن علي بن بيك قوندي أوغلان بن منكوتيمر بن باداقل بن جوجي حوقل بن شيبان خان بن جوجي خان، ثم ابنه محمودك خان، ثم ابنه إبراهيم خان المعروف بأباق خان، ثم ابنه تولق خواجه خان، ثم ابنه شمائي خان، ثم ابنه أوراخان، ثم ابنه بهادرخان، ثم ابن عم جده مرتضى

(١) الخانية: المملكة، نسبة إلى الخان بمعنى الملك بالتركية.

(٢) خوانين: جمع خان، ومعناها ملوك.

(٣) ويرست: مقياس للمسافة عنده.

(٤) هي المدينة التي تسمى الآن (توبولسك) زرتها وذكرت ذلك في كتاب: «شمال سيبريا».

خان بن إبراهيم، ثم ابنه كوجم خان، وفي عصره استولى على مملكتهم برمق بن تيماف في سنة ١٠٠٣ هجري، وحيث لم يكن فيه اقتدار على حفظها باعها من الروسية، فذهب كوجم خان بعد ذلك إلى بلاد باشقرد، وأقام فيما بينهم، ومات فيها، ثم ابنه علي خان.

وفي سنة ١٠١٧ هجري اجتمع قوم التتار الذين في تلك الأطراف، وبايعوا ولده علي خان، ولكنهم لم يقدروا على استرداد دار ملكهم، ثم أخوه أيشم خان كان موجوداً في سنة ١٠١٧ هجري، وهو آخر خوانين تلك المملكة. ١. ه تعريبه حرفياً

هكذا قال هنا في نسبهم، وقد قال فيه عند بيان خوانين خان كرمان هكذا: أرسلان علي خان بن علي خان بن كوجم خان بن مرتضى خان بن آياق خان بن محمود خان بن حاجي محمد خان بن قيور جق خان بن روسخان، كان والده علي وأجداه كوجم ومرتضى علي وآباق ومحمودك وحاجي محمد من خوانين سيبرية، والبواقي معدودون من خوانين بلاد بلغار وآلتون اوردو إلخ. وروسخان هذا على قول المرجاني أيضاً من ذرية توقايتمير بن جوجي خان لا من أولاد شيبان.

والصواب الصحيح هو الأول، أعني كون خوانين سيبر من نسل شيبان بن جوجي خان، صرح بذلك كارامزين وأبو الغازي خان، إلا أنه لم يذكر كون اسم آباق إبراهيم، وأسقط المرجاني بين جوجي بوقا وشيبان واحداً يسمى بهادر، وهو ثاني أولاد شيبان، كما ذكره أبو الغازي خان، وذكره الفاضل المرجاني أيضاً في موضع آخر.

وقد ذكر كارامزين^(١) ما يخالفه، فإنه بعد ذكره سلطنة أوائل الأتراك، مثل آتيلا وديزابول في تلك الناحية وما يناسبها، ذكر أن أول من تسلطن فيها من التتار المسلمين من نسل شيبان أيواق خان وجينغيس خان وتاييوغاخان وخواجه وحفيد مار وابو آدير (لعله قاديير)، ويا بولاق خان، وقال إنه تزوج ببنت خان قزان، وكانت لها قرابة باباق خان، وقتل آباق^(٢) المار، وقتل محمد بن آدير الاباق، وبنى محمد هذا على مسافة ستة عشر ويرست من مدينة طوبل قلعة سماها أيسكر أوسيبير، وقال: إن تاييوغا أوجينغيس بنى بساحل نهر تور قلعة سماها جينغي، واستملكوا نواحي نهر أيرتيش وأوبي الكبير، وأسسوا هناك خانية سيير. وقال: إن آغيش بن يابولاق ومحمد بن قاضي وغيره من أولاده، ويادكار خان الذي صار خراجياً للروس، وبيكبولاط كلهم من أخلاف محمد بن آدير، وكذلك كوجم خان بن مرتضى خان من خوانين قرغيز.

ثم قال: وفي المحررات الرسمية التي حررت في سنة ١٥٩٧ ميلادي أن أول خوانين سيبريا أيواق خان جد كوجم خان، ثم محمد خان، ثم قاضي خان، ثم يادكار خان من ذرية تاييوغا، وقال: إن في محاربة أيرتش في سنة ١٤٨٢ كانت عساكر موسكو في شاطئ نهر أيرتش، وكانت التتار وقتئذ لا يتفكرون في سيبيريا حتى يظن أنهم كانوا لا يعرفون القلعة التي كانت تحت تصرف الكيناز^(٣) لائق (ولعله تولق الذي ذكره المرجاني)،

(١) مؤرخ روسي مشهور بتسجيل تاريخ الروس وعلاقتهم بالمسلمين في القديم.

(٢) يعني قتل آباق الخان المسمى بما كما تقدم، وليس المار اسم فاعل صفة، بل اسم شخص مفعول القتل. منه عُفي عنه

(٣) الكيناز بالروسية: الحاكم الكبير.

وهذا كما ترى ليس فيه الأسامي التي ذكرها المرجاني. والحاصل ليس في أيدينا في هذا الباب مأخذ يشفى العليل، ويروي الغليل، ولا يظهر من بيان كارامزين أيضاً كبير فائدة، ولا تاريخ تأسس تلك الخانية، ولا بيان أحوال هؤلاء الخوانين الذي سرد أساميهم.

وقال رفاة بك: وفي سنة ١٢٤١ من الميلاد (مصادفة سنة ٦٤٠ هجري) أسس التتار على شطوط نهري أيرتيش وأوبي خانة تسمى خانة سيبر باسم قاعدتها، وتسمى أيضاً خانة تورا باسم نهر قريب منها. وقال في موضع آخر: وقد كانت مدينة سيبر قاعدة التتار مدة إقامتهم في إقليم سيبر، وهذه المدينة واقعة على ست عشرة ورسته من تبولسك على نهر صغير يسمى سيبركا، وقل أن يوجد الآن من مدينة سيبر بعض آثار هيئة ا. هـ. بحروفه.

فعلى هذا يكون ابتداء خانية سيبر في وقت واحد بابتداء خانية سراي، وهو المطابق لما ذكره أبو الغازي خان من أحوال شيبان من أن أخاه باتو أعطاه شرقي أورال، ولكن استقلالها لا يكون إلا وقت وقوع الاختلال والاختلاف بين خوانين التتار، وحيث لم نجد مأخذاً صحيحاً نأخذ منه الحوادث في هذا الباب، لم نجد بدأ من أن نطويها على غيرها^(١)، ولكني أرى من أكد الواجبات أن أذكر هنا أن أقوام سيبريا كانوا مسلمين منذ انتشرت أنوار الإسلام في تلك الأقطار، ولا سيما بعد أن غشيت قوم تتار سوى طائفة قالمق، والشاهد العدل لذلك كون أسامي خوانين سيبر قبل كوجم خان أسامي إسلامية كما مر ذكرهم آنفاً، فما شاع بين العوام من أن كوجم خان أرسل إلى عبد الله خان ببخارى

(١) كذا فيه، وبعض عباراته غير مفهومة، وبعض الأعلام غير معلومة لنا.

يلتمس منه إرسال العلماء لنشر دين الإسلام في تلك الأقطار، فأرسل إليه أنصاراً من سادات أوركانج لا أصل له، أي داع هناك لإرسالهم من أوركانج دون بخارى؟ ألقلة العلماء والسادات ببخارى؟

والشجرة التي يذكرونها كذبة محضة لا أصل لها، كيف تصدق شجرة رتبت بشهادة العمائم الخضر والذوائب الطوال، ولعمري إن هذه فرية بلا مرية، ولنعم ما قال الشهاب الخفاجي في أمثالهم: غراب خرج من عش بلبل، وعلوي صح نسبه من دلدل، مع أن التاريخ الذي يذكرونه في إرسال كوجم خان السفراء إلى بخارى لطلب العلماء كان الخان فيه ببخارى إسكندر خان والد عبد الله خان، لاهو، ولئن سلمنا على إرسال العلماء بناء على أن إسكندر خان كان خاناً اسماً فقط، وكان الأمر بيد ولده عبداً لله خان، لا نسلم أن طلب كوجم خان العلماء، وإرسال عبد الله خان إليهم كان لنشر الدين الإسلامي، بل كان للتعليم ونشر العلوم، فإنهم لما كانوا مسلمين غير محتاجين لنشر الإسلام بينهم، ولكنهم لما كانوا بعداء من سائر بلاد الإسلام ومراكزها، وكانوا سكان البادية في ناحية من العالم، كانوا جهلاء محتاجين إلى العلماء للتعليم، ونشر العلم فيما بينهم، وكثيراً ما يستعمل نشر الدين معاشراً للمسلمين بمعنى نشر العلم، لكون الدين والعلم عندنا شيئاً واحداً، فيكون^(١) معنى لنشر الدين لنشر العلم.

هذا وقد ذكرنا كون يادكار خان السيبيري خراجياً للروس، ثم ذكر كارامزين بعض معاملته معهم، وقتله سفير الروس، ثم عزل الأمير إسماعيل من أمراء نوغاي إياه من الخانية.

(١) فلا عبرة بقول السائح فيشر أوكيشر. منه عفي عنه.

ثم ذكر وقوع المعاهدة والمكاتبة بين الروس وبين خان سيبريا الجديد كوجم خان المصدق فيها كون أراضي سيبريا خراجية للروس، وذلك في سنة ١٥٦٩ م مصادفة سنة ٩٧٧ هـ ثم ذكر إرسال عبد الله خان البخاري سفيراً إلى أيوان^(١) يطلب^(٢) منه قبول تجار بخارى في كافة بلاد الروسية، فضلاً عن حاجى طرخان وقازان فقط. ثم ذكر بعد ذلك مساهلة كوجم خان في رعاية شروط معاهدته مع الروسية، وعدم أدائه الخراج الذي التزمه، ومحاولته استجلاب أقوام أيسناك ووغول إليه، وإرادته تقوية دولته، وتأييد استقلاله، وأنه زوج ولده على ابنة أمير طائفة نوغاي تين (دين) محمد، وأنه كان يحرك الجرامشة ضد الروس، وأنه كان يرسل عصائب من رعاياه وعسكره إلى حدود بلاد الروسية، وشواطئ نهر قاما للغارة دائماً، حتى إنه أرسل قريبه محمد قل بفرقة من العساكر إلى شواطئ نهر قاما للغارة، فجاؤوها وشنوا فيها الغارة، وكان ذلك في سنة ١٥٧٣ م مصادفة سنة ٩٨١ هـ، ثم ذكر بعد ذلك عصيان قازاق دون، وقيامهم على الروسية، وظهور برمق بن تيمبا في المشهور بصورة غريبة، ووقائع العجيبة، واستيلاؤه على سيبريا وتسليمها على الروسية.

وخلصته أن برمق هذا ظهر في سنة ١٥٧٧ م مصادفة سنة ٩٨٥ هـ، واجتمع لديه كثير من أشقياء قازاق دون، فتوجه بهم نحو الجهة الشرقية من نهر وولغا^(٣)، وحارب هناك الأقوام التتارية والنوغائية، وفرق جمعهم،

(١) هو (إيفان) الرهيب.

(٢) وهذا يمكن أن يكون مما استدل به السائح فيشر على أن تجار بخارى كان لهم تأثير كبير في انتشار الدين الإسلامي في سيبريا وشواطئ أيرتس وأيشم وأورال. منه عفي عنه.

(٣) هو نهر الفولغا.

ونهب أموالهم، وأسر أولادهم، وخرّب بلادهم، وكانوا بعد خراب سراي على يد مكلي كراي خان القريمي اتخذوا بلدة سرايچق التي بساحل نهر أورال كرسى سلطنتهم، فخرّبها عن آخرها، بحيث لم يترك فيها حجراً فوق حجر، ثم انعطف منها مع جمعه نحو الشمال، ومقرّبياً من بيرم، ووقع له في ممره وقائع كثيرة، حتى انتهى به السير إلى حدود بلاد سيبر التي كانت تحت حكومة كوجم خان وتصرفه في أوكتوبر من سنة ١٥٨١ م مصادفة سنة ٩٨٩هـ.

وقد انضم إليه كثير من الروس والنمسة وليتوانيا وغيرهم لاستتقاذ إسرائهم الذين كان أسرهم أحد أمراء نوغاي، فأول ما بدأ به أمره هناك أن أخذ بليدة بساحل نهر تاري، كانت تحت إمرة الأمير بيانجي، وشرده منها وخرّبها.

ثم أسر أميراً من أمراء كوجم خان يسمى تاووزاق، فلما بلغ هذا الخبر كوجم خان شرع في الاستعداد للمدافعة، فجمع العساكر من أقطار مملكته، وأقام بنفسه هناك، وأرسل قريبه محمد قل لمدافعة برمق، ومعه كثير من العساكر الخيالة، فوقع أول القتال بين الفريقين بساحل نهر طوبل، ثم على مسافة ١٦ ويرست من نهر أيرتش بموضع كان تحت تصرف الأمير قراجه مقرب كوجم خان، فاستولى عليه برمق، ثم ثالث الوقعة^(١) وقعت على نهر إيرتش، واشتد الأمر هناك فخرج كوجم خان من الاستحكام، وطلع فوق جبل جواش، وفوض الاستحكام لمحمد قل، واستولى برمق على بليدة آتيق ميرزا، وقد كثر الجراح في عسكره، فاستشار أصحابه ليلاً فيما يفعله بعد ذلك، فأشار إليه بعض أصحابه

(١) لعلها الوقعات.

بالعود فأبى، وصمم على إدامة القتال إلى أن يحرز الغلبة، أو يموتوا عن آخرهم، فلما أصبح الصبح، وكان ٢٣ أوكتابر على حساب الشرقيين، بدئ القتال، واشتد الأمر جداً، وكان الهجوم على الاستحكام الذي أقامه كوجم خان، فجرح الأمير محمد قل في تلك الأثناء، فحملوه إلى الضفة الثانية من نهر أيرتش، وصار من نتيجته أن استولى برمق على الاستحكام، فذهب كوجم خان نحو بركة أيشم آخذاً خزائنه، وفي ٢٦ أوكتابر دخل برمق بلدة أيسكر التي هي كرسي خانبة سيير وحاز ما فيها من أنواع الأموال، وكان ذلك في ١٥ رمضان تقريباً من سنة ٩٨٩ هـ^(١) بعد سنة ٣٠ من أخذ قزان، ثم لم يزل يتتبع أثر كوجم خان، ويفتح المراكز واحداً بعد واحد، ويجيء رؤساء القبائل يعرضون عليه الطاعة وأداء الخراج، حتى فتح معظم بلاد سيير، وأسر الأمير محمد قل، وأرسله إلى موسكو، ثم بعد فراغه من فتح البلاد وهب كلها لإيوان المدهش، فأرسل هناك العساكر المستحفظين والولاية وسائر الحكام، فاستلموها من يده، فدخلت تلك الأقطار كلها في قبضته وتحت تصرفه عفواً من غير تعب ولا نصب ولا وصب.

وقد قصد كوجم خان بعد ذلك مراراً كثيرة استرجاع ملكه مدة حياته، ثم ولده بعد ذلك، ثم حفيده كراي خان كذلك مراراً، ولكنهم لم يقدروا عليه.

(١) فعلى هذا يكون مراد الفاضل المرجاني من ذكره تاريخ انتزاع الروس السيبيرية من يد كوجم خان تبعاً لأبي الغازي خان، إما وهماً وإما تاريخ وفاة كوجم خان، والله سبحانه أعلم، وقال أبو الغازي خان إنه عمر عمراً طويلاً، وملك سنة، وعمي في آخر عمره، ومات بين قبيلة منغت، لأنه جاء إليهم بعد استيلاء الروس على بلاده. منه عفي عنه.

قال في بعض تواريخ الروسية إن واحدة من نساء باشقرد التي وقعت أسيرة بيد قرغز، ثم تخلصت، أخبرت أن كراي خان حفيد كوجم يريد أن يهجم على بلاد سيبر، وكان ذلك في سنة ١٦٥٤ م.

وقال فيه أيضا إن واحداً من طائفة باشقرد أخبر أن كافة طوائف باشقرد يريدون القيام والعصيان على الروسية، والإعانة لكراي خان، وكان كراي خان قد استقر في الوقت المذكور مع ٢٠٠٠ من عساكره في أعالي نهر أيشم، وكان ذلك سنة ١٦٦٧ م مصادفة سنة ١٠٧٨ هـ، فمن يعجب من استئصال جنكيز خان بعساكره الحرارة القوية المنتظمة غاية النظام، المدربة غاية التدريب، دولة خوارزم شاه، فبالحري له أن يعجب من نزع واحد من رؤساء الأشقياء سلطنة واحد من ذريته بعد مرور ثلاثمائة سنة، وكسور من ظهوره، وأعجب وأغرب من الكل عدم قدرتهم على استردادها بعد موت إيوان المدهش وولده، فيودر، وضعف دولة الروسية في أثناء الفترة الواقعة بعدهما، سبحان من يتحير عقول الفحول في صنعه، وسبحان مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء من غير سبب ظاهر في ذلك كله، لا يسأل عما يفعل، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

قال الحموي بعد ذكره خراب أسبيجاب، وأسفه عليه: وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين، وصلاح مبين، ونسك وعبادة، والإسلام فيهم غض المجنى، حلو المعنى، يحفظون حدوده، ويلتزمون شروطه، لم يظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء، ولكن الله يفعل ما يشاء.

أشعار

رمت بهم الأيام عن قوس غدرها كأن لم يكونوا زينة الدهر مرة

وما زال جور الدهر يغشى ديارهم يكر عليهم كرة ثم كرة
فاجلى بهم عنا جميعاً فأصبحت منازلهم للناظر اليوم عبرة
كذلك نقول في حق بلاد قازان، وحاجى طرخان، وسيبيريا وغيرها
من بلاد المسلمين التي أصيبت بتلك المصيبة، فلا معنى لتبجح كارامزين
الروسي ووقاحته في هذا الموضع. شعر:

وقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
وكل آت قريب، والدهر لا يدوم على حالة واحدة، الأيام دول،
والحرب سجال.

انتهى كلام الشيخ الرمزي في كتابه (تلفيق الأخبار).

المشاهدات

يوم الأحد ١٠ مايو ١٩٩٢ م

من اما أنا الى إيركوتسك:

سيكون سفرنا من (المأتا) عاصمة جمهورية قازاقستان إلى مدينة إيركوتسك في الجنوب الشرقي من سيبيريا، فهي قريبة من قازاقستان، بل إن بعض الروس يقولون ويعيدون القول بأن جزءاً من قازاقستان يعتبر من الناحية الجغرافية من سيبيريا، ولكنهم لم يكونوا يقصدون أنه ينبغي أن يعود إلى سيبيريا، لأن كلامهم ذلك عند ما كانت قازاقستان وسيبيريا كلتاهما ممتلكات التاج القيصري الروسي، ثم ظلوا يقولون ذلك عندما كانا يتبعان الزعيم الشيوعي الروسي في موسكو الذي كان قد ضمن أنهما لروسيا، سواء أكانا في جيب واحد أم في جيبيين متجاورين من ثوبه. وإلا فإن الصحيح أن جزءاً من سيبيريا كان أرضاً مسلمة في القديم، وأنه كانت فيه (خانية) أي مملكة مسلمة اسمها (خانية سيبير) كما تقدم.

وعلى أية حال فإن الذي كان في أذهاننا ونحن نستعد للسفر إلى سيبيريا كان الخوف من البرد الشديد، لأننا عندما كنا نزمع السفر إلى قازاقستان كنا بخوف شديد من البرد، إذ فاجأتنا موجة من البرد الشديد، وصل الجو فيها إلى درجة التجمد، ونحن في شهر مايو الذي يسمون أوله هنا عيد الربيع، فسقط الثلج علينا ونحن في مدينة (بشكك) عاصمة جمهورية (قيرغيزيا)، ولما سألنا عن سبب هذا البرد الشديد مستغربين حصوله في هذا الشهر الذي كنا في الشهر الذي قبله، وهو إبريل، في هذه البلاد قبل سنوات، فكان الجو فيها معتدلاً، أجابوا بأن السبب هو وجود موجة من البرد قادمة من سيبيريا، ولم نكن قد أخذنا للبرد أهبطه اعتماداً منا على أنه قد ولى الأدبار، وخل فصل الربيع بعد أن

قصر الليل وطال النهار.

ومع ذلك مسّنا منه العذاب في بلاد بعيدة عن سيبيريا، بل بينها وبينها حجاب من جبال ووديان، وهي مدينة (بشكك).

فما بالك بنا اليوم ونحن نذهب إلى عريسة الأسد، وندخل على الحية في جحرها، وحية سيبيريا هي بردها؟

لقد كان هذا الخاطر مكدرًا لنا، إلا أن أقامتنا الأيام القليلة الماضية في (المأتا) عاصمة قازاقستان قد فرجت عنا بعض ما كنا نحس به، إذ ذهب منها البرد الشديد، وحل محله هواء الربيع الجديد، فكان الجو أول ما وصلناها بارداً، ما لبث أن غدا ربيعاً معتدلاً.

ومع ذلك فإن مجرد التفكير بكون المرء سيصل إلى سيبيريا ذات الأرض الثلجية، والأنفاس التي جعلتها النكت المبالغ فيها تتجمد عندما تخرج من الأنوف، بل ذات التاريخ الغليظ من تجميد الدم في العروق، والريق في الحلوق كافٍ للتكدير.

مع العلم بأننا نعرف من طبيعة تلك الأرض أن فيها من طبيعة المناخ الصحراوي، وإن شئت الدقة قلت: المناخ القاري ما يجعلها - على قسوة بردها في الشتاء - حارة في الصيف بالنسبة إلى الشتاء، وإن كان حرها الصيفي يعتبر بمثابة الربيع، إذا قارناه ببردها الشتوي المريع.

وكان من المقرر لنا أن نزور مدينتين في منطقتين سيبيريتين مختلفتين، هما مدينة (إيركوتسك) هذه التي تتوجه إليها رحلتنا بعد قليل، ومدينة (أومسك) التي تقع عنها جهة الشمال الغربي موغلة في بلاد البرد والصقيع حتى في فصل الربيع.

خرجنا من مدينة (المأتا) ومعنا سيارتان، إحداهما سيارة أخ كريم من عامة الشعب، هو الشيخ أحمد قاري، وهو قازاقي أصيل في مظهره ومخبره، أما المظهر فإنه هو مظهر التركي الأصيل الذي لم تشبه شوائب العثمانية التركية التي اختلطت بالأقوام الإسلامية في البلاد التي فتحها العثمانيون، ثم اختلطوا بأهلها على توالي القرون.

ويتميز التركي الأصيل الذي يكون قد عاش في (مهد الترك) بضيق العينين، وارتفاع الوجنتين، وغلظ الوجه، وسمرة الطلعة، وسماحة الطبع إذا ذكر الدين، وكرم الضيافة للمسلمين، والبعد عن التفاصيل الدقيقة في أمور الدنيا، وعدم الاعتزاز بأصله التركي الأصيل.

وشيء آخر لازم، وهو أن يكون مسلماً متعصباً لإسلامه، سواء أكان ملتزماً به أم غير ملتزم.

وإذا لم يكن متديناً فإنه قد يكون عديم الدين، بمعنى أنه غير مسلم، ولكنه لا يعتق غير الإسلام أي دين.

فالتركي الأصيل إما أن يكون مسلماً أو غير مسلم، ولكنه لا يغير دينه إلى دين النصراني أو اليهود أو غيرهم.

أما بالنسبة إلى صاحبنا الأخ (أحمد قاري) فعاشاه من نقص التدين، بل حاشاه من نقص الورع، فهو إمام مسجد، ومتحمس لدينه الإسلامي الحنيف، إلى درجة لا يصدقها بعض العرب الذين لا يعرفون شدة تمسك إخوانهم المسلمين بدينهم في بلادهم.

وهو إلى ذلك، أو من أجل ذلك قد تفانى - عن عقيدة - في خدمتنا نحن إخوانه القادمين من بلاد الحرمين الشريفين، فجزاه الله خيراً.

ومن الأمثلة على ذلك أن وقود السيارات هو الآن شحيح في محطات بيع الوقود في (المأتا) عاصمة قازاقستان، مع أن البلاد فيها ثروة نفطية واسعة، كان الاتحاد السوفيتي قبل انحلاله يهيمن عليها، فيضمها إلى ما يصدره من نفل خام يبيعه في الأسواق العالمية، ويجني منه عملات صعبة يعتمد عليها في معاملاته الخارجية.

وكان الوقود متوافراً في داخل البلاد مع ذلك، والآن - بعد الاستقلال - شح البنزين، وقل وجوده، حتى أصبح سؤال أرباب السيارات بعضهم لبعض عما في صدور سياراتهم من البنزين، وكم يكفيها من وقت.

وقبل يومين لم نكن نجد سيارة توصلنا للفندق من السيارات التي كان مستقبلونا قد أحضروها لنا، لأن الوقت ليل، ولا يوجد وقود للبيع حتى في النهار.

وقد عللوا ذلك بتعالييل مختلفة، فمن قائل إن سبب ذلك هو رخص البنزين رخصاً زائداً في هذه البلاد، إذ يبيعون اللتر الواحد بثلاثة روبلات، ولا يكاد يساوي ذلك شيئاً بالنسبة إلى سعر الصرف للدولار الأمريكي في الوقت الحاضر الذي يصل إلى ١٤٥ روبلاً.

ومن قائل: إن الحكومة (القازاقية) تريد ذلك، وهكذا ينبغي أن تتسبب إلى الجنس القازاقي الذي سميت باسمه البلاد (قازاقستان)، أي بلاد القازاق، ولو قلنا (القازاقستاني) كما نقول الباكستاني لكان ذلك أصدق على واقع الحال فيها في الوقت الحاضر.

وذلك لكون مقاليد الأمور فيها في الوقت الحاضر هي بأيدي أناس من ذوي الأصول الأوروبية الذين أكثرهم من الروس، وأقلهم من

الأوكرانيين والروس البيض والأرمن وأمثالهم، حتى رئيس الوزراء فيها هو روسي اسمه (شيرنكو)، ولو قلنا فيه إنه رئيس الوزراء القازاقي، فنسبناه للقازاق، لكان ذلك غير صحيح.

قال قائل: إن الحكومة القازاقستانية تباع النفط في أسواق الخارج من أجل الحصول على العملة الأجنبية التي تحتاجها، ويصعب الحصول عليها لقلة ما تستطيع تصديره من البضائع في الأسواق العالمية، ولو كان في ذلك شح للوقود في داخل البلاد.

واعترض آخر من القائلين على هذا بقوله: إن النفط موجود في البلاد، ولكن المصايف موجودة في جمهورية روسيا المجاورة، والموجود منها في (قازاقستان) لا يسد حاجة البلاد، وذلك وفق تخطيط اقتصادي شيوعي استعماري - على صعوبة التآلف بين هاتين الكلمتين - وذلك من أجل ربط اقتصاد هذه البلاد وغيرها من الجمهوريات المسلمة في بلاد آسيا الوسطى، وشمالها الشرقي باقتصاد الجمهورية الروسية.

ولم يكن الناس يحسون بذلك عندما كان الاتحاد السوفيتي بمثابة الدولة الواحدة التي لا توجد حواجز جمركية ولا سياسية بين أجزائها.

أما الآن فقد غدا ما ل (قيصر روسيا) له، وما لأهل الجمهوريات الأخرى لهم، وإن كان الذي غدا له هو الأكثر والأهم، لأنه وإن لم يكن كله مادياً، فإن المادي منه، يتوقف الانتفاع به على العلم المعنوي الذي لا يملكه إلا ذلك القيصر.

ونعود مرة أخرى إلى الحديث عن الأخ الكريم القازاقي المأتى نسبة إلى (المأتا)، فنقول: إنه كان إذا أردنا أن نتجول بسيارته يذهب إلى بيته، لا إلى محطة بيع وقود السيارات، فيفرغ في سيارته (بنزيناً) من أوعية

عنده، كان قد حفظ فيها (البنزين) في البيت للحاجة الماسة إليها مثل وجودنا عنده.

والسيارة الثانية كانت سيارة رسمية ولو من الناحية الشكلية، فهي سيارة الإدارة الدينية في قازاقستان، وليست سيارة حكومية، فالإدارة الدينية هي إدارة خاصة تتسلم ما تحتاج إليه من نفقات من تبرعات المسلمين.

وكنا قد غادرنا فندق قازقستان الذي سكناه في (المأتا)، ودفعنا له أجرته بالروبل الروسي الذي لا يزال عملة جميع الجمهوريات السوفيتية السابقة، بما يعادل عشرة دولارات أمريكية، ولو كانوا طالبونا أن ندفع ذلك بالدولار لبلغ ما يزيد على مائة وعشرين دولاراً.

كما كان معنا في الوداع في مطار (المأتا) الشيخ محمد حسين عثمان، نائب مفتي قازاقستان الذي يراد به مدير الإدارة الدينية فيها، والإدارة الدينية فيها مثل غيرها من البلدان السوفيتية السابقة، تعترف بها الدولة من ناحية وجودها، وطبيعة عملها، ولكنها لا تساعدها. كما لا تساعد أي مشروع ديني في البلاد، ولا يتطلع الناس إلى مساعدة الدولة لهم على شؤون دينهم في الوقت الحاضر، لأنهم كانوا قد عانوا من محاربة الدولة للدين في الماضي، ما جعلهم ينشدون مع أبي الطيب المتنبّي قوله:

إننا في زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إفضال وإحسان

فالدولة الآن يستوي في ذلك كل الجمهوريات المسلمة التي كانت داخلة فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي لا تساعد المشروعات الإسلامية، ولا تدفع لأي رجل من أهل الدين، والقائمين بالوظائف الدينية راتباً، أو مخصصاً أو أي نوع من أنواع المساعدة.

وإنما تقتصر مساعدتها على منح الأراضي التي يريد المسلمون أن يقيموا عليها مساجد بديلة من المساجد القديمة التي كان الشيوعيون قد صادروها، أو أن يبنوا مسجداً جديداً على أرض جديدة في حي ليس فيه، ولا بقربه مسجد.

فهي تدفع إليهم الأراضي بالمجان وبسخاء نادر، لأن الأرض كلها مملوكة للدولة، ولذلك هي متوافرة لديها في جميع أنحاء البلاد حتى داخل المدن أو في ضواحيها.

وقد تزيد على ذلك بأن تسهل حصول المسلمين على المواد اللازمة للبناء، مثل الإسمنت والآجر والحديد والأخشاب، وتلك مواد لا توجد للبيع في السوق الحرة، وإنما تبيعها الحكومة وهي تنتج بعضها في مصانعها، وتبيعها للناس بثمن رخيص، ولكن ذلك بمقادير غير كافية، لذلك تكون هذه المواد شحيحة في السوق، والذي يوجد منها عند الأفراد يباع بأسعار باهظة، فتوعز الحكومة إلى مصانعها وأماكن البيع عندها بأن تعطي المسلمين ما يلزم لبناء المسجد من هذه المواد بالأسعار الرسمية أو المخفضة.

وهذه مساعدة قيمة لم تكن متيسرة من قبل، لأن الحكومات الشيوعية لم تكن تعترف بالدين - أي دين - بل هي تحاربه.

وكان معنا أيضاً في الخروج من مدينة (المأتا) إلى مطارها الشيخ (ذبيح الله إسماعيل) نائب إمام جامع (المأتا) الكبير.

ومن الطريف في اسمه أن موظف الجوازات في (المأتا) كأنما لم تكفه هنا الغرابة باسمه (ذبيح الله)، فكتبه في الجواز بدلاً من ذلك (زبيب الله)، لأنه لا يعرف معنى الكلمتين.

ولذلك عندما كنا نتعدى هذا اليوم في (المأتا) قبل الخروج إلى المطار سأله أحدهم عن اسمه، فنظر الشيخ (ذبيح الله) إلى زبيب كان على المائدة، وأشار إليه قائلاً: يريد أن اسمه (زبيب الله) كما كتبه ضابط الجوازات في جوازه الذي سافر به لأداء فريضة الحج في العام الماضي.

إجراءان المطار:

وصلنا مطار المأتا، وهو لا يبعد عن قلب المدينة إلا نحو عشرة كيلو مترات، فصعدت إلى مقهاة نظيفة في المطار، وكل ما فيها جديد أو مجدد، وهو أمر قليل الوجود في البلدان الشيوعية، فجلست فيها وحدي أكتب فيما تقرأه الآن، وبينما كان المودعون من الإخوة القازاقيين يساعدون رفيقي في الرحلة، وهما الأستاذ محمد محمود حافظ، والأستاذ رحمة الله بن عناية الله على وزن الأمتعة والترجمة لهما من الروسية إلى العربية.

وذلك أن القازاقيين لا يستعملون لغتهم في الإدارة في بلادهم، وإنما يستعملون اللغة الروسية، لأنها لغة الإدارة، بل هي لغة الثقافة والتعليم في هذه البلاد.

وبذلك نجد أن كثيراً من الإخوة القازاقيين الذين ولدوا في المدن، وترعرعوا فيها، وتعلموا في مدارسها، قد نسوا لغتهم واستبدلوا بها الروسية لغة المستعمرين القدماء والمحدثين من الروس القيصيرين ثم الشيوعيين. وإن كان هؤلاء لا يمثلون إلا أقلية بين السكان القازاقيين.

ومن الطريف في الأمر في هذه المقهاة أنني استفدت من وجودي فيها بالكتابة، لأنه لم يكن فيها معي أحد، فأنا وحدي فيها رغم كون المطار فيه أناس كثير، بعضهم سيسافر معنا إلى سيبيريا، وبعضهم سيسافر على

طائرات أخرى.

ومما تجدر ملاحظته هنا أننا وجدناهم قد خصصوا مكتباً في المطار لترحيل الأجانب من غير مواطني الاتحاد السوفيتي، بحيث لا يختلطون بالمواطنين عند الترحيل، وذلك له عندهم فائدة كبيرة، وهي عدا مراقبتهم مراقبة دقيقة، فإن كل شيء يدفعونه للمطار يكون بالعملة الأجنبية الصعبة، بخلاف المواطنين، فإنهم يدفعون بالروبل.

وبالنسبة لحالنا نحن فإنهم طلبوا منا أن ندفع (١٤٧) دولاراً أمريكياً بالعملة الصعبة، مقابل ما زاد على الوزن المعتاد لأمتعتنا، مع أننا لم ندفع أي شيء مقابل ذلك للطائرة الأوزبكية - أي التابعة لجمهورية أوزبكستان - التي جئنا عليها من جدة إلى طشقند، وهي طائرة (أيروفلوت)، مثل هذه التي سنطير فيها إلى سيبيريا. كما أنهم في مطار طشقند لم يتقاضوا منا شيئاً على الأمتعة الزائدة، مع أنها أكثر مما هي عليه الآن، إذ كان فيها صناديق من الورق المقوى ثقيلة كانت فيها نسخ من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة القازاقية، كان مجمع الملك فهد لطبع المصحف الشريف في المدينة المنورة قد طبعها، وتسلمنا منها نماذج حملناها معنا لأهل هذه البلاد.

أما تذاكرنا فأنها مقطوعة من بلادنا، وهي بالعملة الصعبة بطبيعة الحال.

ومن الطريف في الأمر أن مكتب ترحيل الأجانب في المطار لم يكن عليه غيرنا إلا شاب أوربي المظهر، وإذا لم يكن يزيد الركاب الأجانب في الطائرة على أربعة، على حين أنها تحمل (١٢٠) راكباً في العادة، وهي مليئة بالركاب أو تكاد.

ومن إجراءاتهم الجيدة نحو الأجانب، أنهم أحضروا لنا حافلة صغيرة جديدة نظيفة أركبونا فيها من قاعة المغادرة إلى الطائرة، وصحبتنا فيها مضيئة أرضية، ولم يكن فيها معنا نحن الأجانب أحد، ونحن أربعة، ثلاثة منا سعوديون، وذلك الشاب ذو المظهر الأوربي.

وقد أخذنا مقاعدنا في الطائرة قبل وصول سائر الركاب الذين أحضروهم بحافلة كبيرة، وليس في الطائرة درجة أولى، ولا في بطاقات الصعود إليها أرقام، لذلك كان إركابنا قبل الركاب مريحاً، وبخاصة لي أنا الذي أحرص على أن أكون بجانب النافذة إذا كنت أسافر مع طريق أسلكه لأول مرة، مثل سفرتنا هذه.

مع أنني لا أتيقن من سبب تخصيصهم إيانا بذلك، أهو كوننا أجانب ثمن تذاكرهم بالعملة الصعبة، أم لكوني أحمل جواز سفر سعودياً (دبلوماسياً) ٩.

وعلى ذكر الجواز أقول: إن السفر في جميع أنحاء ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، والأقطار التي كانت منضمة إليه، ومنها الجمهوريات الإسلامية، يقتضي من الراكب ان يطلع الموظفين على جواز سفره، سواء أكان أجنبياً أم مواطناً، وسواء أكان السفر داخل الجمهورية التي هو من مواطنيها، أم كان من جمهورية أخرى داخل الاتحاد السوفيتي.

والأجانب من باب أولى في هذا الأمر، خلاف ما هو معمول به في أكثر الأقطار الأوربية والآسيوية، ناهيك بأقطار أمريكا اللاتينية، من كون السفر الداخلي من مدينة إلى مدينة أخرى داخل البلد لا يحتاج إلى إبراز الجواز أو وثيقة السفر.

وشيء آخر هنا لافت للنظر، وهو ان قازاقستان دولة مستقلة ذات

سيادة، وهذا كان ثمرة إعلان بذلك سابق حتى لانهباء الاتحاد السوفيتي، ومع ذلك فإن طيرانها، أو لنقل: الطائرات التي تهبط في مطاراتها، أو تقلع منها، ليست (قازاقية) خاصة، فليس عليها كلمة واحدة تفيد ذلك، بل إن الكتابة عليها تدل على أنها هي أيروفلوت المعروفة عالمياً بالخطوط الروسية، وخطوط الطيران الروسي الآن، وقبل ذلك بخطوط الطيران السوفيتي، وليست عليها كتابة بغير اللغة الروسية حتى ولو حرفاً واحداً.

وعندما صعد الركاب وهم كثر إلى الطائرة تأملتهم لأرى استعدادهم لبرد سيبيريا، لأن بعضهم من أهل تلك البلاد، وبعضهم كما تبين لنا هم من المسلمين الذين يعملون فيها، وهم من أهل أوزبكستان، ولكنهم استمروا في أعمالهم فيها مثلما استمر الروس في أعمالهم في الجمهوريات المسلمة دون ضغط بالبقاء، أو بالجلاء، فوجدتهم جميعاً يلبسون ملابس معتادة ليس فيها أثر لاتقاء البرد القارص، فعرفت أن الجو في سيبيريا الآن هو جو مقبول.

المطر بشير بالدق:

كان الراكب القريب مني في الكرسي أماً مسلماً، أصله من وادي فرغانة في أوزبكستان، وأهل وادي فرغانة من أكثر الإخوة المسلمين في بلاد ما وراء النهر تمسكاً بإسلامهم، فسألته عن حالة الجو في سيبيريا الآن ؟

فقال: الآن الجو مطر، ولم يكن يقصد بذلك أن المطر يسقط الآن، وإنما قصد أن الوقت هو وقت المطر، وأن وقت الثلج قد انحسر.

ونزول المطر في أواخر البرد الذي يمتد في شمال روسيا وسيبيريا يكون في أواخر إبريل وأوائل مايو، وإذا نزل المطر كان ذلك دليلاً على

انقضاء الشتاء وحلول الربيع.

ذلك بأنه إذا كانت درجة الحرارة أدنى من الصفر المئوي، فإن المطر يتجمد وهو ينزل فيصير ثلجاً، ويظل كذلك حتى يحل الدفء النسبي في ذلك الوقت، فينزل المطر من السحاب بديلاً من الثلج.

وأذكر أننا عندما قدمنا إلى الاتحاد السوفيتي أول مرة، وكان ذلك في عام ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م، وصلنا موسكو يوم ١٥ إبريل، وكانت مضيئة الطائفة قد أعلنت من مكبر الصوت فيها أن درجة الحرارة في موسكو هي صفر مئوي، ومع ذلك عندما دخلنا قاعة كبار الزوار في المطار، وسألتهم عن الإحساس بالبرد عندهم هذا اليوم؟ أجابوا بأن المطر نزل، وأن هذه هي أول مرة ينزل فيها المطر على موسكو بعد حلول الشتاء، وإن نزول المطر هو دليل على دفء الجو، وبدء حلول فصل الربيع.

وقد فوجئنا بكثرة الذين يقومون من مقاعدتهم في الطائرة ويسلمون علينا، يحيوننا بتحيةة الإسلام، وتبين أنهم مسلمون من بلاد ما وراء النهر، يعملون أو يقيمون في سيبيريا، مما يدل على كثرة المسلمين هناك.

والمراد بالمسلمين هنا المسلمون بالاصطلاح، وليس من يحققون الإسلام بأقوالهم وأفعالهم واعتقادهم مع الأسف.

ومن الطريف اللطيف في الأمر أنهم بادرونا بتقديم الخبز والخيار في الطائرة قبل أن تقلع، وأقصد بذلك إخواننا من الركاب المسلمين، والخيار عندهم شيء نفيس في هذا الوقت من السنة، لأنه لا يمكن أن يوجد في البلدان الباردة إلا محمياً في بيوت زجاجية، ويقتضي ذلك تدفئته، ويكلف ذلك أموالاً طائلة يصعب على المواطنين دفعها، لذلك لا يكادون يذوقونه إلا في الصيف، حيث يكثر ويرخص رخصاً متناهياً.

وأما في مثل هذا الوقت من أول الربيع، فإنه يكون موجوداً، ولكنه نادر.

وأما تقديم الخبز فإن ذلك يدل على شيئين، أولهما أن الخبز في هذه البلاد التي كانت تعتبر من البلدان المتقدمة يكون شيئاً نفيساً ينبغي انتهاز فرصة وجوده، وحمله بالطائرة.

والثاني عدم ثقتهم بأن الطائرة سوف تقدم لهم طعاماً أثناء الطيران، ولو مجرد الخبز كما عودتهم على ذلك.

ولهذا السبب أخذوا معهم الخبز الذي إذا لم يحتاجوا إليه في الطائرة فإنهم يتحفون به أهلهم وأصدقاءهم في سيبيريا.

وأما عدم تقديم هذه الطائرة الروسية للطعام أو الشراب في رحلاتها، فإنه أمر عرفته منها بالتجربة المكررة، وقد ذكروا لنا أنها لا تقدم أي نوع من الطعام في طائراتهم، إلا إذا كان زمن الرحلة يصل إلى ثلاث ساعات فأكثر.

مغادرة المئات:

غادرت الطائرة مطار (المئات) في السادسة والنصف عصراً بالتوقيت المحلي لها الذي يتقدم على توقيت بلادنا بأربع ساعات، ويتأخر عن توقيت سيبيريا الذي نحن متجهون لها بساعتين.

والطائرة من طراز توبوليف (١٥٤) وهي نفاثة من صنع روسي، تشبه البوينغ الأمريكية رقم (٧٢٧). وهو الموعد المحدد لقيامها بالضبط، لم تتأخر عنه دقيقة واحدة.

وهذا من الأمور النادرة التي لا تتأخر الطائرة فيها عن موعد قيامها

المحدد في الأصل.

وقد امتلأت مقاعد الطائرة أو كادت بالركاب.

وهم صنفان لا ثالث لهما إلا نحن، أحدهما الصنف الأوروبي الأصل المؤلف من الروس بالدرجة الأولى، ومن أبناء عمهم السلاف من الأوكرانيين والروس البيض بالدرجة الثانية.

والصنف الثاني هم أهل بلاد ما وراء النهر الذي هو نهر جيحون عند أسلافنا العرب، ويعرف الآن باسمه الوطني (أموداريا)، ويؤلف جزء من مساره الحدود ما بين الاتحاد السوفيتي السابق وأفغانستان.

وهذا الجنس يصح أن نعرفه بتعريف العوام في بلادنا، وهو تعريف شامل غير دقيق بأنهم البخاريون فينسبونهم إلى الجنس البخاري المنسوب إلى مدينة بخارى بلد الإمام البخاري في الأصل، مع أن بعضهم يقطن في أماكن تبعد عن بخارى أكثر بآلاف الكيلو مترات، ولكن الحقائق اللغوية والمظهرية فضلاً عن العقيدة المتماثلة أو المتقاربة لهؤلاء الإخوة هي التي جعلتهم يطلقون عليهم نعت البخاريين.

مع أنهم يدخلون في هذا النعت أيضاً سكان تركستان الشرقية الموجودة الآن في الصين الشعبية، ويسميها الصينيون (شنجاك) ومعناها: الأرض الجديدة المكتسبة، أو المستعمرة الجديدة إذا ترجمنا التسمية ترجمة فقهية لا حرفية.

ويشمل هذا الاسم سكان الجمهوريات المسلمة المسماة الآن أوزبكستان، وتاجيكستان، وقيرغزستان، وقازاقستان، وتركمانستان، وتركستان الشرقية.

وكان المتقدمون من مؤرخينا العرب يسمونهم الأتراك، ويسمون بلادهم تركستان، لأنهم لم يكونوا يعرفون أتراكاً كثيراً فيما دون تلك البلاد إليهم، وذلك في القرنين الأول والثاني للهجرة.

وعندما أصبحت بلادهم دياراً غالية من ديار المسلمين، ونبغ فيها العلماء العظماء من أهل الحديث، كالإمام البخاري، والترمذي، والنسائي، والدارمي، وعلماء اللغة، كالفارابي صاحب كتاب (ديوان الأدب)، والجوهري صاحب الصحاح، والتفسير، كالزمخشري، والفلسفة والطب، كابن سينا، وأبي نصر الفارابي، والجبر والرياضيات، كأبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي، صاروا يعرفونها ببلاد ما وراء النهر.

وهي بلاد واسعة شاسعة ذات خيرات كثيرة، وأنهار غامرة، وأجواء مختلفة وإن كان أصل شعوبها واحداً أو متوحداً.

وكان إعلان الطائفة باللغة الروسية وحدها، بل وحيدة، ولم يباليوا بركابهم، ولا المواطنين الذين هم من بلاد ما وراء النهر ولهم لغاتهم، أو لنقل لهجاتهم المتفرعة من اللغة التركية القديمة.

وعندما كانت الطائفة تهم بالنهوض كان بصري لا يزال مشدوداً للمنظر الطبيعي الرائع الذي يحيط بالمطار، فمن الجنوب كانت الجبال الثلجية وكأنها ارتدت غتراً بيضاً على رؤوسها، وأسدت أطرافها على أكتافها التي كانت قد لبست تحتها ثياباً خضراً، بل سندسية من أشجار الغابات النضرة، والأعشاب الخضرة التي كساها الربيع في هذه الأيام.

وقد انعكست عليها أشعة الشمس الجانحة إلى جهة المغيب فزادتها نوراً على نور.

ومن الشمال تحيط بالمطار تلال خضر كثيفة الاخضرار وسط

أراضٍ ندية كأنها البسط السندسية التي لا تعرف الانتهاء والانطواء، أو هذا هو ما ينطبع في ذهن من يراها من مطار (المأتا) الجميل.

وشيء آخر لا علاقة له بهذا أو ذلك من الثلوج أو الأعشاب، ولكنه استوقف نظري، وشغل تفكيري عندما رأيته قبل أن أكون تبينته، وهو كثرة الطائرات الجاثمة في المطار، وكلها بيض الطلاء مع الخطوط والعلامات المميزة لشركة الطيران السوفيتية (أيرفلوت).

فعدا الطائرات الحربية الجاثمة في المطار والطائرات المروحية الصغيرة التي تعد بالعشرات، إن لم تتجاوز المائة بعشرات، هنالك طائرات ركوب مدنية كبيرة ومتوسطة كثيرة، حتى المساحة التي يجللها العشب خارج مدارج المطار قد وقفت فيها أكثر من عشرين طائرة منها، وهي لا تعمل بطبيعة الحال، لأنها لو كانت تعمل لكانت داخل ساحات وقوف الطائرات المزفطة.

ولا أدري أهذه الطائرات كلها هي لجمهورية قازاقستان، أم هي بقية من شركة الاتحاد السوفيتي التي لم يجر اقتسامها حتى الآن.

فوق أرض قازاقستان:

جمهورية قازاقستان واسعة الأرجاء، متباعدة الأنحاء، وهي ثانية جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة مساحة بعد جمهورية روسيا الاتحادية، فمساحتها تعادل مساحة المملكة العربية السعودية أو تزيد.

ومع أن جمهورية أوكرانيا هي ثانية جمهوريات الاتحاد السوفيتي التي استقلت حديثاً من حيث عدد السكان، فإنها أقل بكثير من جمهورية قازاقستان مساحة. ويقول القازاقيون: إن مساحة قازاقستان تزيد

على مساحة أوكرانيا خمسة أضعاف، وإن سكانها يقلون عن سكان أوكرانيا خمس مرات.

وهذا القول فيه شيء من المبالغة، والإحصائيات تشير إلى أن سكان أوكرانيا هم ٥٧ مليوناً، وإن سكان قازاقستان هم ١٦ مليوناً.

وعلى أية حال فإن المراد من ذكرنا لهذا أن نقول: إن الحديث عن جزء أو منطقة من قازاقستان لا يدل على أن جميع أرضها كذلك.

وقد تحدثت عن مشاهداتي في قازاقستان في كتاب خاص بها عنوانه

((حديث قازاقستان)).

عندما نهضت الطائرة تجلت طبيعة المنطقة التي تقع فيها مدينة (المأتا)، وكذلك حالة (المأتا) نفسها، وهي منطقة يمكن أن يقال فيها دون تجوز: إنها جميلة جداً.

وأقول بحق: إن مدينة (المأتا) هي أجمل عواصم ما وراء النهر رغم كونها ليست أكبرها، فأكبر تلك العواصم هي (طشقند) عاصمة جمهورية أوزبكستان.

وأول ما يعجب أمثالنا في المأتا أنها كما قيل فيها غابة في مدينة، أي أن الأشجار الخضرة تشغل جزءاً أو أجزاء من مساحتها أكثر ما تشغله منازلها، رغم كثرة منازلها التي تؤوي مليوناً ومائتي ألف نسمة، وقد تأنق أهلها في تجميلها بتلك الأشجار وبحدائق كثيرة منتشرة في قلبها الذي يكون عادة مرصوفاً بالمنازل في المدن الأخرى.

ثم تجلى المظهر المهيب لجبال (الأتاو) الثالثة، وللتلال والوديان التي تحيط بالعاصمة من خضرة سندسية تتعاقب فيها خضرة الأشجار السامقة

وخضرة الأعشاب المنبسطة، كما نرى حقول القمح الخضراء تسهم في إغلاق ما قد يوجد في هذه البساتن السندسية من فجوات.

وتأتي البحيرات الصغيرة ومناقع المياه العديدة لتكمل رسم هذه اللوحة الجميلة.

كل ذلك في تناسق عجيب رأيت من الطائرة عندما حلقت فوق المدينة.

وهي طائرة نفاثة، لذلك فارقت جو المدينة بسرعة، ولكنها لم تفارق المنظر الأخضر الأنيق.

كان الجو شامساً صافياً، وكان الهواء بارداً على الأرض، وإن لم يكن برده مؤلماً، وكان مقعدي في أيسر الطائرة، وهي متجهة إلى الشمال، لذلك كانت الشمس وهي تتضيف للغروب تدخل من نافذتي حارة يصعب تحملها، مما ذكرني بنافاذة مثلها كانت تدخل منها الشمس، وهي فوق الدائرة القطبية الشمالية الباردة، وذلك عندما سافرت من موسكو إلى مدينة (مورمانسك) الروسية الشمالية الداخلة في الدائرة القطبية، فكانت الشمس حارة في الطائرة إلى درجة مؤلمة، مع أن الجو بارد لأن زجاج الطائرة يرشح أشعة الشمس الحارة، ويمنع برودة الجو من النفاذ داخل الطائرة.

استمرت الطائرة الروسية في الطيران جهة الشمال، ورأينا على أيسارنا بحيرة قد حجزها سد بين جبلين، ونهيراً صغيراً ينحدر مسرعاً من الجبال، فيصب في هذه البحيرة.

وتجاوزنا منطقة البحيرة، فرأينا نهراً آخر كبيراً يسقي هذه الأرض الريانة التي ترتوي من ظهور الجبال الثلجية، إذا أعوزها الري من الأمطار

الهائلة.

ثم زاد ارتفاع الطائرة، وكثر بخار الماء في جو الأرض، فمنع وضوح الرؤية، وكنت مشفقاً أن يرين الظلام قبل ان نصل إلى سيبيريا فأحرم من رؤية أرضها من الطائرة.

ومع ذلك جاءت صعوبة الرؤية من سحب أبيض في أرض السواد، هذه التي جعلتها سوداء خضرتها الداكنة، وعندما خف السحاب كان المنظر الواضح من الأرض هو منظر بحيرة كبيرة عظيمة الاستطالة لم نعرف ما هي، ولم أجد في ركاب الطائرة القريبين مني من يعرفها، إذ لم يكن الطيار وغيره من العاملين في الطائرة يشرحون للناس ما يمرون فوقه أو بقربه من المحلات المهمة.

وهذه عادة عرفناها من الطائرات الروسية حتى قبل انحلال الاتحاد السوفيتي، ومن عدم عنايتهم بما يهم الراكب، أو قل عدم الاهتمام به أن جيوب المقاعد في الطائرة كانت خالية تماماً من أي شيء يقرؤه الراكب، فليست فيها صحيفة ولا مجلة صادرة عن الشركة، بمعنى مؤسسة الطيران هذه إن كانت تصدر عنها مجلات، ولا تعليمات تبين نوع الطائرة وكيفية التصرف إذا واجه الراكب ظروفاً غير معتادة.

أما الضيافة فإنها تقوم بها مضيفتان روسيتان، والروس هم الأوروبيون الذين لا يختلفون عن غيرهم من الأوروبيين في النظر ما داموا في سن الشباب، حتى إذا بلغوا منتصف العمر بدأ الاختلاف، إذ تثقل أجسامهم، وتغلظ طباعهم، ويستثنى من ذلك بعض سكان روسيا الذين يتميزون بغلظ التقاسيم في الوجه والضخامة في الجسم منذ الصغر.

ودخلت المضيفة بعشاء للطيارين مرت من أمام الركاب إذ أحضرته

من خلف الطائرة.

الإعلان عن الطعام:

صدح مكبر الصوت في الطائرة بكلام في غير وقت الكلام، فظننته يتحدث عن هذا الذي نمر به من الأنهار أو البحيرات، أو حتى يتكلم عن حالة الطقس في البلاد التي نحن مقبلون عليها، وهي سيبيريا لذلك سارعت أسأل الذي بجانبني بوساطة المترجم، فقالوا بشيء من الفرح المزوج بالاعتزاز: إنهم يعلنون أنهم سيقدمون طعاماً للركاب.

وعجبت من أن يروا أن تقديم طعام إلى الركاب في رحلة تستغرق ثلاث ساعات، وفي وقت العشاء هو أمر يحتاج إلى الإعلان بالمكبر.

وكانت قد مضت ساعة ونصف على بدء الطيران.

ثم جاؤوا بالطعام الموعود وأكثره لنا غير مستساغ، لأن فيه قطعاً من لحم الدجاج في حجم العصفور، ونحن لا نأكله منهم لأنهم لا يذبحونه ذبحاً شرعياً، وقطع من لحم الخنزير، وعجبت من أن يقدموا الخنزير وهم قادمون من بلاد أغلبية أهلها من أبناء المسلمين، ولم يحتج المسلمون على ذلك.

مع العلم بأن تقديم الخنزير في الطائرة لا معنى له إلا مراغمة المسلمين، وتحدي شعورهم الديني وإلا فإن البلاد فيها من اللحم الحلال ما يكفيها، وتصدر منه إلى الخارج، ومع العشاء، أو هو العشاء قطعنا خبز صغيرتان ومربى غير جيد.

ولو كان هذا الطعام حلالاً لما استسغناه، لأن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا فأغنانا من فضله ما جعلنا لا نأكل إلا الطيبات، وبمقادير

كافيات.

وقد انتهى القوم من هذا الطعام بسرعة، وأكل جاران لنا ما قدم لنا من طعام إلى جانب ما قدم لهما.

هذا والطائرة تمعن في طيران سهل مريح، وما رأيت على كثرة ما ركبت من الطائرات النفاثة في العالم أسلس طيراناً، وأكثر هدوءاً من الطائرات النفاثة الروسية إذا كان الطيران مستمراً.

ولقد سألت خبيراً مرة عن ذلك، ولم لم يتعلم الغربيون من الأوروبيين والأمريكيين من الروس هذا الهدوء العجيب في طائراتهم في الجو، فأجاب: إنهم يعرفون ذلك، ولكنهم لن يأخذوا به، لأنه يزيد من تكلفة الطيران، فالطائرة النفاثة الروسية التي تحمل (١٢٠) راكباً تستهلك من الوقود ضعف ما تستهلكه الطائرة الغربية المماثلة لها في عدد ما تحمله من الركاب.

وعند إطلالة من نافذة الطائرة رأيت أراضي تجلجها الثلوج، ولا يكاد النظر يتبينها ليتأكد ما إذا كانت على جبال، أو في أراضي مستوية، لأن الظلام قد بدأ ينشر أurdite الرمادية في الجو، ولولا بياض الثلج لما رأيناها.

هذا وأنا أحمد الله تعالى في سري واشكره على أمنية في زيارة سيبيريا تحققت، بعد أن كنت حاولت ذلك مرتين من قبل فلم أستطع.

وكانت المرة الأولى عندما زرت الاتحاد السوفيتي أول مرة في عام ١٤٠٦ هـ، وقطعنا تذاكرنا إلى مدينة (أومسك) في سيبيريا، وأعدنا ما سوف نحمله من هدية لمسجدها، وما سوف نقدمه من مبلغ مالي لإعمارها. ولكننا فوجئنا بأن السلطات السوفيتية تقول: إن مدينة (أومسك) هي مدينة مغلقة لم تفتح للسياح.

ثم كانت الزيارة الثانية في عام ١٤١٠ هـ، وقطعنا تذاكرنا أيضاً، ولكنها كانت قد فتحت هذه المرة مثل غيرها من أنحاء الاتحاد السوفييتي الذي كان قائماً آنذاك، غير أن وقتنا كان ضيقاً لم يتسع لزيارتها.

هذا وقد ساد الظلام على الأرض، غير أنه لم يستطع إخفاء بياض الأرض الثلجية، وإن كان لم يدع لنا فرصة تبينها، أهي جبال أم وديان.

وقد ذهب أحدنا إلى حمام الطائرة، فوجده الحمام المعتاد في مثل هذه الطائرات، ليست فيه تعليمات مكتوبة تفصيلية، ما عدا أشياء قليلة بالروسية وحدها، ووجد فيه فوطة معلقة بجانب حوض غسل الأيدي، ليمسح بها من يريد بعد الفراغ من مس الماء، وهي للركاب كلهم.

ثم مررنا بنهر غير عريض، وهو متجمد كله في التواءات كان عليها قبل تجمده، وغابت الشمس عن الطائرة فوق الغيوم في التاسعة بتوقيت (المأتا) التي غادرناها، ويوافق ذلك الحادية عشرة بتوقيت مدينة أيروكوتسك التي نحن ذاهبون إليها، وقد مضى من الطريق أكثره.

ملك روسي عريض:

كنت قلت قولة قبل ست سنوات عندما زرت الاتحاد السوفييتي لأول مرة، ورأيت هذه البلاد الواسعة بل الشاسعة التي تقطنها أقوام وشعوب عديدة متنوعة، وتتألف من جواء مختلفة، إنه ملك روسي عريض !!.

فمجرد الاستيلاء على هذه الأراضي الهائلة الاتساع هو فخر عظيم لهم بمقاييس العصور القديمة التي تنظر إلى الملك، ولا تنظر إلى كيفية تملكه، ثم استمرار ذلك لهم منذ قرون، حتى إن استيلاءهم على مملكة سيبير التي سميت على اسمها (سيبيريا) هذه التي نحن ذاهبون إليها قد

مضت عليه أربعة قرون.

قد كانت (سيير) مملكة إسلامية، أو إن شئت قلت كما يقول المؤرخون المحدثون (خانية سيير)، فقد كانوا يطلقون على المملكة الصغيرة، أو حتى الإمارة اسم (خانية) آخذاً من كون الذي يحكمها يلقب بلقب (خان) الذي هو لفظ تركي كان يطلق على الملك، وإن كانوا يخصصونه في الغالب للملك الكبير، ومن أولئك جنكيز (خان) الذي قاد المغول إلى تلك الفتوحات الهائلة في البلدان الإسلامية، وكان غزوه لها مبنياً على القوة الهمجية، وإرادة الغلبة والتخريب والتدمير لكل ما هو حضري مميز.

لقد تملكت الروس ذلك الملك العريض الذي امتد من بحر البلطيق إلى المحيط الهادئ، وكان منه مع الأسف بلاد من بلاد المسلمين عريقة في العلم والثقافة كانت قد انقسمت إلى (خانات) وممالك صغيرة متعادية مثلما كانت عليه الحال في الأندلس عندما كان يحكمها حكام وأمراء صغار يسمى بعضهم بالخلفاء، فكانوا قد فرقوا أمرهم، وتفرقوا شيعاً، كما قال الشاعر:

وتفرقوا شيعاً، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وعندما بدأ عهد الاستعمار بالاضمحلال حكمها الشيوعيون من الروس وأتباعهم عن طريق الشيوعية التي فعلت بالمسلمين، وبخاصة المتدينين منهم، ما لم يفعله القياصرة الأولون من البطش والتتكيل، حتى أذن الله لهم بالفرج من الكربة، فزلزل بالشيوعيين زلزالاً شديداً، وجعل الله بأسهم بينهم حتى صاروا يتبارون في ذكر مساوئ حكم الشيوعيين، كما كان الشيوعيون يتبارون في ذكر مساوئ حكم القياصرة

السابقين، واستقلت بعض بلاد المسلمين عن حكم الروس، إلا أن أراضي شاسعة واسعة كانت من أراضي المسلمين لا يزال الروس يعتبرونها من أراضيهم التي ورثوها عن آبائهم السالفين، لأنهم كانوا قد محوا آثار المسلمين فيها على مدى السنين، ومنها هذه الأراضي التي لها نحن قاصدون، ولله في خلقه شؤون، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون. وقد قربت الطائرة من مدينة (إيركوتسك)، وقد مضت ثلاث ساعات إلا ثلاثاً على بدء الطيران.

والعادة الحميدة عندهم أن التدخين وشرب الخمر ممنوعان في طائراتهم، وحتى حمل الخمر ممنوع في الطائرة

في مطار إيركوتسك:

أعلنوا أن درجة الحرارة في (إيركوتسك) هي ١٢ درجة مئوية، ولم نكن نصدق ذلك، لأنه يدل على جو معتدل في هذه البلاد المشهورة ببردها. وشاهدنا أنواراً ضعيفة من منطقة مسكونة قبل (إيركوتسك)، ولم نكن شاهدنا أنواراً من الطائرة قبل ذلك.

ومع ذلك كانت هذه الأنوار التي تدل على أنها لأرض مسكونة تدل على الاقتصاد والتوفير في إضاءة النور، بل تدل على التقشف فيه. وأكثر ما فيها ظهوراً نيران مصفاة للبتروك تتقد.

ثم ظهرت أنوار مدينة (إيركوتسك) نفسها، وقد امتدت طويلاً كأنها الضواحي المتفرقة في مدينة حرة.

ولم تكن أنوار المدينة أكثر لمعاناً من هذه، بل حتى الطريق السريعة فيها التي تسمى في أمريكا بالهاي وي لم تكن مستقيمة تمام الاستقامة،

ولم تكن أنوارها صفراً كما تكون في المدن في العادة.

هبطت الطائرة هبوطاً خشناً في المطار في الحادية عشرة والثلاث قبل منتصف الليل بتوقيت (أيركوتسك)، وقد استغرق طيرانها ثلاث ساعات إلا عشر دقائق بالطائرة الروسية النفاثة التي تزيد سرعتها على الطائرات البوينقية النفاثة بقليل، ويساوي ذلك ضعف المسافة بين جدة والرياض مرتين وزيادة، أو لنقل: إنه يساوي أكثر من المسافة بين الرياض والقاهرة.

كانت أنوار المطار أيضاً خافتة، ليس فيها شيء بهيج.

نزل الركاب من الطائرة التي وقفت في ساحة وقوف الطائرات، ولم نجد أمامنا من يرشدنا إلى المكان الذي ندخل منه إلى المبنى، وكنا نرتدي الملابس العربية التي تدل على أننا من الأجانب، ولذلك أشار أحد الركاب الذين قدموا معنا إلى جهة غير الجهة التي اتجه إليها الركاب قائلاً بالإشارة: اذهبوا من هناك.

وتبين أن قوله صواب، إذ إنهم مثلما كانوا قد خصصوا في مطار (الماتتا) مكتباً خاصاً من مكان خاص لترحيل الأجانب، فهمنا منهم أنهم خصصوا لدخول الأجانب باباً خاصاً.

وكانوا قد أبطأوا بالإذن للركاب بالنزول، فظلنا فترة في مقاعدنا، وقال أحدهم: إنهم ينتظرون نزول (طاقم) الطائرة أولاً، وهم العاملون فيها من الطيارين والملاحين.

وهذه عادة لهم معروفة أن ينزلوا قبل الركاب، ولم نكن ضيوفاً رسميين على هذه البلاد، وإلا لكانوا أخبروا العاملين في الطائرة أن يعلنوا للركاب ألا ينزل أحد منهم قبل نزول الضيوف. وكنا في السابق ننزل قبل الناس، بل قبل أن يتحرك أحد منهم عن مقعده.

تلك كانت عادة لهم في معاملة ضيوف البلاد في الاتحاد السوفيتي المنحل، ولا يزال ورثته يعملون بها حتى الآن.

ثم نزل (الطاقم)، وبعد ذلك سمحوا للركاب بالنزول.

وكنا هاتفنا الشيخ المفتي طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا، ومقره مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا التي يكتبون اسمها (باشقردزستان) بأننا سنصل مع هذه الرحلة إلى مدينة (أيركوتسك) في سيبيريا، ونريد أن نرى المسجد، ليخبر العاملين فيه بوجودنا، فذكر أنه سيخبرهم بذلك.

دخلنا إلى مبنى القدوم، وهو قاعة صغيرة، لأنه تخصص لقدم الأجانب، وأعدادهم قليلة في الغالب، فوجدنا رجلين بالانتظار لم يلفتا أنظارنا، لأن مظهرهم كمظهر الروس المختلطين، وعلى رأس أحدهما قبعة.

كما أننا لم نسترع انتباههما، مع أننا نلبس الملابس العربية.

وبعد حيرة في المكان، تكلم معهما زميلنا في الوفد الأخ (رحمة الله ابن عناية الله) باللغة التتارية التي هي لهجة بعيدة معقدة من لهجات اللغة التركية القديمة، فعرفنا أنهما حضرا لاستقبالنا.

وكان السرور مضاعفا متبادلاً.

أحدهما هو الأخ نظيف بن رحيم شاه؛ رئيس لجنة جامع (أيركوتسك)، وهو المسجد الوحيد في المدينة إلا أنه كبير، فهو جامع على اعتبار أنه تقام فيه الجمعة، ويصح أن يسمى بمسجد (أيركوتسك)، لأنه لا مسجد فيها غيره.

والثاني هو الأخ فريد بن سليم جان؛ رئيس المركز الثقافى التتارى فى المدينة، ويعمل فى وظيفة جيدة فى إحدى المؤسسات فى البلاد. وكلاهما تتارى، أو تتري من تتار قازان.

وقد اعتاد الناس هنا، وفى شمال الاتحاد السوفيتى، حيث يوجد التتار متفرقين فى أنحاءه أن يفرقوا الناس حسب مواطنهم أو أصولهم التتارية إلى فريقين (تتار قازان) التى يريدون بها مدينة (قازان) عاصمة جمهورية تتارستان، أو (تتاريا)، كما يختصر بعض الناس اسمها. وتتار (القرىم) الذين أجلاهم ستالين بعد الحرب العالمية الثانية إجلأ قهرياً جماعياً عن بلادهم فى (القرىم)، ونفاهم إلى سيبيريا الثلجة الباردة، وهذه من المرات القليلة فى التاريخ التى يعرف فيها أن شعباً كاملاً أجلى من بلاده إلى بلاد نائية، يصعب حتى تصور الإقامة المعتادة، فضلاً عن الإقامة المريحة فيها.

وحجة طاغية الشيوعية فى ذلك أنهم كانوا قد تعاونوا مع الألمان ضد الاتحاد السوفيتى فى الحرب.

ومع أن هذا ربما لا يكون دقيقاً من حيث الواقع، لأن الذين تعاونوا كانوا قلة من السياسيين، أو المشتغلين بالسياسة منهم، فكيف يعاقب بذنبهم شعب بأكمله بهذا العقاب الفظيع الذى اقتلعه من بلاده، وبلاد آبائه وأجداده، ورمى به فى بلاد باردة، بل ثالجة، ومع ذلك هى نائية ليس فيها حتى مرافق الحياة المعتادة فى ذلك الوقت.

وكنت زرت جمهورية (تتارستان) قبل سنتين، وكتبت عن ذلك فصلاً فى كتاب ((الرحلة الروسية))، وعرفت من زيارتي تلك أن هؤلاء الإخوة التتاريين لا يشبهون فى المظهر المغول الحاليين، بل ولا تظهر عليهم

حتى التقاسيم المغولية التي تظهر على بعض الأقوام القريبين من بلاد المغول، كالكوريين، والمنشوريين، أو حتى القازاقيين، فهم في تاريخهم الطويل، واختلاطهم بالأقوام التي كانت تقطن في مملكتهم المسلمة العريقة التي أسسها أول الأمر الملك المغولي المسلم (بركة خان) حفيد جنكيز خان، قد اكتسبوا صفات جسدية جديدة أبعدتهم عن مظاهر المغول والمغوليين الذين كانوا يسمون المغول، ويسمون التتار، والتتر أيضاً.

أخذ الأخوان الكريمان: نظيف بن رحيم شاه، وفريد بن سليم جان يسعيان في إنهاء إجراءات القدوم ونحن جالسون، وهي سهلة لأن جوازي (دبلوماسي)، ومعنا سمات دخول صالحة.



أمام مطار إيركوتسك مما يلي المدينة

ولا يوجد معنا من الركاب الأجانب إلا واحد.

لجمهورية أوزبكستان، وقيرغزستان، وتركمانستان، وقازاقستان مع النزول في عدة مطارات في كل جمهورية، وتقول الكتابة: (مرحبا بكم في (إيركوتسك).

وشيء آخر مهم، وهو لوحة كتبت عليها حركة الطائرات القادمة والمغادرة من مطار (إيركوتسك) لهذا الأسبوع.

وهي مكتوبة بالإنكليزية، وقد استفدنا منها فائدة كبيرة في الحجز إلى مدينة (أولان باتور) عاصمة منغوليا، لأن السؤال عن مواعيد الطائرات صعب جداً في الاتحاد السوفييتي، وهو أمر يعتبر أنه لا يعرفه إلا المختصون، وليس ذلك لكونه سرياً، وإنما لكون الناس قلت القدرة على السفر عندهم بعد التردّي الاقتصادي الأخير الذي نشأ عن الانتقال من المذهب الاقتصادي الشيوعي، وعدم القدرة على الأخذ باقتصاد السوق أخذاً كاملاً، فانهارت أسعار العملة، وتضاعفت أكثر الأسعار، وعجزت الرواتب حتى بعد زيادتها إلى الضعف أن تلاحق ذلك، فضلاً عن أن تجاريه.

فندق المطار:

أبطأت أمتعتنا قبل أن تصل إلينا، وقد أودعنا مالا نحتاج إليه منها غرفة في المطار، هي أحد المكاتب، وإلا فإنه ليس عندهم خزائن، كما موجودة في المطارات الأخرى من التي يستأجرها المسافر بالساعة أو باليوم، فيضع فيها متاعه، ويأخذ مفتاحها معه.

ثم سحبتنا أمتعتنا المتبقية سحياً، وكان الأخوان الكريمان التتاريان لطيف وفريد يتحملان العبء الأكبر من نقله، والتعب من ثقله.

وليس معنا سيارة، لأنه لا أحد منهما يملك سيارة مثل أكثر الناس

وليس معنا سيارة، لأنه لا أحد منهما يملك سيارة مثل أكثر الناس في هذه المنطقة.

وأدخلونا فندقاً بجانب المطار اسمه (فندق المطار)، ولم يكن مظهر المطار ولا الإجراءات فيه توحى بالثقة، فليس فيه حارس على بابه، وشاهدنا بعض نزلائه، وهم يدخلون ويخرجون في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وهي الثانية والربع مع أن الساعة التي في المطار تشير إلى الساعة والربع، فتلك الساعة توقيتها مركب على توقيت موسكو الذي يتأخر عن توقيت (أيركوتسك) خمس ساعات.

وهذا أمر عجيب ليس مقتصراً على هذه المدينة الروسية من الناحية الرسمية، وإنما هو أيضاً موجود حتى في جمهورية قيرغيزيا، وفي عاصمة إقليمية فيها هي مدينة (أوش)، حيث كانت ساعة المطار فيها مركبة على توقيت موسكو، وكانت مواعيد قيام الطائرات التي يعطونها الناس، ويكتبونها لهم على تذاكرهم كلها بتوقيت موسكو.

ولم نجد في هذا الفندق إلا غرفة كبيرة واسعة، لا نوافذ لها، أشبه بغابر الجنود، فتركناه ودخلنا إلى قلب مدينة (أيركوتسك) على سيارتي أجرة.

في مدينة أيركوتسك:

انطلقنا من المطار إلى قلب المدينة التي كان ليلها موحشاً، إذ ليس فيها عود أخضر، وكل الأشجار فيها تبدو هامدة ميتة، كأنها لا ترجو نشوراً، ولا توجد فيها عشبة خضراء نامية، إذ عهدها بالبرد الشديد، والتلج المتراكم قريب، ولم يستطع النصف الأول من شهر مايو أن يحمل إليها الدفء الذي يبعثها من رقادها، وإنما ذكروا أن هذا الجو المعتدل

الذي تشهده الآن إنما عمره يومان فقط.



شارع في أوركوتسك بسيبيريا

(تصوير المؤلف)

وصلنا إلى فندق (إنغارا) على اسم نهر إنغارا القريب منه، وهو ينبع من بحيرة باي كل، وهو كبير جيد المداخل، بل مدخله وقاعة الاستقبال فيه تشبهان مثيلتهما من فنادق الدرجة الأولى.

ومن أهم ما فيه أنهم قد حجزوا الجزء من القاعة الذي يحيط بمصعد الفندق، وجعلوا فيه رجالاً على مكتب بجانبه حارس، لا يصعد أحد مع المصعد إلا بمعرفتهما، وبعد ان يتحققا من علاقته بالفندق.

وهذا أمر مهم جداً بالنسبة إلينا، لأننا نحمل مبالغ مالية للمشروعات الإسلامية، إضافة إلى نفقتنا الخاصة.

وعند الوصول إلى الطابق الذي فيه غرفنا، وهو الثالث، وجدنا فيه كالعادة امرأة روسية تحفظ مفاتيح الغرف عندها ولا تعطيها إلا لأهلها، فحتى مكتب الاستقبال لا يحتفظ بالمفاتيح عنده.

أنزلونا في غرف صغيرة من غرف الفندق، وكلها صغيرة ضيقة، ولكنها جيدة في كل غرفة سرير واحد لشخص واحد، وهو ضيق على عادتهم في ضيق السرير، وضيق الغطاء فوقه، مع ضخامة أجسامهم.

وفيها جهاز كبير للتلفزة، وسماعة لجهاز الإذاعة تتصل به بوساطة مفتاح كهربائي، وفيها مقعد واحد بجانب مائدة للكتابة، ولكن ليس فيها مكان للحقيبة الكبيرة.

نهامة في سيبيريا:

أهم ما لاحظنا في هذه الغرفة الدفء الشديد، بل هي أدفأ غرفة سكنناها منذ أن فارقنا بلادنا، وذلك أنهم كانوا قد أشعلوا المدافئ في الفندق التي كانوا قد أشعلوها عندما كانت درجات الحرارة تتدنى إلى عشر أو عشرين درجة تحت الصفر، فشعرنا أن الغرفة حارة حتى تمنى الواحد منا أنها لا تكون كذلك، فخلعنا ملابسنا ونمنا كما كنا ننام في مكة المكرمة من دون تبريد، وتجردنا إلا من الملابس الداخلية.

والغريب أن الغرفة ليس فيها مفتاح خاص يقفل التدفئة، فالمفتاح عام عندهم خارج الغرفة، ولذلك لا بد لك من أن تفتح جزءاً من النافذة، ولا يفتح إلا جزء منها، أما الباقي فإنه ثابت، وهو إلى ذلك مضاعف الزجاج اتقاء للبرد الشديد.

يقع الفندق على ميدان جيد قد غرسوا فيه أشجاراً لم يبق منها إلا

عيدان رمادية اللون، كالحة المنظر، كأنها الهيكل العظمي لجسم مريض بالسل.

وتفتح نافذتي على هذا الميدان الذي تنتصب فيه هذه الهياكل من الأشجار، كأنها في ضوء الميدان الشاحب أنصاب القبور البعيدة.

وحتى الإضاءة في الميدان كانت خافتة، ومصايبها تهتز، وتدل على أن الكهرباء التي تأتي إليها غير قوية، مع كون الكهرباء موجودة قوية في البلدة.

وقد أطفأوا أنوار الميدان في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وكانت من علامات الصحوة بعد الشيوعية بناء فخم بينونه على حافة الميدان المهم، وقد أفسد منظره الذي لا أشك أنه سوف يصبح بهيجاً بعد أن تورق أوراقه، ويخضل شجره في خلال أيام قلائل.

يوم الإثنين ٩ ذي القعدة ١٤١٢هـ - ١١ مايو ١٩٩٢ أرخص إفطار:

صحونا على جو دافئ جداً داخل الفندق، وذلك لكونه مُدْفىً كله، وإن كانت الغرف أكثر دقاً، لذلك وجدنا أنفسنا في الصباح نتمشى في الطابق الذي نسكن فيه، فوجدنا مطعماً صغيراً فيه، تخدمه خادمتان روسيتان غليظتان من اللاتي تجاوزن منتصف العمر، ولو كان الأمر متعلقاً بذلك وحده لما كانت له أهمية، ولكن الأهمية لكون مثل هذه النساء لا يكن مجاملات أصلاً، بل لا يعرفن شيئاً من المجاملة حتى في الكلام مع النزلاء، وإنما يؤدين عملهن وكأنهن وكأنهن مجبرات عليه، أو كأنهن كارهات له.



بقايا الأشجار الهامدة من نافذة الفندق في إيركوتسك في سيبيريا

وهذه عادة عرفناها منهن في أكثر البلاد الواسعة التي كانت تسمى الاتحاد السوفييتي، ولا تزال موجودة فيه.

ولا شك في أن السبب في ذلك هو غياب الحافز الشخصي للعمل، وافتقادعاملات أمثالهن حتى التشجيع اللفظي، إضافة إلى قلة الرواتب، وضيق العيش، وانعدام الحلوان، أي ما يسمى بالبقيشيش، لأن شظف العيش لم يُبق في جيوب الناس ما يطيّبون به خواطر العمال والعاملات أمثال هؤلاء.

إضافة إلى أن النزيل، أو من يسمى بالزبون سيأخذ ما يريد أخذه منهن، سواء أحسن أم أسان، لأنه ليس بإمكانه إلا ذلك لعدم وجود البديل. رأينا قلة المعروضات في المطعم، فسألنا عن البيض والزبدة والفاكهة والحليب الطازج، فذكرن أنه لا يوجد عندهن، فقلنا بالإشارة وما تيسر من قليل العبارة: أطمعونا مما عندكم - وكل الذي نراه عندهم حلال -، فأحضروا الخبز واللبن المخيض والشاي الأسود الخالي من الحليب، ولما ذقنا الشاي وجدناهم أكثروا فيه من السكر، فطلبناه بدون سكر، فذكرت العاملتان أن الشاي الموجود عندهم كله هكذا قد وضع فيه السكر، وهو في إبريق ضخم يكفي لخمسين شخصاً.

وبعد أخذ ورد رضيتا بأن تصنعا لنا شاياً جديداً بدون سكر.

وكانت المفاجأة أن ثمن طعام الإفطار كله بخبزه ولبنه وشايه (٢٣) روبلاً لنا نحن الثلاثة، والدولار الأمريكي يساوي (١٥٠) روبلاً، وإذا يكون طعام الثلاثة بحوالي سدس دولار أمريكي وقليل جداً، أو ١٧٪ من الدولار، وبحساب الريالات السعودية يكون ثمنه كله أكثر قليلاً من نصف ريال سعودي.

وهذه من الأمور التي جعلت بعض الكسالى يحنون إلى عهد التسعير الشيوعي الذي يجعل الأشياء الضرورية رخيصة تلتزم الدولة بذلك، وإن كان لا ينوع فيما يعرضه، فضلاً عن أن يعرض الأجود منه، أو يتيح للناس أن يتخيروا فيه.

وعلى ذكر الأسعار أقول: إن سعر الغرفة الواحدة، وهي مفردة مدفأة يساوي عشرة دولارات أمريكية.

وهذا هو السعر الذي طلبوه لها بالروبلات الروسية، وإلا لو كانوا طلبوا منا الدفع بالدولار لاحتاج الأمر إلى أكثر من تسعين دولاراً.

وهم يطلبون من السياح الأجانب أن يدفعوا بالعملة الصعبة، ولكن في مثل حالنا فإن الإخوة الذين استقبلونا أفهموهم أننا ضيوف عليهم، فقبلوا أن ندفع بالروبل الروسي.

بردنا وبردهم:

قدمت القول بأن الجو عندهم ديفء منذ يومين بعد البرد الشديد، ولذلك اعتبروه معتدلاً أو حاراً، أما نحن فإنه مثل أيام الشتاء الباردة عندنا في الرياض والطائف، وأما في مكة المكرمة وجدة فإنه لا يحصل مثله في برده إطلاقاً.

وقد أصبحنا هذا اليوم على جو ديفء في الفندق، بسبب التدفئة الشديدة فيه، فقدرنا أن درجة الحرارة ستكون بين الثمان والعشر درجات.

وزادنا اعتقاداً في ذلك أن الأخ فريد بن سليم جان حضر إلينا في الثامنة صباحاً بناءً على موعد سابق، وكان يرتدي قميصاً قطنياً، وليس على رأسه شيء.

وعندما نزلنا من غرفنا سألناه عن الجو في هذا الصباح، قال: إنه جيد، ولا برد فيه. فسألناه عن درجة الحرارة الآن ؟ فأجاب: أنها ما بين ٢ إلى ٣ درجات مئوية.

وهذه الدرجة هي أقصى ما تصل إليه البرودة في الشتاء عندنا في الغالب، والأخ فريد يقول: إن الجو جيد، وليس بارداً، وعرفنا السبب عندما سألناه عن أقصى ما وصلت إليه درجة البرودة من التذني هذا العام، فأجاب: أنها ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر.

قال: والمعتاد أن تكون ما بين ٣٠ - ٣٥ درجة تحت الصفر، عرفنا السر في قوله، ولم نكتف بالمعرفة، وإنما رجعنا إلى غرفنا ولبسنا ملابس صوفية، ومنها سراويل الغليظة (البنطلون) تحت ملابسنا العريية.

ومع ذلك لم نكن نشعر بأن الجو معتاد.

كانت الشمس مشرقة في هذا الصباح، ولكن كان البرد شديداً فيما أحسنا به، والأصعب من ذلك أن الهواء إذا تحرك كان فظيماً.

ومع ذلك نحن متأكدون أنه إذا استمرت الشمس مشرقة ولم تهب رياح قطبية، فإن الجو سيكون ممتازاً وسط النهار، لأن درجة الحرارة سترتفع حسبما نعرفه من جو سيبيريا القاري في أكثر أرجائها.

ومن الأشياء الجيدة عندهم أننا عندما رجعنا إلى المرأة المسؤولة عن المفاتيح، بل كل ما يتعلق بالغرف في الطابق الذي نحن فيه، وطلبنا منها إعادة المفاتيح لنا، وجدناها قد أدخلت جميع مفاتيح الغرف المشغولة في خزانة حديدية لديها، وأغلقتها عليها، ففتحت الخزانة وأعطتنا مفاتيحنا، وعندما انتهينا منها أعادتها للخزانة الحديدية، وأغلقت عليها المفتاح في يدها.

وهذا أمر جيد في المحافظة على ممتلكات النزلاء في هذه المرحلة الانتقالية من الشيوعية إلى الرأسمالية التي تمر بها البلاد. وقد أخبرنا إخواننا المسلمون وغيرهم أن الجرائم قد كثرت عندهم في هذه الأيام، وأنها في مناطق الكفار أكثر منها في مناطق المسلمين. ذلك بأن الحاجة إلى النقود قد اشتدت بالناس، والحزم في تطبيق القوانين، وملاحقة المجرمين قد قل عند الموظفين الحكوميين، نتيجة للارتخاء العام في النظام الذي أسماه بعضهم بالفوضى الجديدة.

أيركوتسك في النهار:

كان أول ما لاحظناه ونحن نقف عند الباب الخارجي لفندقنا (فندق انغارا) وجود برج لكنيسة في أقصى الشارع الذي يصب في الميدان، وقد جدد ذلك البرج، وطلي بطلاء ذهبي بهيج، مما يشعر معه من يصل إلى البلدة بالتغير الذي طرأ لصالح الكنيسة في البلاد، وذلك بأن المباني الحكومية لم يجدد منها شيء، بل العكس هو الصحيح، فقد جمد كل شيء تابع للحكومة، وبقي على حاله انتظاراً لما تسفر عنه الحالة الاقتصادية الانتقالية الحاضرة.

وكان أول ما يجب علينا أن نفعله في هذا الصباح هو أن نحجز في أول طائرة تغادر أيركوتسك إلى مدينة (أولان باتور) عاصمة منغوليا، والحجز لا يكون إلا من المطار.

لذلك استأجرنا سيارة أجرة بـ (٧٠) روبلاً لتوصلنا إلى المطار، وهي سيارة قديمة غليظة أكثر ما فيها من العيوب ظهوراً أن زجاجتها الأمامية مكسورة، وإن لم يسقط منها شيء.

ولاحظت أن أكثر من سيارة أجرة ركبناها في هذه المدينة زجاجها الأمامي فيه شطب، أي أنه مكسور، ولكن لم ينفصل عن موضعه. وقد لاحظت ذلك من واقع كوني أحب أن ألتقط بعض الصور للشوارع والمحلات العامة وأنا أركب في السيارة من خلال زجاجها الأمامي، لأنني أركب في المقعد الأمامي. وأجرة السيارة (٧٠) روبلاً تساوي أقل قليلاً من نصف دولار، وهي زهيدة بالنسبة لنا، ولكنها كثيرة بالنسبة لهم، فأجرة العامل الزراعي بالشهر نحو سبعمائة روبل، وإذا تساوي أجرة السيارة من قلب المدينة الذي فيه فندقنا إلى مطارها أجرة ثلاثة أيام عمل.



ميدان في (إيركوتسك)

ومما يجدر التذكير به أن العمال الزراعيين هم موظفون لدى

الحكومة أو الجمعيات التعاونية شبه الحكومية، وأن القانون الشيوعي يمنع أن يؤجر الشخص أشخاصاً آخرين للعمل عنده، لأنه - بزعمهم - يستعبدهم بذلك، مع أن الحكومة، وهي مجموعة أشخاص من الحزب الشيوعي، هي تستأجر الموظفين كلهم، وتتحكم بهم أكثر مما يتحكم صاحب العمل في البلدان الحرة بعماله.

وسائق التاكسي روسي مسنّ متغير، فهو غليظ الجسم مثل الروس المسنين، إلا أن تعرضه للبرد الشديد قد أثر في وجهه مثلما يؤثر الحر الشديد في وجوه من يتعرضون له، والمراد بذلك الرياح الباردة، والتعرض المباشر لها، أما من عاش في جو بارد، ولم يتعرض لذلك، فإن البرد لا يؤثر في لونه كما هو معروف.

وأما سيارته فقد بعد عهدها بالصيانة، ولكنها مدفأة إلى درجة المبالغة، إذ شعرنا فيها بالضيق من شدة التدفئة.

انطلقنا في شوارع (أيركوتسك) التي يقل فيها السير في هذه الساعة التي تقارب التاسعة، فالمارة في الشوارع قليل جداً، والسيارات الصغيرة أقل، وأكثرها منظره ليس بهيجاً، بمعنى أنه يحتاج إلى تجديد.

وفي السيارات نسبة كبيرة من سيارات الشحن الخشنة الزيتونية اللون، ونسبة من الحافلات الكبيرة التي لا بأس بمظهرها.

والحافلات في مدن البلدان الشيوعية مهمة جداً، لأن أكثر الناس لا يملكون سيارات خاصة، لذلك لا بد لهم من استعمال الحافلات، وبخاصة في الجواء الباردة مثل جو هذه المدينة التي لا يمكن فيها استعمال الدراجات لشدة البرد، وقسوة لفح الريح. أما السيارات العامة والخاصة فإنها كلها فيها مدفئة.

والشيء غير المألوف لي أن أرى الأشجار هامة كأنما خرجت لتوها من حريق، وأنه لا يوجد عود أخضر، لا نامياً بطبيعته، ولا مزروعاً، وإنما كل شيء يابس، وذلك رغم كون الشمس مشرقة، بل إن في أشعتها حرارة ودفئاً، فهي تشبه جو الرياض في الشتاء.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى كون البلاد قد خرجت لتوها من برد الشتاء القارص الذي يقضي على كل عود أخضر، ويجرد الأشجار من كل شيء يبدو حياً فيها.

وقارنت بين هذه المدينة السيبيرية (إيركوتسك) وبين مدينة (المأتا) عاصمة جمهورية قازاقستان التي قدمنا منها، فوجدت أن لا وجه للمقارنة، مع كون (المأتا) مشهورة في بلاد ما وراء النهر بأنها باردة، بل شديدة البرودة، ولكن الدفء في فصل الربيع يأتي إليها قبل سيبيريا بوقت طويل.

ف(المأتا) خضرة نضرة، بل مزهرة مبتسمة للربيع، رغم كون الجبال الثلجية تطل عليها الآن بطلعاتها البيض، تذكر أهلها بالشتاء الشديد حتى يشكروا نعمة الله عليهم بحلول الربيع السعيد.

ونظراً لما ذكرناه من صعوبة انتقال عامة الناس في مثل هذه البلاد القارصة البرد في غير وسائل النقل المدفأة، فإننا رأينا وسيلتين اثنتين فيها من وسائل المواصلات العامة، وهما الحافلات الكهربائية المسماة في مصر بـ(الترولي) باص، وعربات القطار الكهربائي الذي يسير على وجه الأرض، وهو الترام أو (الترمواي)، فكلها موجود في شوارع هذه المدينة، إلا أن كثافة الانتقال والمرور فيها قليلة.

مدينة خشنة:

لا يكفي أن نصف جو هذه المدينة السيبيرية في الشتاء بأنه جو غير

إلا أن كثافة الانتقال والمرور فيها قليلة.

مدينة خشنة:

لا يكفي أن نصف جو هذه المدينة السيبيرية في الشتاء بأنه جو غير لطيف، مثلما لا يكفي أن نصف أجسام مواطنيها من المسنين الروس بأنها غير لطيفة، بل لا بد من وصف الجو بأنه خشن، أو لنقل إنه قاسٍ يتميز بالبرد والقشف، والبعد عن الرشاقة في فصل البرد الطويل.

وقد خيل إلي وأنا أرى هذا الصباح أبنية هذه المدينة، وأكثرها حكومي، إن لم نقل بأنها كلها حكومي، أنها مدينة خشنة، فالأبنية أكثرها باهتة الطلاء، وكثير منها لم نلاحظ أن الذين بنوها راعوا فيها الناحية الجمالية.



بيت تقليدي معتنى به من الخشب في إيركوتسك

وحتى الأشياء التي تتحكم فيها حالة الجو مثل الأشجار في الشوارع والحدائق العامة هي موجودة، ولكنها دون وجودها من حيث الكثرة والكثافة في مدينة (المأتا) بمراحل، ومع ذلك يصح القول بأن هياكلها موجودة، ولو قلت إن هياكلها العظمية هي الموجودة لما أبعدت عن الصواب مع كون الأشجار ليس لها هياكل عظمية.

ولكن هذا هو ما أبقى البرد منها، فحتى الأغصان الصغيرة لا توجد فيها، وخيل إلي أن الثلج قد حطمها بثقله بعد أن قضت الرياح الباردة العاتية عليها بقسوة بردها.

وحتى الحدائق التي تجلب البهجة والسرور في العادة، فإنني رأيتها هنا في هذا الصباح، وتكررت رؤيتها في المساء بعد ذلك، رأيتها تبعث على الأسى والانقباض بمنظرها الذي ليس فيه أثر للحياة.

فأشجارها هامدة، وأعشابها قد أصبحت حطاماً أسود، وحتى التربة فيها قد صارت رمادية كالحة.

وقد تكرر منظر التربة في جوانب شوارع المدينة بسوادها الذي يشبه سواد الرماد، أو هو حالك أكثر منه، وذلك من تأثير البرد الشديد.

مما جعل المرء منا وهو يرى ذلك يتخيل أن أمثال هذه الحدائق قد أصابها حريق، وهو حريق الزمهرير، والزمهرير - الذي هو البرد الشديد - يعذب ببرده أهل النار في الآخرة، مثلما يعذبون بحر النار.

وتخيلت أنه لو لم توجد تلك الحدائق الهامدة الكالحة في الوقت الحاضر، وكان مكانها مغطى بتربة ذات لون بهيج لكان ذلك أجمل منظرًا، وأكثر إراحة للنظر، وإن كنت أعلم - كما يعلم غيري - أن الربيع قد أزف، وأن هذه الحدائق سوف تورق، بل تزهر في موسم الدفء

القصير، فيتمتع أهل البلاد بمظهرها الأنيق ولو إلى حين قصير.

وموسم الدفء هذا قصير مثل زمن الربيع في البلدان المعتدلة، وزمن الاعتدال في البلدان الحارة، وهو لذلك سريع الزوال والانتقال، مثل الشباب الذي هو سريع الذهاب.

ولماذا لا يكون موسم الدفء في هذه البلاد هو شباب الزمان بالنسبة إلى هرم الأكوان في أيام البرد... ومع ذلك فإن أهل (أيركوتسك) يفخرون بمدينتهم هذه، وقد احتفلوا قبل فترة بمرور ثلاثمائة سنة على إنشائها.

وصلنا للمطار لنسأل مكتب الطيران عن الحجز إلى عاصمة منغوليا، فأجابت مديرة المكتب بأن جهاز الحاسب الآلي (الكمبيوتر) وهو أصغر مما هو عندنا، قد أصابه عطب، وأن إصلاحه يحتاج إلى أسبوع.

وذكرت أنه لا يمكن الحجز الآن، وأنه إذا لم يصلح فيمكن الحجز بالطريقة اليدوية القديمة.

وقال الأخ فريد سليم جان: سوف أبحث عن الحجز لكم بطريقة أخرى.

هذا ويقع المطار متصلاً من الناحية الداخلية بالمدينة، لا يفصل بينهما فاصل من أرض فراغ.

إلى جامع أيركوتسك:

ركبنا سيارة أجرة أخرى وجدت أيضاً أن الزجاج الأمامي فيها مكسور، أي فيه شطب، أو شرخ بلفة بعض الكتاب، وهو لا يصل إلى أن يكون شقاً.

ومن المصادفة الجيدة، أو لنقل: إنه فعل القدر أن سائق سيارة الأجرة هذه مسلم اسمه (فريد بن غريب جان)، وقد أخذناه مصادفة، وقلنا لمراقفنا الأخ فريد بن سليم جان إننا سنبقي هذا الأخ وسيارته معنا هذا اليوم، لأن الأجرة التي سندفعها تكون لأحد المسلمين.



منظر جانبي لجامع إيركوتسك تظهر بقايا منارة الجامع في يمين الصورة عليها خشبة مرفوعة

توجهنا من المطار إلى جامع (إيركوتسك)، فسرنا في شوارع غير التي جئنا منها، ولكنها موحشة لقلّة المارة، ولا أدري السبب في قلتهم، ولكون الأشجار وغيرها من النبات هامة، بل هي قد صار منظرها كمنظر تراب الشوارع التي يكون في جوانبها رمادي اللون.

وذكرت بهذه المناسبة شعورنا في هذه المدينة التي ندخلها دخول

السياح الأغنياء، وفي وقت قد انحصر عنها البرد الشديد، وبدأ دفء الربيع، وفي أذهاننا أننا سنغادرها بسرعة، وقارنت ذلك بشعور إخواننا من تيار القريم الذين نفاهم ستالين وأعوانه من طغاة الشيوعيين إلى هذه البلاد، وربما كانوا وصلوها في الشتاء، وليس لهم ما يملكون، كما لم يكن معهم من النقود ما يشترون به ما يريدون، وحتى لو كانوا يملكون النقود، فإنهم لا يملكون القدرة على شراء المساكن والأراضي التي يحتاجونها، لأنها لا يملكها إلا الدولة التي لا تبيعها بهذه الطريقة، وإنما تعطي شيئاً منها لمن يستثمرونها وفق شروط ربما لا تنطبق على هؤلاء المغضوب عليهم من المنفيين.

والأصعب في الأمر هو الشعور بأنهم مجبرون على الإقامة في هذه البلاد الموحشة إلى الأبد، كما قال لهم الشيوعيون الذين كانوا يظنون أنهم يملكون الحاضر والمستقبل، وقد أخلف الله ظنهم، وخيب فألهم فعادت الحرية في العودة إلى الوطن لأولئك الإخوان التتاريين، وإن لم تعد لهم أموالهم وأملاكهم في وطنهم كما كانوا يبتغون.

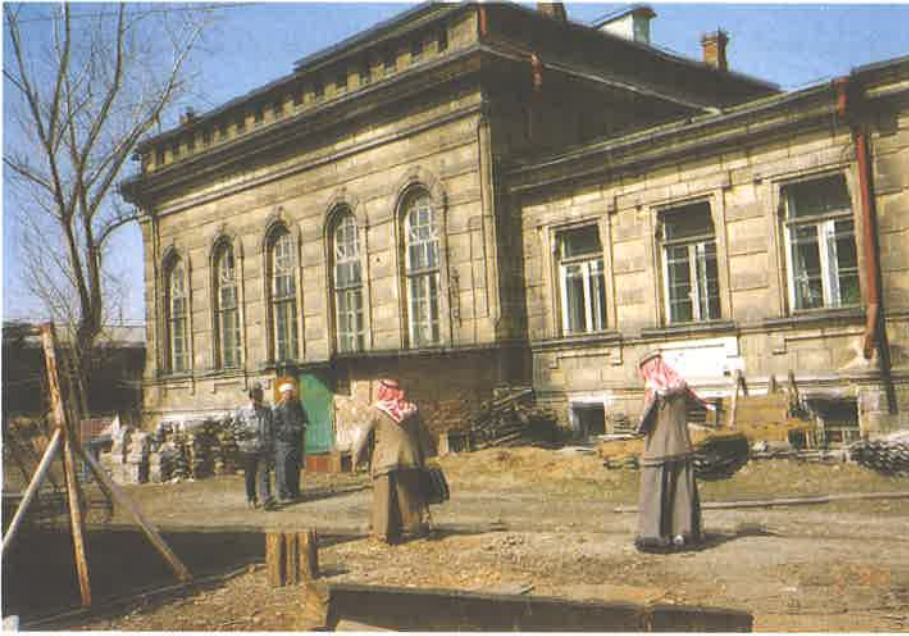
ومن المناظر غير السارة منظر دبابة روسية معروضة وسط حديقة هامدة، ولا أدري لم عرضوها في هذه المدينة التي أصبحت بحكم الواقع مدينة روسية ليس في سكانها من يمكن ترهيبهم أو ترغيبهم بوجود هذه الدبابة.

جامع أيركوتسك:

يقع الجامع في حي جيد قديم من أيركوتسك، أي أنه كان الحي الفاخر فيها عندما بني المسجد قبل مائة وستين سنة.

وهذا الحي مشجر الشوارع، ولكن لا يبدو أي أثر لذلك الآن، وإنما

الأشجار مثل غيرها في أحياء المدينة كأنها الأخشاب المحروقة المنصوبة في جوانب الشارع من دون أن تتخذ أشكالاً فنية منسجمة.



جامع أوركوتسك كما يرى من فناءه الخارجي

أول ما صافح أعيننا من الكتابة في المسجد كتابة عليه بالعربية نصها:

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد

رسول الله).

ووجود الكتابة عليه ذو رمز لمعنى عظيم، علينا نحن العرب المتدينين وغير المتدينين أن نعيه ونتدبره، وهو إنه لم يصل أحد من العرب لهذه البلاد عند بناء الجامع فيطلب من القائمين عليه أن يكتبوا هذه الكتابة أو

غيرها بالعربية، فأكثر العرب في ذلك الوقت لم يسمعوها بسيبيريا كلها، لأن الصحافة لم تكن منتشرة في تلك الأزمان، والإذاعة لم تكن موجودة آنذاك، وحتى الآن فالعرب، ويمكن القول بأنهم كلهم في البلدان العربية لم يسمعوها بمدينة (أيركوتسك) هذه التي يقع فيها هذا الجامع، وإذا فرض أن أحداً منهم، وهو نادر، والنادر لا حكم له ولا يقاس عليه، كما يقول الأصوليون، قد عرفوا مدينة (أيركوتسك)، فإن أحداً منهم لا يعرف أن في هذه المدينة مسجداً جامعاً كبيراً عريقاً قد مضت على بنائه مائة وستون سنة.

حتى المختصون بالشؤون الإسلامية في البلدان العربية لا يعرفون حتى الآن بوجود هذا المسجد، فمثلاً ليس له أي ذكر في رابطة العالم الإسلامي، وليس لدى الجهة المختصة فيها بالمساجد أي شيء يشير إلى وجوده، ولولا أننا عرفنا بوجوده عن طريق بعض الإخوة العاملين في الإدارة الدينية في الاتحاد السوفيتي لظللنا نحن الذين نعمل في هذه الميادين لا نعرفه.

ومع ذلك نجد هذه الكتابة العربية الأثرية عليه، مع التأكيد على واقع الذين بنوه، وهم إخواننا التتاريون القدماء في هذه البلاد، أي الذين كانوا قد جاؤوا إليها قبل وجود الشيوعية في روسيا، وكانوا جاؤوا تجاراً وأصحاب أعمال تجارية، ليس معهم أحد من العرب، بل ليست لهم صلة بأي عربي يمكنه أن يقدم معونة على إنشاء هذا المسجد.

إذاً يكون الدافع إلى كتابة هذه العبارة العربية الفصيحة الواضحة على المسجد هو دافع ديني خالص، وهذا هو الواقع، وإذن - أيضاً - يكون علينا نحن العرب أن نفهم فضل الدين الإسلامي، الذي شرفنا الله بحمله إلى الأمم، علينا وعلى لغتنا العربية حتى انتشرت العربية، سواء بالخطاب أو

الكتابة في أقطار بعيدة نائية في بعدها إلى درجة أننا لا نعرفها.



بقايا منارة جامع إيركوتسك

وهذا يوجب علينا أن نقوم قومة خالصة لله في نشر هذا الدين الإسلامي الحنيف، وأن نعتبر الإسلام ثقافتنا وأساس حضارتنا، ومصدر عزنا ومجدنا، وليس هو مجرد دين كما يفهم الأوروبيون دينهم المسيحي الذي هو علاقة بين الإنسان وبين ربه، لا علاقة له بتاريخه ولا بحياته العامة كما يزعمون، ولذلك عزلوا دينهم المسيحي عن الحياة حينما فصلوه عن الدولة، وليس ديننا كالدين المسيحي، بل هو دين عبادة وتشريع ودين

سلوك ومعاملة، ودين عبادة وحكم.

جماعة التبليغ:

كان معنا عند دخول المسجد الأخوان (فريدان) ولو شئنا لقلت الفريدان فهما بالنسبة إلينا كذلك، وهما فريد بن سليم جان، الذي هو ملازم لنا، وفريد بن غريب جان سائق سيارة الأجرة التي وقفنا عليه مصادفة.

وجدنا باب المسجد الخارجي مفتوحاً، وهو مفتوح دائماً، ويدخل منه إلى فناء كان حديقة، وسيكون كذلك، أما بالنسبة إلى حالته الحاضرة فهو أشبه ما يكون بالأنصاب من الأخشاب السود.

صعدنا من الفناء إلى درج حجري يؤدي إلى البوابة الداخلية للمسجد، فدخلناه، وبادرتنا الحرارة المنبعثة من المدافئ رغم كون الجو الآن صار يميل للاعتدال بسبب ارتفاع الشمس المشرقة في كبد السماء، وخلو السماء من غيم، فوجدنا في المسجد أول من وجدناه فيه إخوة لنا مسلمين من بنغلاديش، جاؤوا منذ أيام قليلة إلى هذه البلاد، ذكروا أنهم خرجوا من بلادهم (بنغلاديش)، وهي بلاد البنغال إلى هذه البلاد بغرض التبليغ، وذكروا أنهم وصلوا إلى مدينة (أيركوتسك) هذه بالقطار من طشقند، فلبثوا راكبين القطار أربعة أيام بلياليها من دون توقف، وكان البرد على أشده.

وحتى الآن في هذا الجو المعتدل فإننا رأيناهم متقبضين مجتمعين في ملابسهم القطنية الخفيفة، التي جعلوا بعضها فوق بعض، ولكنها لا تغني من برد سيبيريا الربيعي شيئاً، حتى ولو لبس المرء منها عشرات.

وقد فعل البرد فعله فيهم من إسالة الأنوف واحمرارها، ومن تغضن الوجوه، واحديباب الظهور، وكأنهم عندما عزموا على التوجه إلى هذه

البلاد لم يعرفوا جوها حق المعرفة، ولم يقدره حق قدره، وحتى التبليغ فإنهم لا يملكون أداة إيصاله إلى الآخرين، وهي اللغة، لأن اللغة العالمية التي يعرفونها وهي الإنكليزية لا تعرف في هذه البلاد، إلا على نطاق ضيق جداً، في أماكن محدودة وهي المطارات والفنادق على قلة في ذلك.

واللغة الشائعة هنا هي الروسية، وهم لا يعرفونها، كما أن اللغة المحلية هنا هي صعبة الفهم حتى على جيران البلاد الذين يتكلمون لهجات، وإن شئت قلت: لغات تركية الأصل مثلها.

وعلى أية حال فإن هؤلاء الإخوة الكرام جماعة التبليغ لو كانوا درسوا ذلك كله مع بقية الأحوال في البلاد، لما جاؤوا في هذا الوقت بالذات.

عودة إلى الحديث عن الجامع:



تذكارية في محراب جامع أوركوتسك مع نظيف بن رحيم شاه على

يمينه الأستاذ محمد حافظ، وعلى يساره المؤلف

وإن كانت في رحلتهم فائدة بلا شك، وهي أنهم سيعرفون منها

كيفية الاستعداد للدعوة في هذه البلاد في المستقبل من ملابس في فصل ديفء، ومن استصحاب من يحسن لغة من اللغات المفهومة فيها.

استجلينا الجامع مرة أخرى، فوجدناهم كتبوا على محرابه الآية الكريمة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ بدون آية ترجمة لمعناها بلغتهم، ولا باللغة الروسية التي هي الشائعة الآن. وكتبوا أيضاً جملة (ما شاء الله) ثم آية الكرسي كاملة: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ وبدون ترجمة لمعناها أيضاً، ولا شك في أنهم لو ترجموا معناها للغة التتارية التي هي لغة المسلمين هنا لانتفعوا بذلك، لا سيما مع كونهم لا يعرفون العربية أصلاً، ولا توجد لديهم كتب إسلامية، ولا تعليم إسلامي، لأن ذلك كله قد انقطع منذ أن استولت الشيوعية على هذه البلاد، وحرمت التعليم الإسلامي، بل كل أنواع التعليم إلا التعليم القائم على الإلحاد الذي ترسم مناهجه وتطبقها، ولا تكتفي بذلك، وإنما تحارب ما عداه حتى التعليم بطريقة التلقين، لأن ذلك لا يخلو من أن يعتبروه تعليماً وهو لا يجوز ومخالف للقانون، أو أن يعتبروه دعوة للإسلام، وهم قد حرموا الدعوة للدين، بل حرموا حتى توضيح الدين للآخرين إلا داخل المسجد. إذ ينص قانونهم المتأخر رغم دعواهم التقدم على أنه يجوز للملحد أن يدعو إلى الإلحاد في كل مكان إلا داخل المعبد.

والمسجد في عرف القانون معبد، ولا يجوز للمتدين أن يدعو للتدين

إلا داخل المعبد.

فأي إجحاف وعدم إنصاف أكثر من هذا ؟ إذ ما هي نسبة الرقعة التي يجوز أن يدعو إليها المتدين أو (المؤمن) كما يسمونه، وهي محصورة في داخل المعبد بالرقعة الواسعة التي يجوز فيها للملحد أن يدعو إلى إلحاده، وهي كل مكان إلا داخل المعبد.

وعلى هذا يكون أداء الصلاة في مكان عام كالحديقة أو المكتب، بل والمنزل وال فندق هو مخالف للقانون تعاقب الدولة عليه إذا علمت به.



داخل جامع إيركوتسك (المصلى الرئيسي) وفي اليمين القسم المحجوز للنساء

وعلى أية حال فإن هؤلاء الإخوة الكرام من المسلمين الذين كتبوا هذه الآيات القرآنية الكريمة على محراب المسجد، لا شك أنهم كتبوها قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة في روسيا ومستعمراتها، وكان لديهم

أناس من طلبة العلم في ذلك الوقت تخرجهم مدارس إسلامية خاصة. وهذا القسم الرئيسي الكبير من المسجد هو الذي فيه المحراب والمنبر الصغير الذي يخطب عليه الإمام يوم الجمعة، وهو مفروش بفراش لا بأس به، لأنهم لقلتهم يصلون في ركن من المسجد معزول صغير يصل إليه الداخل أول ما يصل فيجده إلى يمينه.

وذلك بوحى مما هو واقع من كون عدد المصلين الآن أقل مما كان عليه عندما بني الجامع، وهذا شيء مؤسف لكون الطبيعي المعتاد في بلدان العالم الحرة كلها أن يزيد عدد المصلين حتى تمتلئ بهم المساجد القديمة، فتوسع إلى جانب المساجد الجديدة التي تكون قد أنشئت في أماكن أخرى من المدينة أو البلدة التي يقع فيها الجامع.

ولا شك في أن أبناء المسلمين هنا قد زادوا من الناحية العددية المجردة، إلا أنهم كلهم قد تولى الشيوعيون تربيتهم، وألحوا عليهم بالدعاية الإلحادية التي تحارب الدين، وتمقت كل ما هو قديم بزعمهم، لذلك نشأوا لا يعرفون من الإسلام شيئاً، وهم بين شخصين: شخص يعتز بأهله المسلمين، ولكنه لا يعرف من الدين الإسلامي شيئاً. وشخص ملحد قد تأثر فعلاً بالدعاية الشيوعية الإلحادية.

والآن قد سقطت الشيوعية وتعرى أهلها، فإن الواجب علينا نحن المسلمين القادرين أن نجتهد في فتح المدارس الإسلامية للصغار، والفصول الدراسية في المساجد للكبار لتعليم مبادئ الدين الإسلامي، وتعويض الإخوة المسلمين في هذه البلاد ما فاتهم من ذلك في سالف الأزمان.

وقد رأينا شيئاً من ذلك الآن في بعض الجمهوريات التي يقطنها

المسلمون في الاتحاد السوفيتي، مثل أوزبكستان، وتركمانستان، وقرغيزستان.

والآن بالنسبة للمسلمين في هذه البلاد فيه شيء من الاختلاف من الناحية التاريخية عن حال إخوانهم المسلمين الآخرين في الجمهوريات المذكورة، ذلك بأن المسلمين هنا هم في معظمهم من التتار.

والتتار المسلمون ذوو تاريخ حافل بالأمجاد التي منها أنهم كانوا يحكمون بنفوذهم على البلاد الروسية كلها، وإن كانوا لم يحكموها كلها حكماً مباشراً، والقليل منها الذي لم يحكموه حكماً مباشراً، كان ولاته يدفعون لهم الجزية أو الضريبة، مثل إمارة موسكو التي كانت خاضعة لتتار قازان الذين منهم الإخوة القائمون على (جامع إيركوتسك) هذا.



في مكتب المسجد في إيركوتسك، والأخ فريد سليم جان يتكلم بالهاتف، وفي
أيسر الصورة الأستاذ رحمة الله بن عناية الله
فكان (كيناز موسكو) الروسي بمعنى حاكمها أو أميرها

الكبير لا بد لثبوته في منصبه من أن يصدر له (فرمان) وهو المرسوم من سلطان قازان المسلم يقرأ في قصر الكرملين، وهو يدفع الضريبة إلى سلطان المسلمين.

هذا إلى جانب قسم كبير إن لم يكن هو القسم الأكبر من البلاد الروسية كان يحكمه المسلمون حكماً مباشراً، وكان أهم ما يتميز التتار به في عهود عزهم ومجدهم هو قيامهم على أمر الدين الإسلامي الحنيف، وتمسكهم به.

وإذا تكون الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام، إلى جانب الهدف والمقصود فإنها أيضاً دعوة إلى المجد السالف والعز التليد الضائع.

السبحة من نوى التمر:

انقطعت صلة مسلمي هذه البلاد السيبيرية بالعالم الإسلامي منذ عقود طويلة حين أقام الحكم الشيوعي ستاراً حديدياً على البلاد، لا يخرج منه أحد، ولا ينفذ منه داخل، ومن ذلك أن انقطع الحج منها إلى بيت الله الحرام منذ (٧٢) سنة، ولذلك رأيت اليوم شاهداً عجباً على ذلك، يتمثل في شيء صغير، ولكن دلالته كبيرة، وهو عدة سبح - جمع سبحة - من نوى التمر، يخرقون النواة بحيث تكون كالخرزة من خرزات السبحة التي تنظم في سلك، وجعلوها أمام الصفوف لكي يسبح بها من يريد ذلك، بمعنى أن يعدّ فيها جمل التسبيح والتحميد: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، جملة جملة، كما هو المعتاد عندهم، أما عندنا فإننا لا نستعمل السبحة لذلك، وإنما نعد التسبيح بالعقد بالأصابع.

لقد جعلوا السُّبْح من نوى التمر لكونهم لم يستطيعوا الحصول على

سبح ذات خرزات، واختاروا نوى التمر دون غيره من نوى الفواكه التي توجد عندهم لقربه من حجم الخرز وهيئته، ولمعنى آخر أهم، وهو أن التمر يأتيهم من بلاد العرب، وبخاصة من المدينة المنورة !

وكتاب أثري:

وهذا شاهد آخر على انقطاعهم عن العالم الإسلامي - إن كان الأمر يحتاج إلى شاهد - وهو كتاب للخطب باللغة العربية طبع في مدينة (قازان) عاصمة التتار، وهي الآن عاصمة جمهورية تتارستان ذات الحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية، وقد زرتها وذكرت ما شاهدته منها في كتاب ((الرحلة الروسية)).

وهذا الكتاب الذي رأيتَه اليوم في هذه المدينة السيبيرية عنوانه (جامع الخطب)، ومكتوب عليه مكان طباعته هكذا: طبع بالمطبعة الكريمة في بلدة قازان على نفقات أصحاب المطبعة محمد جان وشريفجان (شريف جان)، وحسنجان (حسن جان) الكرستانيين عام ١٩١٠م. ومنه يتضح أنه طبع هناك قبل الحكم الشيوعي في روسيا، ولا يزالون يخطبون منه.

وأما طبع الكتب العلمية العربية في قازان، فإنه كان شائعاً قبل الشيوعية، ولم يكن ذلك مقتصرًا عليها، بل إنه كان موجوداً أيضاً في مدينة (أورنبورغ)، ولديّ كتاب حافل عن تاريخ تلك المنطقة من مطبوعات (أورنبورغ) هذه في عام ١٩٠٥ م، وعنوانه: تليفق الأخبار، في أخبار التتار والبلاغار، تأليف الشيخ الرمزي، وهو كتاب حافل لا نظير له في الكتب العربية التي تتحدث عن تاريخ المسلمين في تلك المنطقة في القديم والحديث.

مصلى النساء:

في المسجد قسم خاص محجوز بحاجز من قماش سميك مخصص للنساء، وفيه عدة كراسٍ مثل ما لاحظت أنه يوجد في عدد من مساجد هذه المناطق الباردة في روسيا وفي سيبيريا، حيث يوجد عدد من المصلين كبار السن الذين لا يستطيعون أن يثبوا أرجلهم بسبب آلام الركبتين أو الساقين، فتراهم يصلون على هذه الكراسي، يومئون بالركوع والسجود إيماء لعجزهم عن أدائه، وربما كان لانتشار الأمراض الناتجة عن البرد دخل في ذلك.

وهنا في القسم المخصص للنساء وضعوا هذه الكراسي في الصف للعاجزات من النساء عن السجود أو الجلوس على الأرض.



فريد سليم جان في حديقة جامع أوركوتسك الهامدة

ولا شك أن (سيبيريا) هذه هي بلاد برد وقشيف، وشظف في العيش،

فرغم البرد الشديد لا يجد المرء كثيراً من وسائل الراحة التي اعتاد الناس الحصول عليها في البلدان المعتدلة، بل إن بعضهم في هذه الأوقات على وجه الخصوص لا يجد ما يملأ بطنه من الخبز في بعض الأحيان، كما أخبرنا بذلك بعض الطلبة العرب الذين التقينا بهم فيما بعد.

الجنائز الموقلة:

دخل رجلان وامرأة إلى المسجد ونحن فيه، وجعلت المرأة تتكلم مع الأخ (نظيف بن رحيم شاه)، وهو صاحبنا الذي استقبلنا مع الأخ فريد بن سليم جان في المطار، والأخ نظيف هو رئيس جمعية المسجد، وهو الإمام في الوقت الحاضر مع عدم حصوله على شهادة علمية إلا مجالسة للعلماء، يمكنه أن يتعلم منها أحكام الإمامة في الصلاة، وقد أخبرنا بذلك وقال: إنه لا يوجد غيره الآن من يقوم على أمر المسجد.

تكلت المرأة مع الأخ نظيف لفترة التفت إلينا وقال: جاءت هذه المرأة إلينا تخبرنا بأن أحد أقاربها توفي أمس، ويريدون أن نعرف أن الجنائز سوف يصلى عليها بعد غد، أي أنهم سيؤجلون دفنها مدة ثلاثة أيام، وقال الأخ نظيف: إنهم فعلوا ذلك لكي يجتمع الأقارب لحضور الصلاة على الجنائز ودفنها.

ولا شك أن هذا سبب واحد، وسبب آخر وهو أن الجو بارد لا يخشى فيه أن يتطرق الفساد إلى الجثة في هذه المدة، وإلا فإنني أشك أن تكون فيها ثلاثيات حديثة تحفظ فيها الجثث، كما توجد في البلدان الحارة والمعتدلة.

وكلهم من إخواننا التتار، وقد ذكروا أنهم يسكنون على مسافة لا تبعد إلا سبعة كيلو مترات عن مدينة (إيركوتسك) هذه.

وذكروا بهذه المناسبة أن المسلمين لهم مقبرة خاصة بهم ، وهذا شيء جيد.

ضيعوا لغتهم:

كان الحديث يتم معهم باللغة التتارية التي يعرفها عضو وفدنا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله مثلما يحفظ اللهجات المتفرعة عن اللغة التركية القديمة. إلا أنني لاحظت أنه يتكلم معهم باللغة التتارية بصعوبة، فذكر لي ان السبب في ذلك أنهم ضيعوا لغتهم، لأنهم لا يكادون يتكلمون بها هنا، وإنما اعتادوا على الكلام باللغة الروسية التي هي لغة الجميع في سيبيريا.

مع أن المراد باللغة التتارية ليست اللغة التي يتكلم بها المغول الآن؛ سواء في (منغوليا الداخلية)، أو (منغوليا الخارجية)، فتلك لغة أخرى لا يعرفها صاحبنا، وإنما هذه اللغة التتارية هي التي يتكلم بها أهل جمهورية (تتارستان) في الوقت الحاضر، وهي متفرعة من اللغة التركية القديمة كما تقدم.

وكثير من الكلمات العربية الموجودة في اللغة التركية لا يعرفها هؤلاء الإخوة، ومن ذلك أننا عدنا إلى التجول في المسجد فرأيتة نظيفاً، بل في غاية النظافة، فقلت له: يا أخي (نظيف) مسجدكم (نظيف)، فلم يعرف معنى هذه اللفظة.

وهو مفروش بالسجاد - كما تقدم - إلا أنني لاحظت أن بعض المواضع فيه مفروشة بالبسط الصوفية السميقة.

أما المناظر التي رايتها من خلال نوافذ المسجد، فإنها كلها مناظر

كثيية ، ومنها بقايا فحم حجري كانوا قد أوقدوا به إبان البرد الشديد ، وبقايا أخشاب معدة للوقود أيضاً ، وحتى ألوان البيوت الخشبية التي ترى من نوافذ المسجد كلها رمادية اللون مع ميل إلى السواد ، فإنها قد احترقت من البرد ، ولك أن تتعجب إذا قيل لك: إن البرد يحرق.

وهو وإن لم يحرق حقيقة ، فإن الثلج يحيل ألوان الأخشاب التي يركبها بكثافة ولمدة طويلة إلى ألوان سوداء كثيية ، مثلما أنه أحال لون الأشجار إلى لون رمادي كثيب ، كما نراها الآن.

وللمسجد كغيره من الأبنية بإبان ، يدخل من أحدهما إلى الآخر ، بينهما فراغ ينبعث منه هواء حار ، وذلك بغية عزل المبنى عن الجو الخارجي البارد.

وكذلك نوافذه مزدوجة ، بمعنى أنها نافذة بعد أخرى لما ذكر.

وقد أخبرونا أن متوسط درجة البرودة في هذه المدينة مدينة (إيركوتسك) هي ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وأنها بلغت هذا العام ٢٨ درجة تحت الصفر ، فعدّوا أن البرد هذا ليس قاسياً.

وفي داخل المسجد معاليق للملابس الثقيلة ، كالمعاطف والفراء ، وهي التي تعلق بها الملابس ، وذلك أنه لا بد لمن يأتي من الخارج أن تكون عليه ملابس ثقيلة يصعب عليه تحملها في داخل المكان المدفأ كالمسجد. وقد خصصوا لهذه المعاليق مكاناً واسعاً ، لأنها غليظة من الخشب.

حديث المسجد:

جلسنا في غرفة الإدارة في المسجد ، وهي غرفة صغيرة فيها مكتب عليه جهاز للهاتف ، و آلة كاتبة روسية ، فجعل الأخ نظيف بن رحيم شاه

يحدثنا عن قصة هذا المسجد العظيم كيف بدأت، والى أين انتهت الآن. قال: بني هذا المسجد في سنتي ١٨٨١-١٨٨٢ م، بناه (شيخ عبد الله بن شفيق الله)، وهو تتاري تاجر جاء إلى هذه المنطقة، فرأى أنه لا يوجد فيها مسجد، فبنى هذا المسجد للمسلمين.

وقد أرانا صوراً قديمة للمسجد عندما اكتمل بناؤه، وفيه المنارة شامخة تعلو مقدمه تدل على أنه بيت من بيوت الله الطاهرة التي يؤدي المسلمون فيها شعائر الصلاة.

وفي عام ١٩٣٧ م هدم ستالين طاغية الشيوعية في روسيا منارة المسجد نكايه بالمسلمين، ومن أجل ألا يبقى في المسجد ما يدل على أنه بيت من بيوت العبادة.

وصحب ذلك تعسف و مضايقات للمسلمين، ثم جعلوا يعذبون المسلمين المتدينين الذين يحضرون إلى الصلاة في المسجد.

وفي عام ١٩٣٨ م أغلقوا المسجد كلية، وصادرتة الحكومة الشيوعية، واستخدمته مستودعاً للأسلحة والجيش، وقد بقي الجيش فيه يستخدمه حتى عام ١٩٤٧ م.

وفي هذه الأثناء كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت و انتهت.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٧ م أعيد المسجد للمسلمين.

وكان أحد وجهاء المسلمين الذي عمل إماماً للمسلمين بعد ذلك في المسجد، واسمه (علي أحمد) من تتار الفولقا قد سعى عند الحكومة وعند (ستالين) خاصة من أجل إعادة المسجد للمسلمين.

قال: و منذ ذلك العام ١٩٤٧ م بقي المسجد بأيدي المسلمين، وكان المسلمون كثيراً، وعدد المصلون آنذاك كثيراً، فعمر المسجد بالصلاة والعبادة.

وكان الطابق الأرضي مستودعاً للمسجد.

أخر إصلاح للمسجد:

واصل الأخ نظيف حديثه عن تاريخ المسجد فقال: وفي عام ١٩٥٤ م احترق سقف المسجد، فأصلحه المسلمون، وكان هذا آخر تاريخ تم فيه إصلاح شيء من أمر المسجد.

وكان المسلمون مهتمين بأمر المنارة، ولكن لم يكن بالإمكان أن تأذن الحكومة بإعادة بنائها.

وقد حاول رئيس لجنة المسجد الأخ يحيى الدين غياث الذي تولى رئاسة لجنة المسجد من عام ١٩٦٧ م حتى عام ١٩٨٧ م بناء المنارة، وقام بعمل فحوص تامة للتربة، وهل تتحمل بناء المنارة، واتضح أن الأساس القديم لا يتحمل إعادة بناء المنارة فوَقَّه لقدم عهد البناء.

قال الأخ نظيف: وفي عام ١٩٨٧ م قدمت إلى هذه المدينة مدينة (أركوتسك) قدمت إليها من قرية كنت أسكن فيها، وتوليت رئاسة لجنة المسجد في عام ١٩٨٩ م.

الخطر الذي هدد المسجد:

في عام ١٩٩٠ م بدأت المياه تظهر من حول أرض المسجد، وبدأت الرطوبة تتسرب إلى الطابق الأرضي الذي بدأ فيه شيء من التصدع، يخشى منه إذا اتسع أن يؤثر على المسجد.



في محراب الطابق السفلي لجامع أوركوتسك، المؤلف بين فريد
سليم جان في أيمن الصورة، ونظيف بن رسول شاه في أيسرها

قال: فكتبنا للحكومة ولفتي القسم الأوروبي وسيبيريا الشيخ
طلعت تاج الدين الذي يقيم في مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا،
وذكرنا لهم أن المسجد يحتاج إلى ترميم عاجل، وإلا فإنه سوف يسقط.

وكانت الأوضاع قد تحسنت، وقلّت مواجهة الدين، بل صار أهل
الدين القادرون يعمرن أماكن العبادة، ويصلحون ما شأوا فيها بموافقة
من الحكومة، أو بتشجيع منها.

قال: فجاءت شركة حكومية، وطلبت عشرة آلاف روبل لحماية
المسجد من تسرب المياه، وخمسمائة ألف روبل لإعادة بناء المنارة، ولم
يكن بأيدينا أي شيء من هذا المبلغ، ولم يكن بإمكاننا أن نجمع مبلغاً

كافياً من المال، لأن المسلمين فقراء، وحتى غير المسلمين ليس في أيديهم أموال تزيد عن حاجتهم كثيراً.

قال الأخ نظيف: فكتبت إلى محيي الدين بن غياث الذي كان قد تولى أمر المسجد من قبل من أجل الترميم حذراً من ضرر يصيب المسجد، فقال: إنني على استعداد للتعاون معكم، فأحضروا الأوراق، إلا أنه توفي في حادث سيارة في عام ١٩٩١ م.



تذكارية عند مدخل جامع أوركوتسك، على يميني نظيف بن رسول
وعلى يساري فريد، فرحمة الله بن عناية الله

قال: فكتبنا للمفتي الشيخ طلعت تاج الدين نطلب منه أن يرسل إلينا ٦٥٪ من نفقات ترميم المسجد، فاعتذر بأن دار الفتوى لا تستطيع أن تدفع

أكثر من ٣٥ ٪، ولم يرسل لهم شيئاً.

التكفير عن الذنب:

قالوا: كانت للمسلمين مدرسة كبيرة جيدة البناء واقعة في حي (أكتابرستي) في هذه المدينة مدينة (أركوتسك) كانت السلطات الشيوعية قد أغلقتها، فسكن فيها أناس من عامة الناس من الروس، فذهبنا إليهم، وأخبرناهم أن المسجد يخشى عليه من السقوط، وأن المسلمين لم يجدوا ما ينفقونه عليه، لذلك يريدون أن يبيعوا هذه المدرسة، وينفقوا على المسجد. قال: فتشاوروا فيما بينهم، ثم جاؤوا إلينا وقالوا: نحن مستعدون أن نبني لكم مدرسة بدلاً من هذه في مقابل سكننا عشرات السنين في مدرستكم، على أن تكون المدرسة لنا نبقى فيها، وأن ندفع لكم نصف التكاليف المقدرة لإصلاح المسجد.

قال: وقد وعدنا المركز الثقافى لمدينة (إيركوتسك) أن يدفع لنا مائة ألف روبل مساعدة من المدينة لإصلاح المسجد، وحثنا على سرعة ذلك لئلا يسقط المسجد.

قال: وكان هذا أواخر عام ١٩٩١ م، وعندما عزمنا على الاتفاق مع الروس الذين يسكنون في المدرسة في عام ١٩٩٢ م اعتذروا بعدم وجود أي شيء من النقود عندهم، لأن الأسعار تضاعفت، والأجور والرواتب لم تزد إلا بقدر ضئيل، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أنهم بالفعل لا يستطيعون دفع ما اتفقنا عليه معهم، لأن العجز عن دفع المال صار عاماً للناس كلهم في الوقت الحاضر.

قال: ثم عاودنا السعي لإصلاح المسجد، حيث اجتمعنا بأئمة المساجد في سيبيريا الذين عقدوا اجتماعاً في مدينة أومسك، وهم ستة أئمة من ست

مدن في سيبيريا، وقد قرروا الانفصال عن الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا التي يرأسها الشيخ طلعت تاج الدين، وكونوا إدارة دينية فرعية لمسلمي سيبيريا، إذ كان ذلك الاجتماع برئاسة الإمام زكريا، ولم يذكر بقية اسمه، أي أنهم لم ينفصلوا عن الإدارة الدينية المذكورة كلية، وإنما حاولوا إيجاد تعاون فيما بينهم، ذكروا من بين ما ذكروه أنهم سوف يسعون في جمع المال لترميم مسجدنا، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، وبقي المسجد على ما هو عليه معرضاً للخطر.

قال: وزاد الطين بلة أن منزلاً خشبياً كان ملحقاً بالمسجد قد احترق، واحتجنا لإصلاحه لأنه بمثابة بيت الضيافة للمسلمين الذين يأتون من أماكن خارج مدينة (إيركوتسك)، ومثل إخواننا أعضاء هيئة التبليغ الذين رأيتموهم في المسجد اليوم، فالبلاد - كما تعلمون - باردة، ولا بد من إيواء من يأتي إلى المسجد من المسلمين إيواء مؤقتاً إذا كان غريباً.

ولكن المهندسين من الشركة التي ذكرت أنها سوف تقوم على ترميم المسجد وإصلاح المنزل المحترق رفعت المبالغ التي كانت قد طالبت بها رفعاً شديداً؛ نظراً لغلاء الأسعار يوماً بعد يوم.

فسألتهم عما إذا كانوا قد كتبوا لأحد من البلدان الإسلامية لمساعدتهم؟ فأجاب: لقد كتبنا للأردن بوساطة الطلبة الفلسطينيين الذين يدرسون في المدينة، ولكن لم تكن لكتابتنا نتيجة. فقلت له: ورابطة العالم الإسلامي، وأهل الخليج العربي، أكتبتم لهم؟ فأجاب: لا، إننا لا نعرف منهم أحداً، ولا نعرف عناوينهم.

الفرج العاجل:

فقلت له: إننا سوف نعطيكم الآن ما يكفي لتدعيم المسجد، وإبعاد

الخطر عنه، وما يكفي لإصلاح المنزل الخشبي المحترق من فئاته.

ثم أخذنا معهم نقدر ثمن ما ذكروه كافيًا للإصلاح بسعر الدولار الحاضر، وهو (١٥٠) روبلاً للدولار الواحد، فرأوا أن ثمانية آلاف ومائتي دولار تكفي لذلك، وإصلاح المنزل (١٥٠٠) دولار.

وهذا بالنظر لارتفاع أسعار الدولار، وتدني الأسعار بالنسبة لمن يحضر دولاراً من الخارج، ويشتري به مواد محلية، والمواد التي سيتم بها إصلاح المسجد والمنزل، كلها مواد محلية من الأخشاب والحديد ونحوها.

ولم يصدقوا ذلك، فقد عقدت الدهشة ألسنتهم، وقالوا لنا بعد ذلك: إننا كدنا نياس من الفرج، ولم يكن يخطر في بالنا أن تأتوا إلينا بأنفسكم من دون أن ندعوكم، فتدفعوا لنا هذا كله. فقلت لهم: إن هذا من توفيق الله تعالى لنا ولكم، فنحن مسرورون جداً، لأننا شعرنا أننا أدينا بعض واجبنا نحوكم، وهذه النقود التي سوف ندفعها لكم ليست منا خاصة، بل هي من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي تقوم على مساعدة المسلمين في ترميم المساجد والمدارس، وتخصص للتعاون معهم على ذلك مبالغ معينة في ميزانيتها كل عام.

وقلنا لهم: إنه فيما يختص بإعادة بناء المنارة، فإننا مستعدون إذا وضعت مشروعاً لذلك أن ندفع لكم أكثر النفقات اللازمة لذلك، أو كلها، شرط أن نقتنع من الجد في العمل، وأول ذلك أن تكتبوا إلينا بما تفعلونه من أمر إصلاح المسجد و المنزل أولاً بأول، وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك يمكنكم أن تكتبوا للمفتي الشيخ طلعت تاج الدين في أوقاف، وهو يكتب لنا، ويخبرنا بتطورات العمل، وقد أهديناهم تسجيلاً كاملاً للقرآن الكريم على أشرطة كاملة، ومعه جهاز تسجيل لإدارته، وهو أول

تسجيل للقرآن الكريم يصل إليهم، وقد أداروه واستمعوا بخشوع إلى أول قراءة من قارئ مجود من جهاز للتسجيل، ولا غرو فقد ذكروا أننا أول وفد إسلامي يصل إليهم.

ثم انقضت هذه الجلسة المفيدة التي أحسنا أنها قصيرة رغم طولها، وذلك أننا رأينا وسمعنا فيها أشياء عن أحوال المسلمين وما يتعلق بالمسجد في هذه البلاد.

وإن كنا عتبنا على أنفسنا، وعلى غيرنا من المسلمين القادرين على بذل المساعدة إبطاءنا في الحضور إليهم، وتفقد أمورهم لكونهم لا يستطيعون أن يحضروا إلينا، لأنهم لا يستطيعون مغادرة بلادهم بسبب منعهم من السفر خارج بلادهم مثل غيرهم من المواطنين.

والتقطنا صوراً عديدة للمسجد الذي تبين أنه مبني بالحجارة القوية، ومبطن من الداخل بالخشب، ويقع في القسم القديم من مدينة (إيركوتسك) في حي بيوته من الخشب ذي الطابقين والطابق الواحد، لا يزيد على ذلك، وهي في شوارع مستقيمة جيدة التسيق، إلا أنها قد بعد عهدها بالعناية والتجديد إلى جانب فعل الجو القاسي الذي أحالها إلى لون الحطام البالي من الأخشاب.

وأكثر البيوت لها مقدمات ضيقة كما تكون المقدمات في الدارات (الفلل)، وأكثر هذه المقدمات المكشوفة مسورة بسور من الأخشاب المهذبة وهي التي غدت مثل البيوت ذات ألوان كثيبة تتماشى مع الألوان غير الفاقعة، ولا السارة التي تسود الجو كله في الحي.



المنازل الخشبية في ضواحي إيركوتسك

والعجيب أن التراب الذي رأيناه لا يزال يركب أرض الشوارع هو أسود أيضاً، ولكنه سواد غير حالك، بل هو في لون الرماد، ولا أدري أذلك هو لونه الأصيل أم أنه من أثر البرد، إلا أنني رأيت التربة خارج المدينة ليست سوداء.

وقد أخبرونا عن قسوة الشتاء أن درجة البرودة كانت في الأيام الأولى من هذا الشهر الذي هو شهر مايو (أيار) ٨ درجات تحت الصفر، مع أن هذا الشهر مشهور حتى في البلدان الشمالية الباردة، مثل موسكو بأنه شهر الربيع، ولذلك يقولون لعيد أول مايو الذي اعتبروه عيد العمال في الدول الشيوعية: إنه عيد الربيع، وأي ربيع تكون فيه درجة البرودة ٨

درجات تحت الصفر، بما يعنيه ذلك من موت كل شيء حي من الأشجار والأعشاب والمزروعات، واستحالة الألوان فيه إلى لون جامد كئيب، لا أثر فيه لنمو أو لحياة غير حيوات الأناسي والحيوان الذي لا بد - أيضاً - من أن يخزن له علفه وطعامه، وإلا مات جوعاً.

جوقاري:

كانوا يحدثوننا هذا الحديث ونحن في فناء المسجد المكشوف الذي كان حديقة في وقت الدفء أصبح الآن أشبه برفات الحديقة، وكانت الشمس مشرقة حارة الأشعة، تحس بوقع أشعتها على جسمك لذيدة حانية، حتى وإن كانت حارة، لأنك تعرف أنك في بلاد سيبيريا الثلجة التي لا تعمل أشعة الشمس فيها عملها في فصول البرد.

وما شبهت الجو الآن ونحن في منتصف النهار إلا بجو الشتاء في بلادنا إذا كانت الشمس مشرقة، وأظن درجة الحرارة الآن ما بين ١٢ إلى ١٤ فوق الصفر، وذلك بخلاف ما كانت عليه في أول الصباح حين شعرنا بالبرد الشديد عندما خرجنا من الفندق، وقال لنا الأخ فريد سليم جان: إن الجو غير بارد، إن درجة الحرارة ما بين ٢ إلى ٣ درجات فوق الصفر!

وتيقنا بذلك ما كنا عرفناه من قبل عن طريق القراءة والاستنتاج من كون سيبيريا بلداً قارية، أو على قول بعض الجغرافيين لها بأنها بلاد قارية المناخ.

إلى بحيرة باي كل:

وهي البحيرة التي تقع مدينة (أيروكوتسك) على نهر هو فرع منها، ولذلك لا يحتاج القول إلى أننا ذهبنا إليها، غير أننا لسندهب الآن إلى

مكان واقع على ضفتها من منطقة ريفية تبعد (٣٥) كيلو متراً، حيث البحيرة الرئيسية ومن دونها أراضٍ من الأراضي الريفية في المنطقة.

وبحيرة (باي كل) تختلف كتابتها بالعربية، إذ يكتبها بعضهم (بيكال) مع أن اسمها تركي الأصل مركب من كلمتين هما: (باي)، بمعنى غنى من الغنى، و(كل) بمعنى بحيرة، فمعنى اسمها إذاً: البحيرة الغنية.

وهي من أكبر البحيرات العذبة في العالم، بل قال الأخ الذي معنا: إنها أكبر بحيرة من المياه العذبة في العالم، ولكنني تذكرت بحيرة (فيكتوريا) التي يسميها الإفريقيون (نيانزا) وتقع في وسط إفريقيا عليها أراضٍ لكينيا وأوغندا، وكنت أعتقد آنذاك أنها أكبر البحيرات العذبة في العالم.

ولكن الصحيح أن بحيرة (باي كل) تحتزن من المياه العذبة أكثر مما تحتزنه أية بحيرة عذبة في العالم.

ويكفيك دليلاً على كبر بحيرة (باي كل) هذه أن طولها يبلغ ألفاً وثلاثمائة كيلو متر، أي أن امتدادها كامتداد المسافة ما بين الأحساء وجدة، ولكنها ليست عريضة، وهي أعمق بحيرة عذبة في العالم، إذ يبلغ أقصى عمق لها ١٦٢٠ متراً.

وقد ذكروا من عجائبها أن ماءها شفاف حتى يمكن ان يرى على عمق ٣٠ متراً.

وهي بحيرة عريقة لذلك كان فيها نحو ألف صنف من حيوان الماء، ثلاثة أرباعها لا يوجد في غيرها. وقالوا في المقارنة ما بينها وبين بحر البلطيق مثلاً: إن مساحة بحيرة (باي كل) أضيق من بحر البلطيق ١٣ مرة،

ولكنها تحتزن مقادير من المياه أكثر مما يخزنه بحر البلطيق.

ريف سييريا:

خرجنا مع إحدى ضواحي مدينة إيركوتسك، فرأينا على مشارفها سداً على شعبة من البحيرة، رأينا فيها ميناء صغيراً على البحيرة، و هو غير الميناء الرئيسي فيها.

ثم بدأ الريف بأماكن مرتفعة ارتفاعاً غير حاد، وليست بالتلال، لأن ظهور أرضها تظل مستوية لمسافة معينة تبدأ بعدها بالانخفاض انخفاضاً غير حاد هكذا.



ضاحية منسقة جميلة في إيركوتسك

والريف كله رمادي أشهب لولا بعض الأشجار الخضراء التي لا يسقط الثلج ورقها، وهي معروفة بذلك، وتشبه أن تكون شجرة عيد الميلاد منها،

وهي تشبه شجرة العرعر الموجودة في بلادنا في الطائف فما كان عنه جنوباً.

صحراء لولا الماء:

ومنظر هذا الريف يجعل المرء يكاد يجزم بأنه يخترق بلاداً صحراوية حقيقية لولا وجود بعض المياه الناقعة قبل أن يصل المرء إلى البحيرة، وتلك المياه متخلفة من ذوب الثلوج، وذكروا أنها لا تلبث أن تتبخر إذا اشتدت عليها حرارة الشمس.

أما السيارات فإنها موجودة على هذا الطريق، وأغلبها من سيارات الركوب الخاصة، والطريق واحد للذهاب والآيب، يفصل بينهما خط أبيض. ثم وصلنا إلى منطقة أشجار مكثفة، ولكنها كلها ليست إلا أعواداً هامدة كالحمة المنظر فيما تراه العين من أثرها الآن ماعدا بعض الشجيرات الخضراء التي لا يسقط ورقها وهي قليلة، ذكروا أنها لا تغل أشجاراً من أشجار الغابات التي ينتفع بأخشابها، كما ذكروا لنا أن هذه الأشجار الهامدة التي نراها الآن تسرع في إظهار أوراقها بعد فترة قصيرة، ثم ما تلبث أن تزدهر وتكثر أغصانها وتغلظ سوقها - جمع ساق -، وأنها لذلك مربحة، ويعتبر من يملك قدرًا جيدًا منها غنياً، ولا يملك ذلك إلا الدولة، والمعروف لنا من الأخبار التي سمعناها من الإخوة قبل ذلك في هذه البلاد، وفي المناطق الباردة الشمالية من بلاد المسلمين، أن الأشجار فيها تسارع منذ أن تحس بانفساخ الشتاء وحلول الربيع بالأوراق ثم بالأغصان الدقيقة، وهي تنمو أسرع مما تنمو الأشجار في البلدان المعتدلة، لأنها تعلم بالغريزة أن زمن نموها وازدهارها قصير، فكأنها تريد بذلك أن تسابق الزمن، لكي تعوض ما فاتها في زمن الشتاء القاسي عندما تقف عن

النمو، بل عندما تقف عن الحياة بصفة مؤقتة.

ورأينا رجلاً يسير بالألبسة الداخلية فقط، وقال المرافقون: إنه ربما يكون سكران.

ثم وصلنا إلى منطقة من مناطق الغابات الكثيفة، ولكن ليس فيها أوراق، وسائق سيارتنا هو الأخ السائق (فريد بن غريب جان)، وهو يتعاون مع الأخ المرافق (فريد بن سليم جان) على شرح ما نسأل عنه.

ولم أرَ في هذه البلاد البرية أي عود أخضر لا من الشجر ولا من النبات، وذكرت أنني عندما كنت في الطائرة رأيت الطيار وهو يدخل إلى غرفة القيادة معه صرة من البصل الأخضر، وكأنها هي هدية أحضرها من المآتا عاصمة قازاقستان إلى سيبريا.

وقد ازدادت الأشجار كثافة في الطريق، إلا أن المرء لا يشعر بأنها أشجار نامية، وإنما هي أشبه بالعيان المركوزة بالأرض.

داخل الغابة الهامدة:

تركنا الطريق الإسفلتي، ودخلنا في قلب الغابة مع طريق طيني معبد، أي أنه مرصوص بالطين فقط، وما هو بحاجة إلى ذلك الآن، لأن الثلج قد فارقه منذ وقت قريب، لذا لا يحتاج إلى رص أو تمهيد.

وتكاثفت الأشجار في الغابة، ولكنها كانت منيرة، فلم نشعر بداخل الغابة بأي نقص في الضوء، وذلك لعدم وجود الأوراق أو الأغصان الدقيقة في أشجارها.

وقد ذكروا لنا أن الغابات كثيرة في سيبريا هذه، بل إنها تمتد آلاف الأميال بدون انقطاع.

وقد عرفت سبب كثرة بناء البيوت بالأخشاب، دون مواد البناء الأخرى، مع عدم مقاومة الخشب للرطوبة الشديدة التي تسببها الثلوج، وإن كان موصلاً رديئاً للحرارة، بمعنى أنه أكثر مناسبة لبناء البيوت في هذه البلاد السيبيرية من البيوت الإسمنتية إذا بنيت بالطرق التقليدية المعتادة في البلدان المعتدلة.

الأطراف المتجمدة:



فوق إطار قديم بقي من الوحل على شاطئ بحيرة باي كل التي لا تزال أطرافها متجمدة قرب إيركوتسك

والمراد بذلك أطراف البحيرة بحيرة (باي كل) التي نحن ذاهبون إليها، فقد رأينا وسطها بل أعظمها معتاداً غير متجمد، غير أن أطرافها متجمدة، وكأنها الحجارة البيضاء الرقيقة التي تحيط بها.

ومن الطريف أننا رأيناهم قد أقاموا بيوتاً من الخشب الذي اسود من هطول الثلج، ومن الأعراض الجوية الأخرى على ضفاف هذه البحيرة بغية التتزه والسكنى فيها في غير فصل الشتاء.

وقد عجبنا لذلك مع أن الشمس ساطعة، وقد فارقها الشتاء الثلج، ولقد كنا نحس بالريح الباردة التي تهب فتقشعر لها الأبدان، لا سيما حينما يرى المرء أطراف البحيرة وقد تحولت إلى ألواح من الثلج الذي يعوم فوق الماء.



ضواحي بعيدة من إيركوتسك على ضفاف البحيرة

وقفنا على شاطئ البحيرة فرأينا الذي يلينا منه طيناً ووحلاً، لأنه حديث عهد بثلج، ووجدناهم وضعوا عدداً من إطارات السيارات فيه من أجل أن يطأ عليها من يريد السير فيه، فالتقطنا فيها صوراً تذكارية، حيث سرنا عليه لنتمكن من تصوير منطقة أخرى من البحيرة.

ولم نرَ عليها أية نبات، ولا عوداً أخضر من شجر، ولذلك لقرب
عهدها بالثلج كما سبق.

من سكان البحيرة:

بينما كنا نتمشى على شاطئ بحيرة (باي كل) التي عليها البيوت
الخشبية التي ذكرتها خرج من أحدها سكان، وهم أسرة مؤلفة من رجل
في منتصف العمر، وامرأة كذلك، وامرأة شابة تحمل طفلة عمرها سنة
واحدة، وقد استرعى انتباههم وجودنا ونحن نرتدي الملابس العربية،
فتحدثنا معهم بوساطة المترجم، فذكروا أنهم من سكان هذا البيت، وأن
لهم بيتاً في المدينة، وقد عزموا علينا أن نشرب الشاي في بيتهم، وهم من
الروس وكان الوقت ضيقاً، فخشينا أن يفوتنا بعض ما نريد الاطلاع عليه
في هذه البلاد إذا بقينا عندهم، فأصروا على التقاط صورة تذكارية
معهم، وكتبوا لنا عنوانهم للمراسلة، وفيما إذا جئنا مرة ثانية إلى سيبيريا.
وقد ذكروا أن هذه المنطقة تكون جميلة جداً، بل إن منطقة
سيبيريا هذه يجتمع فيها في الصيف الدفء والأمطار والخضرة، خضرة
الأعشاب وخضرة الأشجار.

وأهل هذه المنطقة إذا حدثوك عن المطر فكأنما يحدثونك عن
الدفء وحلول الربيع، لأنه لا ينزل عندهم في الشتاء إلا الثلج حتى إذا نزل
المطر عندهم بعد ذلك تباشروا بأن الدفء قد حل، أو ان البشارة يحلوه قد
جاءتهم مع المطر.

إلى شاطئ آخر:

ودعنا الأسرة الروسية الساكنة في شاطئ البحيرة الكالح المنظر،

وكان وداعهم حاراً. رغم كوننا لم نتعرف عليهم إلا منذ قليل، وغادرتنا المكان مخترقين الغابة الميتة - إن صح التعبير - وإن كان موتها إلى نشور قريب، وسلكتنا طريقاً آخر في العودة إلى المدينة، لأننا نريد أن نمر بشاطئ آخر من شواطئ البحيرة، وهو أقرب من الأول للمدينة.

وقد عجبت لكوني رأيت شاطئ البحيرة هذا متجمداً كلياً، حتى إن الناس يمشون فوقه، ووقفنا فوقه والتقطنا صوراً تذكارية، وذلك أنه أشبه بلسان ضيق من الماء داخل في الأرض، وفي هذه المنطقة ميناء صغير عليه باخرة لا يزال الثلج قريباً منها.

وحوله أبنية سكنية متعددة الطوابق (عمائر) من التي تبنيتها الحكومة وتؤجرها شققاً على الناس، ليسكنوا فيها بأجر زهيد.

وهذه المنطقة يمكن أن تعتبر ضاحية بعيدة للمدينة، ويمكن أن تعتبر محلة منفصلة عنها.

العودة إلى إيركوتسك:

عدنا إلى مدينة (إيركوتسك) التي يبلغ عدد سكانها ستمائة ألف نسمة، وقد عجبت من صبر هؤلاء القوم عليها، بل إن عجبي كان أعظم عندما سألت مرافقنا الأخ فريد عما إذا كان يرغب في هجر سيبيريا والانتقال منها إلى بلاد أخرى كبلاده الأصلية في الفولقا؟ فأجاب: إنه لا يرغب في الانتقال من سيبيريا.

فقلت له: ماذا تجده في سيبيريا؟ فأجاب: فيها الغابات والحيوانات.

فقلت له: ألك حيوانات؟ فأجاب: لا.

ومن المعلوم لنا أن الأخ فريد يعمل في إحدى الشركات الحكومية،

وأنة من أبناء التتار المهجرين، أو على الأدق المبعدين من بلادهم قرب نهر الفولقا في (تتارستان) عام ١٩٣٧م، وقد ذكر لنا أنه كان طفلاً عندما أبعده أهله عن بلادهم (تتارستان) إلى سيبيريا، وقد سألته عن كيفية وصولهم إلى هنا.

فكان مما قاله لي: إنهم أبعدهم بالقطارات إلى سيبيريا، وأنهم عندما وصلوا إلى هنا وضعوهم في منطقة من مناطق الغابات، وقالوا: تستطيعون أن تبثوا لكم بيوتاً من هذه الغابات، وأن تزرعوا الأرض، وتأكلوا منها.



القسم الجيد من قلب مدينة إيركوتسك

وظنتي أن السبب في عدم عودة الأخ فريد وأمثاله، وحتى عودة الروس هو أنهم لا يجدون مكاناً مناسباً يتجهون إليه إذا تركوا سيبيريا، والمراد بذلك

المكان المناسب من الناحية الاقتصادية، أي أن يكون أحسن في الوقت الحاضر من ناحية الاقتصاد، ومن ثم في رضاء العيش من سيبيريا هذه.

فالروس - مثلاً - لا يذهبون إلى بلاد الروس الأصلية، لأن الأوضاع المعيشية فيها متردية، والفلاء والبرد أيضاً، وإن يكن دون برد سيبيريا موجود فيها، وحتى الجرائم واختلال الأمن قد صاحبت التحول الفجائي من الشيوعية إلى الرأسمالية.

المسلمون في مدينة إيركوتسك:

قلنا إن عدد سكان المدينة يبلغ ستمائة ألف نسمة، ونذكر أن فيهم سبعة آلاف مسلم، وذلك من أهل المدينة نفسها، أما مجموع المسلمين في المدينة وضواحيها، فإنه يبلغ (٤٣) ألفاً، وذلك أن سكنى المسلمين في ضواحي المدينة هو أكثر من سكانهم فيها، لكون أكثرهم من الزراع الذين جيء بهم إليها مهجرين مبعدين من بلادهم، فصاروا يعملون في أراض حكومية سلمتها الدولة لهم ليزرعوها ويعيشوا منها.

ويتألف المسلمون هنا في معظمهم من التتار المهجرين من (تتار القريم)، وتتار الفولقا، كما يوجد مسلمون قدماء، ولكن على قلة فهم من سكان هذه المنطقة السيبيرية عندما كان يحكمها المسلمون، وقبل أن يستولي عليها الروس في عام ١٥٩٨ م كما تقدم الكلام عليه في أول الكتاب.

ويوجد الآن مسلمون عاملون هنا من الأوزبك والقازاق والأذربيجانيين وغيرهم، وبعضهم يأتون للمتاجرة البسيطة بعد أن تراخت قبضة الشيوعية، وذهب تعصبها الذي يحرم التجارة بحجة أنها استغلال للآخرين.

ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين لا يوجد لهم إلا مسجد واحد، هو المسجد الجامع الذي مر ذكره، و كان يوجد لهم أكثر من مسجد في خارج المدينة، كما كانت لهم مدرسة في مدينة (إيركوتسك)، وقد مر ذكرها، وهي مدرسة دينية إسلامية، لذلك صادرها الشيوعيون،

وأعطوها سكاناً آخرين من غير المسلمين يسكنون فيها. والمفزع في الأمر أنه رغم هذا العدد غير القليل من المسلمين، فإن عدد الذين يحضرون للصلاة في الأزمان المتأخرة قليل جداً، وكان عدد المصلين قبل ذلك كثيراً، بحيث كان يضيق بهم المسجد.

وقد أرجع الإخوة الذين سألناهم ذلك إلى التربية الإلحادية الشيوعية للشباب التي شككت كثيراً منهم في دينهم، وإن لم تخرجهم إلى دين آخر، فما زال حتى غير المتدينين منهم يقولون إنهم مسلمون، ويتمسكون بذلك، إلى جانب عدم وجود دعاة وأئمة للمساجد من الشبان المتضلعين في العلوم الدينية الذين يستطيعون أن يوضحوا للمسلمين ما خفي عليهم من أمور دينهم، وأن يبينوا لهم محاسنه، وأن يذكرهم بالعودة إلى منابعهم الأصيلة التي اهتدت إلى الدين الإسلامي، فجلب لها ذلك الملك العريض، والمجد الباذخ.

فمثلاً: إمام المسجد واسمه (خوجة احمد بن مناسب) هو كبير السن، وكان سبباً افتقاده، ويصلي بالناس إماماً محتسباً الأجر من الله، والأخ (نظيف بن رحيم شاه) الذي يؤم بالناس نيابة عن الإمام، ويؤذن للصلاة، هو سائق متقاعد، وهكذا، وليس هذا قديماً في وظائفهم، فإنهم يستحقون الثناء على عملهم في المسجد، ولكنهم كما يقولون هم عن أنفسهم ليسوا من أهل العلم الذين يستطيعون أن يرشدوا الناس إلى ما يشكل عليهم من أمور دينهم، فضلاً عن أن يقنعوا غير المسلمين بالحجة والبرهان.

ومن الغريب الذي قالوه: إنهم يتوقعون أن يزيد عدد المسلمين بعد أن سقطت الشيوعية، عدد الذين يهاجرون الآن إلى سيبيريا هو أكثر من عدد الذين يغادرونها، وذلك لسعة الأرض ووجود معادن فيها، وما ينتظرها من مستقبل اقتصادي حسبما ذكره وتوقعوه.

حتى أولئك المسلمون الذين هجروا إلى سيبيريا بالقوة كالتتار لا ينوون مغادرتها، لأنهم استوطنوها بالفعل، وألغوا الحياة فيها رغم قسوتها،

ورغم كون جمهورية تاتارستان الذاتية الحكم التي عاصمتها (قازان) ترحب الآن بعودتهم، فإنها ليست لديها الإغراءات التي تجذبهم، لأن الحالة الاقتصادية فيها متردية أيضاً.

وقل مثل ذلك عن إخواننا من تاتار القريم الذين عاد بعضهم من سيبيريا إلى ديارهم في (القريم)، ولكنهم وجدوا أن أراضيهم ومنازلهم قد احتلت من غيرهم، ولم يستطيعوا إخراج من فيها ولا الحصول على ما يعوضهم عنها، لذلك بقي بعضهم في سيبيريا.

وعلى وجه العموم، فإنه يمكن توقع صحوة إسلامية وعودة إلى الله في هذه البلاد، ولكن المسلمين هم أشبه بالمريض الذي خرج لتوه من مرض عضال يحتاج بعده إلى عناية فائقة وإلى رعاية صحية وغذائية. وذلك واجبنا نحن وأمثالنا من القادرين ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى أن نفعل ذلك.

في سوق المدينة:



جانب من السوق الشعبي في إيركوتسك

قصدنا توأ سوق المدينة الذي تطور العمل فيه منذ سنوات قليلة ، فأصبح بإمكان الشخص أن يبيع ما تنتجه أرضه من مزروعات ، بعد أن كان يجب عليه أن يسلم كل ذلك إلى الحكومة فتعطيه الثمن الذي تقدره له ، ثم تبيعه للمواطنين بالثمن الذي تراه .

ولكن هذه الأرض السيبيرية ليس فيها ما ينتج الآن بعد الفصل الشتوي القاسي ، فرأينا كل ما تنتجه هو مما يزرع الآن ويقلع في فصل الصيف أو الخريف .



في السوق الشعبي في مدينة إيركوتسك

وكل ما في السوق الآن من الفواكه والخضرات والأغذية هو مجلوب من أماكن جنوبية دافئة ، دفئها نسبي ، وهي قاسية البرد بالنسبة

إلى بلادنا.

وقفنا عند السوق الذي يتألف من قسمين: قسم مفتوح ليس عليه إلا غطاء مسقف بالصفيح، وهو يصلح لأوقات السنة غير الثلجة أو القاسية البرد. والثاني مسقوف، ويغلق بأبواب محكمة ويستعمل لأوقات الشتاء.

جميع الخضرات والفاكهة التي رأيناها تباع في السوق المفتوح هي مستوردة من بلاد المسلمين، فمثلاً التفاح من طشقند، أي جاؤوا به من هناك، والطماطم من باكو عاصمة أذربيجان، ورأيت طماطم أحضروها من طشقند كتبوا سعرها عليها بأنه ستمائة روبل للكيلو، ويعادل ذلك أربع دولارات أمريكية بالصرف الحر، وبالنسبة لأجور العمال فإنه يعادل راتب شهر للعامل غير المتمرن، وهذا نهاية الغلاء.

وعلى ذكر هذه الخضرات والفاكهة الواردة من بلدان المسلمين ذكر لنا الإخوة أن الباعة فيهم كثير من المسلمين، وبالفعل تحدثنا إلى عدد منهم فأخبرونا أنهم من المسلمين من البلدان الجنوبية.

وحتى البصل فإنه مستورد من (المأتا) عاصمة قازاقستان.

والبضائع قليلة، وبالتالي فإن الحاصل من بيعها، فضلاً عن الربح قليل، لكنه يعتبر جيداً في هذه البلاد التي قلت فيها المصالح التجارية، وتدنت فيها الدخول نتيجة لانهايار قيمة العملة الوطنية.

وقد رأيت امرأة قوية في منتصف العمر، كل ما تبيعه كومة من أكياس البلاستيك الصغيرة المعتادة التي نصرّفها للمشتريين مجاناً عندنا، وإذا بيعت عندنا فإنها رخيصة، إذ تباع موزونة بالكيلو.

ورأيت رجلاً جالساً عند كومة من الحبال الرديئة، يبيعه على من

يحتاج إليها بثمن زهيد.

وحتى نوع البضائع فإنه غير جيد، من ذلك بطاطس أسود رخو، ذكروا أنه صار كذلك من شدة البرد، وقل مثل ذلك في قليل من بنجر السكر.

ومع ذلك لاحظت كثرة الناس في السوق، وعجبت من منظر غير مألوف لنا وهو منظر أناس من الأوروبيين الشقر الصفر الشعور، وهم يبيعون بضائع زهيدة لا تباع هكذا إلا في بلاد أناس من السود أو السمر.

ومن ذلك مثلاً أن أحدهم قد وضع أمامه ثلاثة فصوص صغيرة من الثوم، وطلب ثمنها لها روبلاً، هكذا يساوي سدس دولار، أي حوالي نصف ريال وشيء، من نقودنا السعودية.

ومع ذلك فهو غالٍ جداً بالنسبة إلى ما نعرفه من مثل هذه الخضرات التي تنتج في بلادنا، ونبيعها بأسعار رخيصة رغم وفرة الدخول، وكثرة النقود بأيدي الناس.

ثم انتقلنا إلى القسم المسقوف بل المغلق من السوق بعد أن التقطنا صوراً عديدة من السوق المكشوف وسط الزحام الذي استحكم حوله.

وقد أعجبتني منظر بائعين فيه من سكان سيبيريا القدماء، من الذين يقال لهم بويورك، وهم من أصل مغولي قديم انتقل إلى سيبيريا، ويتميزون بغلظ الأجسام، وبعدها عن مشابهة التقاسيم الموجودة في وجوه الأوروبيين، وهم أقرب إلى مظهر التركستانيين الذين نسميهم بالبخاريين، بل إن فيهم شياً من أهل جزر تاهيتي الواقعة في أقصى جنوب المحيط الهادئ، وقد ذكرت أمر تاهيتي في كتاب ((نائه في تاهيتي))، فالتقنا صوراً

تذكارية معهما، واحدهما يبيع لبناً، والآخر يبيع زبداً.

وكل ما في هذا السوق المسقوف مثل سابقه ينطق بالعوز والحاجة.

وقد رأيت رجلاً عنده بعض الحبوب التي كنا نسميها في بلادنا بالسقط، وهي التي تكون عندنا مثل الحبة السوداء والكمون والحلبة ونحو ذلك، وكل ما عنده لا يتعدى النوع الواحد مقدار ما يملأ فنجان القهوة، ولا أدري أهذه نماذج لها أم هذا هو كل ما يعرضه منها، وأظن أن الأخير هو الصحيح، إذ ما الذي يدعوه إلى عرض هذا القليل؟ ولكنه - لا شك - يعرف أن القدرة الشرائية عند أكثرية السكان ضعيفة، وبالتالي يعلم ما سيبيعه من بضاعته إنما هو قليل من قليل.



باعة من طائفة بيوراتيا في داخل السوق المسقوف في إيركوتسك

ثم جلنا في تمشية على الأقدام فيما حول السوق من وسط المدينة ذي الشوارع الواسعة التي تجري فيها عربات الترمواي وسط جو مشمس معتدل.

ورأينا أكثرية السكان من العنصر الأوروبي السلافي الذي يقل فيه الثقال الغلاظ الذين يراهم المرء في البلاد الروسية الأصيلة.

والشيء الجامع في مظهر الجميع هو ما يلاحظه الغريب أمثالنا من علامات نقص التغذية على الوجوه من عدم وفرة الدماء فيها، والتجاعيد على وجوه متوسطي السن، فضلاً عن الكبار من الشيوخ والعجائز.

العودة إلى المسجد:

حان وقت صلاة الظهر، فعدنا إلى المسجد لأداء صلاة الظهر، وتسليم المساعدة المالية التي قررنا تسليمها إليهم لترميم المسجد، وكنا طلبنا منهم أن يحضروا بعض الإخوة المسؤولين عن المسجد إضافة إليهم، فوجدنا إمام المسجد الأخ (خوجة أحمد مناسب) الذي تقدم ذكره، واسم أسرته (مناسب) عربي غير كثير الاستعمال في أسماء الأسر عندنا، أو هو غير مستعمل أصلاً لذلك فيما نعرفه.

وهذا غريب، ولكن الأغرب منه اسم أخ آخر فهو (فتاح الدين بن مفتاح الدين)؛ إن مفتاح الدين مستعمل حتى في بلاد الأعاجم في لغتهم كإندونيسيا، ولكن (فتاح الدين). غير مستعمل في الأسماء التي نعرفها، رغم كونه عربياً فصيحاً، ولكن هؤلاء الإخوة تلقوا هذه الأسماء العربية الإسلامية في أزمان تاريخية سابقة، وبقوا يتسمون بها حتى بعد انقطاع صلتهم بالعالم الإسلامي.

إن الأخ (فتاح الدين) كان يعمل سباكاً، ولكنه متقاعد الآن، ولذلك يحرص على الحضور إلى المسجد، وبذل ما يستطيع من خدمة له أو عمل فيه.



ينتظرون الحافلات في القسم الجيد من إيركوتسك

ولم يستطع الأخ (المناسب) أن يعرف شيئاً بالعربية يتحفنا به إلا كلمة (مسلمان)، وربما كان ذلك لضعف في ذاكرته.

إننا لم نجد عندهم معرفة بوضع المسلمين في بقية أنحاء سيبيريا، إلا في مدينة (أومسك) السيبيرية التي كان قد عقد فيها اجتماع لأئمة المساجد في سيبيريا.

وذلك ناشئ عن قلة الدخول، وعدم الإذن بالانتقال للعمل في أنحاء البلاد في أوقات الطغيان الشيوعي المتزمت الغابر.

وكنا طلبنا أن نعرف منهم بعض المعلومات عن الإسلام والمسلمين في المدن السيبيرية الست التي يوجد فيها مساجد.

نثار منغبرون:

وهؤلاء الإخوة كلهم من التتار، ولكنهم متغيرون من جهة مظاهر أجسامهم تغيراً كبيراً، ربما يعتبره أمثالنا إلى الأحسن، فتقاسيم وجوههم صارت أقرب إلى التقاسيم العربية، وإن لم تكن عربية، وإنما هي تشبه وجوه الأتراك الذين يعيشون الآن في مدينة إسطنبول على سبيل المثال في بعدها عن تقاسيم الوجوه التركية الأصلية الموجودة الآن في تركستان الشرقية والغربية، وهي الوجوه التي نسمي أهلها في بلادنا بالبخاريين.

بل إن هؤلاء التتار أبعد عن وجوه المغول الحاليين، وعن وجوه البخاريين في الشبه من سكان مدينة إسطنبول في الوقت الحاضر.

ولا شك في أن السبب في ذلك أنهم ليسوا من التتار الأنقياء الأنساب، الذين يسميهم المؤرخون العرب بالتتار، ويقولون إنهم فرقة من المغول، وبعضهم يقول إنهم من بدو المغول، والصحيح أن (التتار) كانوا في الأصل قبيلة من المغول الأصلاء، وأما هؤلاء التتار فإنهم من المختلطين الذين اختلطوا بأقوام أخرى من مسلمي منطقة الفولقا مثل البلغار والجوفاش والمورداف وغيرهم من سكان جبال (قفج) التي هي تعرف الآن عندنا بالقوقاز. فضلاً عن طوائف من السلافين الذين حكم التتار بلادهم كأوكرانيين والبولنديين واللتوانيين، فالتتار الآن اسم يطلق على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون في بلاد الإمبراطورية المسلمة الكبيرة التي كانت تسمى (آلتون أورد) بمعنى القبيلة الذهبية، ولا يرجع أكثرهم إلى أصول مغولية، وإنما سموا بالتتار على اعتبار أنهم كانوا من رعايا التتار أو المغول.



طراز البيوت الخشبية القديمة في شارع الجامع في إيركوتسك

وما شبهت حال التتار الأصلاء إلا بحال العرب الذين خرجوا من الجزيرة، وحكموا بلاداً أخرى سميت بالبلدان العربية، إلا أن العرب كان اختلاطهم في تلك البلدان بأقوام يمكن أن ينضووا تحت جنس البحر الأبيض المتوسط، بخلاف التتار الذين انضموا إلى أقوام يخالفونهم في التقاسيم، وأشكال الخلقة بوجه عام، فصاروا قلة في إمبراطوريتهم الإسلامية العظيمة الواسعة، فاندمجوا مع الأقوام التي يسكنون في تلك الإمبراطورية، وانطبعوا بطابعهم على مر السنين.

الأذان الباكي:

ارتدى الأخ (نظيف بن رحيم شاه) ملابس الصلاة، وهي الجبة والعمامة، وأذن للصلاة في الثانية والرابع أذاناً أشبه بالبكاء، بل هو

البكاء على أمجاد المسلمين التي ضاعت، بل التي ضيعها المسلمون حتى من مشاعرهم، أو هكذا خيل إلي عندما سمعت أذانه.

فهؤلاء التتاريون الذين كونوا أعظم إمبراطورية مسلمة، بل أعظم إمبراطورية في شمال الأرض على الإطلاق قبل الإمبراطورية الروسية، قد تفرقوا الآن أيدي سبأ، حتى صاروا أقل الأقوام المسلمة سكناً، أو لنقل بقاء في ديارهم، فهم متفرقون في أنحاء الاتحاد السوفيتي، رغم أنهم كانوا يحكمون أكثره، فتجد أن ثقلهم يسكن في جمهورية تتارستان، ويعرفون بتتار الفولقا، وثقل لهم آخر كان يسكن (القريم) ويسمونهم (تتار القريم) قد تشتتوا بفعل التهجير بالقوة، بل الطرد الروسي لهم إلى سيبيريا وغيرها.

فمجموع عدد التتار يبلغ الآن أكثر من ستة ملايين لا يوجد إلا أقل من نصفهم في بلادهم من جمهورية تتارستان التي تكاثر فيها المهجرون من الروس والأوكرانيين والأرمن والروس البيض، وغيرهم من غير المسلمين حتى صاروا أقلية في بلادهم لا تزيد نسبتهم فيها على ٤٢٪، وقد ذكرت أحوالاً من أحوال تلك الجمهورية الحاضرة في كتاب **(الرحلة الروسية)** لأنها صارت جمهورية ذات حكم ذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية.

فرغ الأخ (نظيف) من أذانه، وهو المؤذن الرسمي للمسجد ونائب الإمام، وأنا لم أفرغ من أشجاني، بل أحزاني على أمجاد المسلمين الضائعة، وعلى حالتنا نحن التي لم نتحرك فيها سريعاً إلى نجدة هؤلاء الإخوة المسلمين عندما حانت الفرصة التي لم تتح من قبل لذلك.

وقال لنا الإخوة البنغاليون الذين سارعوا إلى الصف وهم يسكنون في المسجد: إن عدد المصلين قليل، وهؤلاء هم الذين جاؤا للتبليغ في هذه

البلاد، وذكرت حالهم قبل قليل.

وقد صلى معنا صلاة الظهر منهم أربعة، والبنغاليون الثلاثة.

وهذا عدد قليل وإن كان قد يقال إن وقت الظهر بالذات يصعب على المصلين العاملين الحضور فيه، لأنه في وقت العمل والبلدة متباعدة، ولكننا علمنا من البنغاليين أو (البنغلاديشيين) كما يحلو لبعضهم أن ينسب إلى المكان وما نسب إليه، أن أكثر الأوقات لا يصلي فيها إلا القليل في المسجد.

وهذا كما قلنا وكررنا القول بسبب التربية الشيعوية الإلحادية، ومحاربة الدعوة إلى الدين، بحيث لا يستطيع الشخص أن يعلم حتى أولاده الدين إلا خفية، فإذا كان هو لا يعرف ذلك كيف تكون حاله؟

والشيء السار الآن أنه لا أحد من أبناء المسلمين يدخل إلى دين آخر، وإنما هو التفريط والجهل، وهذا تمكن معالجته على المدى الطويل، إذا صدقت النيات، وجدت الأعمال وأهم ذلك التربية الدينية، ومن ألزم ما يلزم لها إعادة افتتاح المدرسة الإسلامية التتارية التي كانت موجودة في هذه المدينة وصودرت.

وإذا لم يتيسر افتتاحها فإن إنشاء مدرسة صغيرة، تبدأ أولاً بالمسجد وفي باحاته متسع لبناء فصول دراسية هو أمر ممكن، وغير صعب التنفيذ، وقد ذكرنا لنا أن من أهم ما يلزم لهم تعيين إمام شاب نشيط لكي يقوم بهذه الأعمال، وقد وعدناهم أن نتصل بالشيخ المفتي طلعت تاج الدين مدير الإدارة الدينية للقسم الأوروبي وسيبيريا من الاتحاد السوفيتي بأن يعين لهم الإمام المطلوب، ونحن سنتكفل بدفع راتبه، وبالمساعدة على تجهيز المدرسة.

نُسلِم المَعونة:

اجتمع الحاضرون من المسؤولين عن المسجد في مكتب الإدارة في المسجد، وهم خمسة فيهم الإمام الأخ (مناسب)، والمؤذن الأخ (نظيف)، ورئيس المركز الثقافي التتاري الأخ فريد، وقد سلمناهم عشرة آلاف دولار أمريكي نقداً، فكان سرورهم بالغاً، بل كان تأثرهم غامراً بهذه المعونة السخية التي لم تكن أمنياتهم تصل إليها، وقد قالوا لنا وهم يكادون يكونون: إننا كنا في غاية الحزن قبل وصولكم، فالمسجد نرى الخطر يتهده، ونحن عاجزون عن دفع ذلك الخطر عنه، وقد طرقتنا كل الأبواب فلم تستجب لطرقتنا، وحالة المسلمين المادية تسوء، مما جعلنا لا نشعر حتى بمجرد الأمل، لأن سوء الحالة الاقتصادية قد شملت الجميع.

وخيل إلي وأنا أسلم الآلاف العشرة من الدولارات الأمريكية إليهم أن أحدهم قد غلبه التأثر، فقطرت قطرات من دمعته على تلك النقود، وأخذ الأخ نظيف يقبل هذه النقود ويحمد الله تعالى ويشكره.

وهذه الآلاف العشرة من الدولارات هي مبلغ قليل في بلادنا، ولكنها كثير جداً بالنسبة إليهم، لتدني قيمة عملتهم الوطنية التي هي الروبل، وتدني الدخول إلى درجة أصبح فيها راتب المرء منهم لا يكاد يكفي للخبز إذا كان رب عائلة، لأن ثمن الخبز قد تضاعف عدة مرات.

وهذا المبلغ يكفي -حسبما ذكره- لترميم المسجد بمعنى وقايته من الخطر الذي يتهده من طغيان الرطوبة عليه والإضرار به، كما يكفي لإصلاح المنزل الخشبي الملحق ببيت الإمام في فناء المسجد.

وقد قلنا لهم: إننا نرجو منكم أن تخبروا الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد

السوفيتي، ونحن سنخبره أيضاً، لأنه مسؤول بحكم منصبه عن ذلك، وأن تخبروه بمراحل التغيير، وأن تسارعوا إلى ذلك حتى لا يتطرق الخلل إلى المسجد^(١).

وأخبرناهم أيضاً أننا على استعداد للمساعدة في تعمیر منارة المسجد؛ سواء أكان ذلك بإعادة بنائها في مكانها الأول إذا كان البناء يتحملة، أو بإقامتها على الأرض، ولكن موضوع بناء المنارة ليس له طابع الاستعجال، ونحن على جناح سفر نحتاج فيه إلى ما تبقى معنا من نقود لإخوانكم المسلمين في منغوليا الذين سنتوجه إليهم بعدكم وإلى ما بعدهم. وقد قدروا عملنا هذا وأعظموه، وأكثروا من الدعاء جزاهم الله خيراً.

وعلقت على ذلك قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى قد علم حسن نيتهم وإخلاصهم في العمل للمسجد، فقيض لهم إخوانهم الذين جاؤوا إليهم من مهابط الوحي منطلق الرسالة المحمدية من مكة المكرمة بهذه النقود التي تكفي للعمل من دون من ولا أذى، لأننا في رابطة العالم الإسلامي لا نعتبر ما نقدمه للإخوة المسلمين أمثالهم صدقة أو معروفاً نريد منهم أن يشكروه أو ينشروه، وإنما هو تعاون على فعل الخير عملاً بقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وهو جزء من القيام بالواجب الذي يجب علينا القيام به.

(١) تابعنا بقدر استطاعنا بعد ذلك ما فعلوه بهذه المعونة، فتبين لنا أنهم لم يصرفوها في محلها، بل أبقوها عندهم، بعد أن غيروها إلى (روبيلات)، وصارت الروبيلات تنزل قيمتها بالنسبة إلى الدولار! وهذا أمر مؤسف لا نستبعد أن يكون بعضه مقصوداً من الشخص الذي استلم النقود منهم بحضور الجميع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مأدبة نارية:

كان الإخوة البنغاليون الساكنون في المسجد قد أخبرونا أنهم صنعوا طعاماً، وأنهم يدعوننا إلى أن نتغدى معهم، فأخبرناهم أن الإخوة التتاريين قد دعونا على الغداء اليوم، فقالوا: إننا طبخنا لكم زيادة عما كنا نطبخه لنا، فقال أحد الإخوة المرافقين: إنه يمكنكم أن ترسلوه إلى الإخوة التتاريين ظناً منه أنهم سيدعونهم للغداء.

وقد أحضروا الطعام الذي طبخوه، فإذا به أرز وبيض، فتقبله التتاريون ووضعوه على المائدة.

كانت المأدبة في بيت مؤذن المسجد ونائب رئيس لجنته (نظيف بن رحيم شاه)، وهو بيت من الخشب مثل سائر البيوت القديمة في هذه المنطقة، ولا تزال معظم بيوت الأرياف والقرى، بل وحتى المدن تقام من الخشب.

دخلنا إليه فقابلنا الدفء عند بابه، لأنه مدفأ بقوة، وقد دخلنا مباشرة إلى إحدى غرفه، ومنها دخلنا إلى غرفة أخرى قد نصبت فيها مائدة عليها مقدمات الطعام مغطاة، مع أنه لا يوجد الآن ذباب ولا حشرات بخلاف الصيف في هذه البلاد، فإن الحشرات فيه تكون كثيرة كثيرة مفرجة في ذلك الفصل.

لحم الخيل:

كان نجم المائدة الذي سررنا لرؤيته (لحم الخيل)، فهم في هذه البلاد مثلهم في ذلك مثل أهالي تتارستان وبلاد القازاق يأكلون لحوم الخيل ويشربون ألبانها.



على مأدبة الغداء التي أقامها نائب رئيس جمعية المسجد وإمامه
كذلك الأخ نظيف بن رحيم شاه في بيته في المسجد، وهو في
يمين الصورة بجانبه زوجته

ولاحظنا أن لحم الخيل هذا لا شحم فيه، وهذا من مزاياه عندنا،
لأنه صار هبراً خالصاً، وما شبهته إلا بلحم البعير الذي ليس فيه كثير
شحم.

وبهذه المناسبة سألتهم عما إذا كان لحم حصان أو رمكة، وهي
الأنثى من الخيل؟ فذكروا أنه لحم حصان، وذلك أننا في بلادنا نفرق في
لحم الإبل بين لحم الجمل ولحم الناقة، فلحم الناقة ألين تحت الأضراس،
وهو ينضج قبل أن ينضج لحم الجمل، إلا إذا كان الجمل صغير السن.

على أن بني قومنا كانوا في القديم يأكلون لحوم الإبل، وقلما

يدققون في ذلك، لأن حاجتهم الشديدة إلى أكل اللحم تفرض عليهم أن يأخذوا بالمثل القديم: «كل البقل ولا تسأل عن المبقلة»، ولحم الخيل هذا هو اللحم الوحيد على المائدة، فلا لحم غيره، وهو لحم نفيس عندهم، ولكن المائدة كانت حافلة بأنواع أخرى من الطعام الشهي، منها أرز بالزبيب لذيذ الطعم، أمعنا فيه أكلاً لكونه يشبه الأرز الذي نصنعه في بيوتنا، وبيض مسلوق كثير، وزبيب وحده غير الزبيب الذي مع الأرز، وعسل من العسل الصافي الذي ينتج في الأماكن الدفيئة من هذه البلاد، ونوعان من الزبد، وكذلك الخبز نوعان: نوع يشبه الخبز الإفرنجي (التوست)، وآخر يشبه الخبز التركي الغليظ.

وقد أكثرنا من الطماطم مع أنها مستوردة غالية، فكانوا يقطعون الثمرة ويقدمونها على المائدة فيأكلونها كما يأكلون الفاكهة، وبعضهم يعتبر الطماطم نوعاً من الفاكهة، لا سيما أنها في هذه البلاد الباردة من بلاد ما وراء النهر تكون موسمية لا توجد في كل الأوقات.

وكان مع المائدة أكواب مترعة من الشاي الذي تعاقب على المائدة.

كانت زوجة مضيفنا الأخ (نظيف) هي التي تتولى خدمة المائدة، فتحضر الطعام، وتأخذ الأواني الفارغة لتعيد ملأها.

وذكر الأخ نظيف أن له ولزوجته ثلاث بنات وابناً واحداً.

ولاحظنا أن زوجته أفصح منه في لغتهم التتارية حسبما فهمه أخونا وزميلنا في السفر الأستاذ (رحمة الله بن عناية الله) الذي يتقن اللغة التركية، ويعرف اللغات المتفرعة عنها، ومنها اللغة التتارية، غير أنه قال: إنه يفهم منهم بصعوبة، لأن أكثرهم ضيعوا لغتهم التي يعرفها كما ينطق بها في تتارستان في الوقت الحاضر.

كان من الذين حضروا المائدة الفريدان: (فريد بن غريب جان) سائق سيارة الأجرة، و(فريد بن سليم جان) المرافق الذي يشغل وظيفة لا بأس بها في هذه المدينة.

وقد قالت زوجة مضيفنا الأخ نظيف تعاتب فريد السائق: إنني لم أرك منذ سنوات، كأنها تعاتبه على كونه لا يحضر الصلاة معهم، بعد أن كان يفعل، ففاضت دموعه، بل أجهش بالبكاء وقال لها كلاماً لا ندري معناه.

ومعلوم أن نساءهم يحضرن الصلوات الخمس في المسجد مثل الرجال، ولهن مصلى مفصول عن مصلى الرجال بحاجز من القماش كما تقدم، ولكنهن من المسنات القليلات العدد مثلهن في ذلك مثل الرجال، وزوجة مضيفنا هي مسنة مثل زوجها الذي هو متقاعد عن العمل منذ فترة.

ثم اندفعت هذه الأخت المسلمة تتحدث عن أحوال المسلمين في هذه البلاد، فكان مما قالت: إن ألزم ما يلزم لنا إمام شاب يؤم الناس للصلوات في المسجد، ويذكرهم ويرشدهم، ويذهب إلى مساكنهم، ومحلات إقامتهم ليحثهم على حضور الصلوات، وجمع التبرعات للمساجد، لأن الإمام الحالي هو كبير السن، ومعرفته بأمور الدين محدودة، مع ملاحظة أنه لم يكن حاضراً معنا.

ماذا يسكنون في إيركوتسك؟

قالوا: نحن نسكن هنا رغم البرد، لأننا أولاً ليست لنا مساكن في أي مكان آخر، لأن السياسة الشيوعية التي كانت متبعة في الاتحاد السوفيتي، ولا تزال، هي ألا يكون للإنسان أكثر من بيت واحد في كل الاتحاد السوفيتي، وحتى ذلك البيت الواحد يكون محدود المساحة من

الصفب أن يستطيع صاحبه أن يستضيف فيه معه أحد أقاربه أو أصدقائه، وبخاصة في المدن، حيث يستحيل ذلك، لأنهم يخصصون لسكن الفرد أمتاراً معينة محدودة هي تسعة أمتار مربعة في (لينين قراد) مثلاً، ولا تزيد في أي مكان من الاتحاد السوفيتي على ١٣ متراً مربعاً، ولا تنقص عن ستة أمتار مربعة.

وعلى سبيل المثال إذا ما تزوج شخص كان له الحق في أن يطلب من الدولة أن توجره بيتاً له ولزوجته في حدود الأمتار المحددة لفردين تتراوح بين ستة عشر متراً مربعاً للثتين، وذلك يمثل غرفة واحدة مساحتها أربعة أمتار في أربعة، أو ٢٦ متراً مربعاً حداً أقصى، ولا يدخل في هذه المساحة ما يحتاج له البيت من مرافق، كالحمامات والمطابخ، فهي تكون مشتركة لعدد من الغرف، إلا إذا كان المكان شقة كبيرة من أجل كبر العائلة، فإنها تكون في داخل الشقة، ولكنها تكون مكاناً واحداً ضيقاً لا يتعدد، فلا يكون في الشقة حمامان مثلاً.

قالوا: وأما في الريف فإن الأمر أوسع من ذلك، إذ يستطيع الفلاح أن يبني له في أرضه المحدودة المساحة بيتاً من الخشب، يمكن أن يزيد على تلك المساحات المقدرة في المدن، ولكنه في الغالب لا يتجاوز ذلك كثيراً، لأنه يخشى أن تنتقص أرضه التي يعيش منها لأنها محدودة المساحة.

وبخصوص السكن في إيركوتسك الآن، فإن ذلك إضافة إلى ما ذكر لكونها ذات مستقبل اقتصادي مرموق، ففيها معادن كالنفط والحديد، وفيها صناعات (بتروولية)، إضافة إلى الغابات والمراعي والثروة الكبيرة من الأخشاب.

إلا أنهم قالوا: إنه بالنسبة إلينا نحن التتار، فإنما نطمح إلى العودة

إلى بلادنا الأصلية، ولكن بعد أن تتوفر لنا أمور لا تتوفر الآن.

ومن الغريب بالنسبة إلينا أنهم ذكروا أنهم لا يعتبرون أن هذا البرد الشديد مشكلة كبيرة، فهم يقولون: إننا نسير على الثلج، ونخزن علف المواشي مثلما نخزن طعام الأناسي من الصيف وأوقات الاعتدال للشتاء الثلج.

كانت المأدبة سخية لذيدة، وبخاصة بالنسبة إلى حالة إخواننا المادية في هذه البلاد.

وبعد الغداء عدنا إلى رؤية مرافق المسجد مرة ثانية، ومنها الطابق الأرضي الذي يخشى أن ينهار من الرطوبة، وقد رأينا أثر ذلك في محرابه، لأن له محراباً كمحراب الطابق الأعلى الرئيسي من المسجد.

ثم تجولنا على أقدامنا في الحي الذي يقع فيه المسجد على شارع (كارل لالريك لب نختا)، وذكر أن هذا اسم ألماني لأن هذا الحي كان مأهولاً بالألمان الذين كان ستالين قد أجلاهم إلى هذه المنطقة من سيبيريا، غير أنهم تركوها عائدين إلى مواطنهم الأصلية في الاتحاد السوفيتي بعد ذلك.

كانت الشمس مشرقة والجو ديفيء، إلا أن الظل لا يزال بارداً من أثر برودة الليل، وما شبهته إلا بأيام الشتاء الباردة في نجد.

ولقد عجبت من وجود هذا الجو القاري هنا رغم الأمطار في الصيف، ورغم هذه المقادير الضخمة من المياه الموجودة في البحيرة المجاورة للمدينة بحيرة (باي كل)، وإن كانت المدينة تقع على مسافة منها وليس على وسطها، مع أن هذه البحيرة مشهورة بطولها وامتدادها أكثر من عرضها، فقد علمنا أن متوسط عرضها هو نحو ٣٤ كيلو متراً، وذلك المتوسط بعيد عن مدينة (إيركوتسك) هذه، أما طولها فإنه يبلغ ١٨٠٠ كيلو متراً

وقال أحدنا: ربما كان السبب في هذا الجو القاري أن البحيرة تتجمد، فتصبح وما حولها كأنها الصحراء الثلجية، ولكن هذا وجه، والوجه الآخر بعد المنطقة عن البحار والتيارات المائية الدفيئة التي تكسر حدة الجو الجاف إلى رطوبة!

العودة إلى قلب المدينة:

كانت الساعة قد قاربت الرابعة ظهراً، فغادرنا منطقة المسجد قاصدين قلب المدينة من أجل أن نهاتف صاحبنا الأخ (قادر سيراني) رئيس الجمعية الإسلامية في منغوليا لنخبره بموعد قدومنا من (إيركوتسك) إلى (أولان باتور) عاصمة منغوليا غداً.

وكانت السيارة التي معنا هي سيارة الأجرة التي يسوقها الأخ المسلم (فريد)، فالإخوة أفقر من أن يتطلعوا هم وأمثالهم من أهل البلاد من روس وغيرهم إلى امتلاك سيارة خاصة، والمسجد أيضاً لا تستطيع إدارته أن تحصل على ما يكفي لشراء سيارة تستخدم في حاجات المسجد، بل إنها لم تستطع حتى الحصول على ما يكفي من المال لدرء الخطر المحدق به كما سبق.

ذهبنا إلى قلب المدينة حيث مكتب الهاتف العمومي الذي يمكن منه أن يهتف المرء بالبلاد الخارجية الداخلة في الاتحاد السوفيتي، أو التي كانت تدور في فلكه مثل منغوليا، فألقيت نظرة أخرى على هذا القلب الذي قد يصح أن يسمى القلب التجاري للمدينة، لولا أن المدينة ليس فيها تجارة كما نفهمها نحن في البلدان ذات الاقتصاد الحر، وإنما يشتمل هذا القلب التجاري على المحلات التجارية التي تباع فيها الحكومة على المواطنين البضائع، ولا تشتري منهم فيها شيئاً، وإنما تحضر ذلك من المخازن التي تردها البضائع من المصانع والمؤسسات الحكومية وشبه الحكومية.



شارع في قلب مدينة إيركوتسك

ومبانيه من الإسمنت، أو هي ذات مظهر إسمنتي، وقد يكون داخلها
الآجر أو نحوه.

ورأيت طائفة من الناس قد تجمهروا في موقف للحافلات، فالتقطت
لهم صورة.

ولاحظت أن هذا القلب من المدينة الذي يعتبر أفخر جزء فيها هو ذو
أرصفة إسمنتية، ألا أنها متغيرة من قسوة البرد وشدة الثلج الذي يجللها وقتاً
طويلاً، أو هذا هو ما تبادر إلى ذهني في حالة هذه الأرصفة الكئيبة المنظر.

ويظهر أن القوم قد أعجبهم هذا الجو الدافئ الشامس الذي علمنا
فيما بعد أنهم لم ينعموا به إلا منذ ٣ أيام، وكان الجو قبله ثالجا، لذلك
رأيت طوائف من كبار السن منهم قد جلسوا فوق مقاعد خشبية كثيرة

موضوعة في الأرصفة العريضة، وفي الأماكن المتسعة التي كانت حدائق، ولكنها الآن أعواد يابسة، وإن كانت ستعود إلى خضرتها ونضارتها بعد حين قريب.

بل إن المرء ليعجب من كون كثير منهم قد جلسوا في مقاعد الحدائق، وهي على هذه الحالة التي لا يفرق بينها وبين بطن الشارع إلا هذه الأشلاء الرمادية من الفصون والأخشاب، فكأنهم الذين ذكرهم المثل العامي السائر «يغمسون على محل الإدام».



شارع في القسم الحديث من إيركوتسك في سيبيريا

ولاحظت أنني إذا سرت وحدي قصدني أناس منهم كأنما يستجدون، مع أنني قد حذرني أصحابي من النشالين والمنتهبين الذين كثروا في هذه الفترة الانتقالية في تاريخهم، وذلك أن أصحابي كانوا

دخلوا إلى مبنى الهاتف، وبقيت وحدي في السيارة لأتمشى حولها ومعني مصورتي، أحاول أن أجد لها صيداً، غير أنني كنت أعود مسرعاً إلى السيارة وأغلق زجاج نوافذها.

والغريب أنني إذا كنت وحدي بادرنى بعضهم بالسؤال والاستجداء (الشحاذة)، أما إذا كان معي أصحابي من أهل البلاد فإنهم لا يفعلون ذلك. والمدينة كئيبة المنظر في هذا الوقت من السنة، يعجب المرء من كونها كذلك، ومع ذلك تجد من يرغب في سكنها وكأنما ضاقت البلاد بهم، إلا أن الأمر كما سبق أن قدمته من صعوبة العثور على مسكن أو وظيفة في الاتحاد السوفيتي في هذه الظروف الاقتصادية الصعبة التي نجمت عن التحول من الشيوعية في اتجاه الرأسمالية.

إلى خارج المدينة:

مرة أخرى خرجنا إلى خارج مدينة (إيركوتسك)، ولكن من جهة غير الجهة التي ذهبنا إليها في المرة السالفة، فكان من أول ما رأيناه في الطريق جسر مقام على لسان من البحيرة كأنه النهر الكبير.

ثم وقفنا عند محطة القطار، والقطار له أهمية كبيرة في هذه البلاد الواسعة، وهو الوسيلة الأكثر شيوعاً للفقراء، بل يكون وسيلة الانتقال الوحيدة المتيسرة لهم، مثلهم في ذلك مثل أهل الهند الذي تعتمد العامة منهم على الانتقال بالقطارات، رغم ما تحتاج إليه من وقت طويل، وعلى سبيل المثال فإن الانتقال بالقطار من مدينة موسكو إلى مدينة (إيركوتسك) هذه يستغرق خمسة أيام بلياليها، وهو إلى ذلك ممل، لأنه يقطع سهوباً متشابهة يكاد يخيل للذي يسير فيها أنها لانهاية لها.

هكذا حدثنا من ركبوا فيه من إخواننا، وبخاصة إذا قارن المرء بين السفر فيه والسفر بالطائرة الذي لا يستغرق إلا ست ساعات إلا ربع مع الراحة في الركوب، ولكن الحاجة هي التي قد تلجئ بعض الناس إلى السفر بالقطار.

ومع ذلك رأينا أفواجا من القادمين بالقطارات قد انتظموا في صفوف في انتظار الحافلات، وبعضهم قد جاء بلا شك من أماكن قريبة.

وقد تعود الناس هنا على الصفوف الطويلة المملة (الطوابير) حتى في الدخول إلى الحمام عندما تكون الحمامات مشتركة بين عدة مساكن من المساكن الصغيرة التي تكون على هيئة صفوف من الغرف.

وقد ذكروا لنا هذه النكته التي تروى عن الطوابير الغربية، وهي أن أحدهم نزل عليه ضيف فاحتاج إلى دخول الحمام، فوجد عند بابه (طابوراً) من المنتظرين، فما كان من مضيفه، إلا أن جعل يرجو ويلح في الرجاء على الواقفين في الطابور أن يؤثروا ضيفه بدخول الحمام، فيسمحوا له بأن يدخل قبلهم !

وعندما رأيت هؤلاء الواقفين المعذبين في انتظار الحافلات، لأنهم ليسوا ممن يملكون السيارات، ذكرت المثل الذي يضرب في الشقاء بفقراء اليهود الذين لا دنيا لهم ولا آخرة.

أما القطارات في المحطة، فإنها كثيرة العدد، وبعضها ذات منظر جيد.

نهر أنغارا:

يخرج من هذه البحيرة نهر كبير يسمى (نهر أنغارا)، وهو عريض جم المياه، يقع جزء من البلدة على ضفته، وقد وضعوا حاجزاً على جزء من

ضفاهه كالسور الذي يحمي الصغار وغيرهم من السقوط فيه، ومما ينبغي أن يذكره المرء أن السقوط في هذه المياه ليس كالسقوط في المياه ذات الحرارة المعتادة، إذ الماء البارد الذي يكون هنا قد يميت من يسقط فيه، إذ يتجمد الدم في عروقه فيموت، وتظرف أحد أعضاء وفدنا حيث قال: إنه لم ير في هذه البلدة جميلاً إلا شيئين؛ أحدهما نهر أنغارا هذا، والثاني: فتياتها اللاتي كان البرد قد لسع خدودهن فزادهن رونقاً على رونق، ثم جاءت الشمس القارية فأكسبتهن سمرة ندية تميل للحمرة لا إلى الكدرة!

على ظهر البحيرة:

طلبنا من الإخوة المرافقين أن نذهب في نزهة على ظهر البحيرة الغنية بحيرة (باي كل)، وأن نستأجر قارباً لذلك، فذكروا أنه لا توجد قوارب سياحية تؤجر للتنزه عليها في البحيرة إلا قوارب صغيرة غير مريحة.

قالوا: وإنما توجد عبارة صغيرة مريحة تطوف بالموانئ المنتشرة على ضفاف البحيرة، تنقل الناس ما بينها وبين المدينة، وما بين بعضها وبعض، وهذه ليست موانئ حقيقية كبيرة، ولكنها مراسٍ لهذه العبارة وأمثالها تلتقط الساكنين قريبا، قالوا: ونستطيع أن نقطع فيها تذاكر رخيصة تجول بنا على عدد من شطآن هذه البحيرة، ثم تعود بنا إلى حيث بدأنا.

دفعنا الأجرة - ونحن خمسة - ما يعادل خمس دولار، أي ٢٠٪ من الدولار على حد تعبير كتابنا المحدثين، لأن أجرة الشخص الواحد هي ستة روبلات، والدولار يصرف بمائة وخمسين روبلاً كما تقدم.

وقد دفعنا الأجرة إلى الجابية، وهي عجوز من الروسيات الغليظات اللاتي عرفناهن يعملن في الوظائف السهلة.



تذكارية على الباخرة في مياه بحيرة باي كل قرب الشاطئ

الطلاب العرب في إيركوتسك:

كان أول ما استرعى أسماعنا في هذه العبارة أن سمعنا أصواتاً
 جهورية باللغة العربية، فإذا بها لطائفة من إخواننا الطلبة العرب في هذه
 المدينة، وهم أربعة من الفلسطينيين.

بعد التحية في هذا اللقاء غير المنتظر أخبرونا أن عدد الطلبة العرب
 في المدينة كثير، ذكروا أن الفلسطينيين وحدهم يبلغ عددهم خمسمائة
 طالب، وأن هناك مائتي طالب عربي آخرين، وأن هناك ٢٠٠ طالب من
 المسلمين غير العرب.

وهذا كما ترى عدد غير قليل من الطلبة المسلمين، وقد أخبرنا الأخ فريد أن بعض الطلبة العرب يصلون الجمعة مع المسلمين في الجامع، وأنهم يأتون جميعاً لصلاة العيد.

كيف يتحملون الجو؟

انتهزنا الفرصة لسؤال هؤلاء الإخوة العرب الذين كانت أصواتهم ونحن نتحدث إليهم هي أعلى أصوات في العبارة لما للغة العربية من نبرات قوية غالبية، فكان السؤال الذي يلحّ على الذهن عن كيفية تحملهم لهذا الجو القاسي الذي يضرب به المثل في البرد والقسوة، فقالوا وكلهم من الشبان بطبيعة الحال: إن الجو قد صار طبيعياً بالنسبة إلينا، فدرجة الحرارة قد تدنت هذا العام إلى ٤٠ درجة تحت الصفر في أقصى حالاتها، أما المتوسط المعتاد للجو فإنه ما بين ٢٨ إلى ٣٠ درجة مئوية تحت الصفر، ولكن إذا كان على الشخص لباس معتاد من لباسهم، وقد شبع بطنه، فإنه لا يبالي بهذا البرد.

وهذا بطبيعة الحال بالنسبة إلى الحياة التي يحيونها في المدينة التي يتخللها الدخول إلى الأماكن الدفيئة، لأن الأمكنة هنا مدفأة، وإلا لم تمكن الإقامة فيها.

وسألتهم عن شعورهم بالصحة، فذكر أحدهم أنه لم يصب بالزكام منذ سنة ونصف، وكنت سمعت قبل ذلك من جماعة من الإخوة المسلمين أهل مدينة (أومسك) في سيبيريا أن درجة الحرارة إذا تدنت لثمانية عشرة درجة تحت الصفر وما دون ذلك ماتت جميع الجراثيم التي تصيب الإنسان والحيوان، ولذلك لا يشعرون بالزكام الذي نشعر به بالشتاء إلا إذا بقي المرء في مكان دافئ مدة طويلة.



شارع في (إيركوتسك)

الحياة البسيطة:

وسألتهم عما عايشوه من حياة أهل هذه المدينة، فذكروا أن حياتهم بسيطة غير معقدة، وتتسم بالقناعة والبساطة، فكثير من القرويين تكون له قطعة أرض مخصصة من الحكومة بمثابة الأرض التي يملكها، لأنها ملك للحكومة، ولن تخرجه منها، بل إن من حق أحد أولاده أن يرثها عنه، فيقيم فيها بيتاً له ضيقاً من الخشب، ويزرع ما حوله بالبطاطس في فصل الصيف عندما تسقط الأمطار، ثم يجمع هذه الغلة ويخزنها للشتاء، ويكون عنده في الغالب عدد صغير من الحيوان مثل بقرة أو بقرتين، فيعلفها مما تنبته الأرض غير مملوكة، ويخزن علفها للشتاء، ويكون ما يحصل عليه من سمن وزبد كافياً لإدام طعامه من البطاطس، وإذا كانت

لديه نقود زائدة فإنه يستطيع أن يشتري خبزاً لمؤنته بسعر كان رخيصاً.
قالوا: وأما الفاكهة فإنها لا تخرج مطلقاً من هذه الأرض ماعدا نوعاً
غير جيد من الفراولة يزرعونه في الصيف.

قالوا: والجو في الصيف جيد، إلا أن الحشرات الطائرة وغيرها
تكثر فيه بصفة مفرجة، حتى لا يستطيع المرء أن يأكل طعامه، أو يشرب
شرابه بصفة طبيعية من كثرتها، تقع فيه أو تضايقه.

وأكدوا أن القوم هنا ذوو تفكير محدود فيما يتعلق بالقضايا العالمية
عامة، وفيما يتعلق بالقضايا العربية، وفي الأزمنة الأخيرة بعد الحرية التي
حصلت لهم صارت التلفزة وهي مهمة عندهم منحازة إلى جانب أمريكا،
ولا تبرز إلا وجهة النظر الغربية، ومعها النظرة اليهودية.

ولذلك صارت أغلب البرامج مما يشوه سمعة العرب، ويحط من
قدرهم.

وقد ساعد على ذلك أن الشعب بعاملته لا يعرف إلا اللغة الروسية، ولا
يستطيع الحصول على مصادر المعلومات من جهات محايدة.

ولم يشكوا من سوء معاملة أو تمييز، بل إنهم قالوا إن معاملتهم
معتادة مثل غيرهم، هذا مع العلم بأنهم متميزون في المظهر كثيراً عن
غيرهم، ولا يستطيع الشخص منهم أن يخفي لونه الأسمر الظاهر السمرة،
مع أنهم لم يكونوا من العرب الأكثر سمرة، ولكن البياض الغالب على
الناس هنا، بل الشقرة في الشعور، والصهبة في الألوان هو الذي جعلهم
يبدون كذلك.

هذا وقد امتلأت العبارة بالركاب حتى لم يجد بعضهم أماكن

يجلسون عليها من الكراسي الخشبية المثبتة على ظهرها، ولم أر بينهم من السمر غيرنا وغيرفتى وفتاة من الشديدي السمرة، أظن أنهم من أهل الهند. كان من بين الركاب طائفة من الفتيات اللاتي يظهر من حالهن أنهن يبحثن عن رفقاء، وإن كان عدد الرفقاء من السياح ليس كثيراً، فكان أول من قصدن هؤلاء الطلاب العرب، وجلسن في وضع غير محتشم، وأشعل أحدهم لفافة تبغ لإحداهن، وقال يبرر ذلك وهي تتحدث معه: إنها تسألني عنكم.

وذكروا لنا أن عدد السياح قليل، وأن عدد الفتيات اللاتي يبحثن عن رفقاء قد صار كثيراً في هذه الفترة الحاضرة، ولكن الرفقاء الأغنياء، أو لنقل القادرين على إعطائهن ما يردنه من الطعام والشراب الجيد قليل.

نزهة في نهر أنغارا:

سارت العبارة التي هي في الحقيقة سفينة صغيرة، ثم وقفت في عدد من المحطات التي نزل فيها أناس وركب غيرهم حتى وصلت نهر(أنغارا) المتفرع من البحيرة الضخمة بحيرة (باي كال).

فكان مما ذكره لنا عن هذا الجزء من مياه النهر أنه يتجمد لمدة ستة شهور من السنة تبدأ من شهر أكتوبر، وتنتهي بشهر أبريل.

ولا شك في أن السبب في ذلك هو غزارة مياهه، واتصالها بالمياه العميقة من هذه البحيرة، وإلا فإننا رأينا اليوم جوانب من جوانبها غير ذات المياه العميقة متجمدة، ومما يذكر أن هذه البحيرة ذات مياه عميقة، كما سبق وأن المجرى الرئيسي للنهر لا يتجمد إلا نادراً بسبب سرعة جريانه وكونه ينبع من مياه البحيرة العميقة.

وقد ظلت العبارة تتساب في النهر في جو شامس جميل.

وقد حاذينا على البعد قلب المدينة، فرأيناها ذا أبنية متعددة الطوابق جيدة كما تبدو من ذلك البعد، بخلاف ضواحي المدينة التي مررنا بها، فهي ذات بيوت خشبية سقوفها من الصفيح والآجر، وقد أفسدتها العوارض الجوية، فغدت كئيبة المنظر، لا سيما أن جميع الأشجار فيها هامة، وليس فيها أي شيء من الخضرة ماعدا رؤوساً من رؤوس العشب الخضر، بدأت تطل من الأرض، وكأنما هي رؤوس الدبابيس الخضر، وكأنما تطل على استحياء، وهي بالفعل لا تستطيع الانطلاق في النمو كما تتطلق في الأماكن المعتدلة إلا عندما يولي الزمهير، وقد بدأ الآن يولي الأدبار.

وبعد هذا التطواف الجميل في المياه المتصلة ببحيرة (باي كال)، ونهر(أنغارا) في الجنوب الشرقي من سيبيريا، عدنا إلى فندقنا الذي يسمى على اسم هذا النهر (فندق أنغارا)، وكانت الساعة لم تصل الساعة السابعة، وكأنما نحن الآن في الظهر، لأن الشمس ساطعة وقد بقي على الغروب ثلاث ساعات، إذ الشمس تغرب هنا الآن في العاشرة إلا ربعاً.

وقد نمنا نومة الظهر، وقد يقال لها القيلولة، لولا أنه لا قائلة في هذه البلاد، وأخذنا كفايتنا من هذه النومة، وصحونا وما زالت في عمر النهار بقية.

وحالما غربت الشمس صلينا المغرب والعشاء جمعاً، ونور الشفق ساطع كما تكون عليه الحال في البلدان الشمالية، والجو صافٍ ليس عليه أي شيء من الغيم، وكأنما هو جو الرياض بالصيف.

ومن الطريف أننا شكونا من شدة الحر في هذه المدينة السيبيرية الباردة، فقد كانت الغرفة مدفأة على الدوام، مثلها مثل الفندق كله،

وليس فيها مفتاح للتحكم في الحرارة، لأن المفتاح عام للغرف كلها، وربما للفندق كله، أو لطابق منه، والجو قد زايله البرد الشديد، فغدت درجة الحرارة التي عليها الغرف الآن غير مناسبة.

وقد لاحظت أن كثيراً من الفنادق في بلدان الاتحاد السوفيتي تكون كذلك، فالتدفئة عامة، ولا مفاتيح للتحكم بالحرارة في داخل الغرفة.

محاولة دخول المطعم:

انحدرنا في التاسعة والربع ولم تغرب الشمس بعد إلى الطابق الأرضي حيث المطعم على أمل أن نجد فيه خبزاً أو ما هو حلال ولكننا وجدنا عند بابه رجالاً يمنع الناس من الدخول ولم نفهم السبب لأنه لا يعرف الإنكليزية، وليس معنا من يفهم الروسية لأن الأخ فريد سليم جان كان قد استأذن فأذننا له منذ عودتنا للفندق.

وجاء رجل روسي وجيه يريد دخول المطعم، ثم تلاه آخر فتخاصما مع الموظف الذي منعهما من الدخول إلى المطعم، حتى تلاحيا فيما فهمناه من تعابير الوجوه، وتقطيب الأسارير، وإلا فإننا لا نفهم لغتهم.

هذا مع أن المطعم تتبعث منه رائحة غير محببة، هي رائحة الطعام الذي أصابه العفن، وهي تتبعث من خلال بابه، وقد عهدنا خزن الأطعمة عندهم ليس بجيد، فهم لا يضبطون درجات البرودة على درجة معينة عند خزن الطعام، يزيدونها عندما تنقص، وينقصونها عندما تزيد، كما هي الطريقة الحديثة في خزن الأطعمة وغيرها مما يفسده الجو، هذا مع أن الجو عندهم بارد في الشتاء، بل قارس البرد، حتى يكاد يصبح في برودة الثلجة، بل إنه أكثر برودة منها في بعض الأحيان.

وقد ذكرني هذا بما قاله لي بعض الإخوة المسلمين من سكان سيبيريا عندما سألتهم عما يصنعونه إذا تدنت درجة البرودة في الشتاء إلى ٤٠ درجة مئوية؟ فقال أحدهم مماًزحاً: إننا ندخل الثلجة نستدفئ بذلك، لأن درجة برودة الثلجة هي ٢٢ درجة تحت الصفر، وبرودة الجو ٤٠ أو ٣٨ درجة تحت الصفر، فالثلجة أكثر دفئاً من الجو الطبيعي.

هذا وقد استغنينا عن طعامهم بشيء كنا نحمله لمثل هذه الحال، وهو التمر والكعك مع الشاي، وكله مما معنا حتى آنية صنع الشاي قد أحضرناها معنا من بلادنا، وصرنا نصنع فيها الشاي على الكهرباء في أي وقت نشاء.

يوم الثلاثاء ١٢/٥/١٩٩٢م

مغادرة سيبريا:

هذا اليوم هو يوم مغادرتنا سيبريا، فكان أول ما فعلناه بعد دفع الأجرة لصندوق الفندق هو تسليم مفاتيح الغرف للموظفة الروسية المسؤولة عن الطابق الذي نحن فيه، وعادتها أن تتسلم مفاتيح الغرف من النزلاء، ثم تغلق عليها خزانة خاصة تضع مفاتيحها في جيبها، وإذا أردت أن تأخذ مفتاح غرفتك فتحت تلك الخزانة بمفتاحها، ثم أخرجته وأعطتكم إياه، وذلك حرصاً على ما في الغرف.

وقد شكرناها عند مغادرتنا، وأجزلنا لها الحلوان (البقشيش) الذي لم تحلم به، لأنه ليس من عادتهم أن يعطوا العمال شيئاً من ذلك.

وغادرتنا فندقنا (فندق أنغارا) في الساعة صباحاً بصحبة الأخوين (فريد بن سليم جان)، و(نظيف بن رحيم شاه) على سيارتين من سيارات الأجرة قاصدين المطار، وقد ارتفعت الشمس قيد رمح، وبدأت حركة الحافلات تحمل الناس إلى أعمالهم، وإن كان بدء العمل في المؤسسات الحكومية لم يحن بعد.

وصلنا المطار ولم نجد في المكاتب أحداً، وعادتهم أن يخصصوا مكتباً لترحيل الأجانب خاصة، وإن كان ذلك في قاعة واحدة، ولم أرَ فيها الآن أحداً غيرنا، فصعدنا إلى مقهاة المطار في الطابق الثاني، ولم نجد فيها أيضاً أحداً من الموظفين، ولا الركاب، وكنا بحاجة إلى تناول فنجان من الشاي أو القهوة، وبلغت الساعة الثامنة والنصف ولم يحضر أي موظف من موظفي المطار، ثم جاء أحد الجنود وأمرنا أن ننزل من مقهاة المطار إلى

الطابق الأسفل الذي لم تكن فيه إلا ثلاثة كراسٍ غير مريحة، ولم يخبرنا بالسبب، وعرفنا بعد ذلك أن هذه المقهاة هي في قاعة المغادرة أي بعد الجوازات، ولم يمنعوا الناس عنها لكونهم يعرفون أنه لن تقوم طائرة قبل طائرتنا اليوم.

ثم بقينا في قاعة الترحيل التي هي صغيرة مزدحمة بالركاب، لضيقها لا لكثرتهم.

وبعد انتظار ممل بدؤوا بترحيل الركاب، وقد جاملوني فلم يسألوني عن العملة، ولا أخذوا رسماً على مغادرة المطار بسبب جوازي (الدبلوماسية)، بل إنهم لم يفتشوا حتى حقائبنا من أجل الأمن من باب المجاملة، وإلا فإنهم يشددون في ذلك على سائر الركاب.

ثم عدنا إلى قاعة المغادرة التي فيها المقهاة التي كنا فيها في الطابق الثاني، ورأيناهم عرضوا فيها نماذج للصخور المتميزة، وللمعادن الموجودة في سيبيريا، ولا شك في أن بلادنا غنية بهذه المعادن، ولكننا لم نلقها العناية الكافية بسبب عدم الحاجة إليها، اكتفاء بالنفط.

صعدنا إلى الطائرة سيراً على الأقدام، وكان الجو شامساً دفيئاً، بل هو ربيعي جميل.

والطائرة من طراز تويو ليف ١٥٤ تابعة لمؤسسة الطيران السوفيتية (أيرو فلوت)، وقد ركبنا في الدرجة الأولى من دون أن يعطونا بطاقات لصعود الطائرة، وذلك أن تذاكرنا مقطوعة على الدرجة الأولى من بلادنا.

وطلبت المضيفة الاطلاع على تذاكرنا لتعرف أنها على الدرجة

الأولى.

لم يكن معنا في الدرجة الأولى إلا راكبان، هما رجل بريطاني وزوجته، وعندما عرف الرجل أننا من عرب الجزيرة ترك مقعده وجلس بجانبني يحدثني أنه كان قد عمل في الرياض لمدة سنتين مع الحرس الوطني، وأنه الآن يعمل في منغوليا في دائرة حكومية، وأنه مرسل من الحكومة البريطانية لهذا الغرض، فسألته عن الجو في منغوليا الباردة بعد جو الرياض الحار، فذكر أن درجة البرودة تتدنّى في منغوليا إلى ما بين ٣٥ و٣٨ درجة تحت الصفر في الأيام الشتوية المعتادة، وقال: إنني ألبس كل ما لديّ من الملابس، حتى لا يبقى ظاهراً من جسمي إلا عيناوي، ومع ذلك لا أشعر بالدفء خارج المنزل.

إلى بلاد الخوار

(منقولاً)



خريطة منغوليا

جمهورية منغوليا:

كانت تعرف قبل اندحار الشيوعية بجمهورية منغوليا الشعبية.

تقع في الشمال الشرقي من آسيا.

وهي دولة مغلقة، ليس لها منفذ على البحر، رغم سعة مساحتها، إذ تبلغ مساحتها مليوناً و ٥٦٠ ألف كيلومتر مربع.

ومع ذلك فإنها ليست إلا جزءاً من بلاد المغول التي يمكن أن تسمى بصحراء المغول، لكون أكثر أجزائها صحراء قاسية المناخ، وفيرة المرعى في الصيف، وجزء منها هو ملحق بالصين باسم مقاطعة منغوليا الداخلية.

وتحيط بها الصين مع جميع جهاتها، ماعدا الجهة الشمالية، فتحدها جمهورية روسيا الاتحادية، إذ تقع على حدود سيبيريا.

وقد اشتهرت عالمياً بهذا الاسم (منغوليا) بمعنى بلاد المنغول - بإثبات النون فيها -، ولو أخذنا بالاسم العربي العريق لها لقلنا مغوليا. بل لقلنا: بلاد المغول، لأن أسلافنا من المؤرخين العرب كانوا يسمونها (بلاد المغول) بدون نون.

وقد سألت عن النطق الصحيح عند أهلها فوجدتهم ينطقون بها (منغوليا) بإثبات النون.

أما أهل الصين فإنهم يسمون المغول (مُنْ غو) جرياً على عاداتهم في تحويل الأسماء والألفاظ الأجنبية إلى مقاطع، كل مقطع مؤلف من حرفين، أولهما متحرك، وآخرهما ساكن.

ويغلب الارتفاع على هذه البلاد الصحراوية، أو لنقل البرية القارصة البرد، إذ تنزل الحرارة في عاصمتها أولان باتور إلى (٢٨) درجة مئوية تحت

الضفر في الشتاء، والمعدل الوسطي فيها ٣٠ إلى ٣٢ درجة مئوية تحت الصفر، وقد وصلنا إليها في منتصف مايو، فعانينا من بردها الأمرين، على حين كنا نتمتع في مدينة (إيركوتسك) السيبيرية بجو ربيعي ممتع.

ولذلك قال لي إخواننا من أهل منغوليا: إنه يمكن القول بأننا لا نستمتع بجو بلادنا كما يستمتع الناس ببلادهم إلا في فصل الصيف، حيث يولي البرد وينزل المطر، وتخضر الأرض، ويقبل السياح على ارتياد البلاد.

ويعتمد اقتصاد البلاد بوجه الإجمال على تربية الماشية من الخيل والأبقار والأغنام والإبل ذوات السنامين، وإن كانت هذه الإبل لا تعيش إلا في جنوب البلاد، حيث الجو أقل قسوة في البرد.

وعادتهم أن يطلقوا الماشية لترعى من اليوم العاشر أو الثاني عشر من شهر مايو إلى شهر أكتوبر من كل عام، حيث تزدهر المراعي، ثم يحبسونها طيلة فصل الشتاء، وأجزاء من فصل الخريف والربيع، ويطعمونها مما كانوا قد قطعوه وادخروه من الأعشاب والحشائش في الصيف، ويبلغ عدد المواشي في منغوليا حسب آخر إحصاء جرى قبل وصولنا إليها أربعة عشر مليون رأس من الغنم، وأربعة ملايين بقرة، ومليونين من الخيل، وسبعمئة ألف بعير من ذات السنامين، ولكن توجد روافد لتربية الماشية في اقتصادهم، ومنها الأخشاب في الشمال، والفحم الحجري الموجود فيها بكثرة.

وتعتبر المواصلات مشكلة عويصة، لأن البلاد واسعة وقليلة السكان، ولذلك يصعب الاتصال بين أجزائها المتباعدة إلا بالطائرات، وقد وجدناهم عندما وصلناها يعانون مشكلة عظيمة من عدم وجود وقود

للطائرات والسيارات، حيث ألغيت الرحلة التي كنا سنسافر معها إلى منطقة بايان أولكي التي يسكن فيها المسلمون، وتبعد نحو ألف وخمسمائة كيلو متر عن العاصمة، وذلك لعدم استطاعتهم الحصول على وقود الطائرات، ولذلك كان للخط الحديدي فيها أهمية كبيرة، وهو خط يربط العاصمة (أولان باتور) بمدينة بكين عاصمة الصين الشعبية، وسيبيريا، ومن ثم موسكو.

السكان:

سكان منغوليا، كما يدل عليهم اسمهم هم من المنغول الذين نعرفهم في كتبنا العربية بالمغول، وهم ذوو ملامح خاصة مميزة، إذا رأيتهم في بلادهم ظننت أن فيهم كثيراً من أهل تايلند، أو من أهل تركستان الشرقية، فهم وسط بين هذه الأقوام، ويتميز الوجه المغولي الأصيل بصغر العينين، واتساع الوجنتين، وضيق الفم، وقصر الأنف مع شيء في اتساعه، ويمكن إجمال ذلك بأن يظهر كما لو كان وطئه شخص قوي فاتسع من أثر الضغط عليه.

وقد ذكرت أشياء من خصائص القوم في ثنايا الحديث في الكتاب.

ويكادون يكونون جنساً واحداً خالصاً، لأن بلادهم ليست من البلاد التي يهاجر إليها، وإنما هي من البلاد التي يفر منها أهلها إذا وجدوا سبيلاً لذلك، بسبب قسوة الجو، وقلة الحاصلات الزراعية.

وأعظم دليل على ذلك خروج المغول التاريخي منها بقيادة جنكيز خان، ثم استقرارهم في البلدان التي تغلبوا عليها.

وكذلك من جهة الديانة، فالديانة البوذية هي السائدة فيهم، لا

يشركها في ذلك إلا الإسلام، ولذلك لا تعترف حكومة منغوليا إلا بدينين اثنين، هما البوذية والإسلام.

ويؤلف المسلمون فيها نحو ١٠٪ من السكان، ويقطنون في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد، وأكثرهم من أصل قازاقي.

هذا وقد عانت البلاد من قربها من الصين، فقد خضعت للصين حتى نالت الاستقلال الذاتي منها عام ١٩٢٠م، ثم حصلت على الاستقلال بمساعدة الروس، وتحولت إلى جمهورية شعبية عام ١٩٢٤م، غير أن الصين لم تعترف بها إلا عام ١٩٤٦م، لأنها كانت قد سيطرت على منغوليا منذ القرن السابع عشر حتى عام ١٩٢١م.

وقد ظلت علاقة الجمهورية السياسية مقتصرة على الاتحاد السوفيتي وحده لمدة سبعين سنة تقريباً، وفتحوا الآن سفارات محدودة العدد، منها سفارتهم في القاهرة، وهي الوحيدة فيما يسمى بالشرق وهو غرب عندهم.

ويبلغ عدد سكان منغوليا في الوقت الحاضر زهاء مليونين من النفوس، وهذا عدد قليل بالنسبة إلى مساحة الأرض التي تبلغ مليوناً وخمسمائة وستين ألف كيلو متر مربع.

اللغة:

اللغة الشائعة في منغوليا هي اللغة المنغولية، وهي لغة عريقة قائمة بذاتها، غير اللغة التركية، لا يستطيع أن يفهمها من يجيد فهم التركية.

أما القول بأنها متفرعة من اللغة التركية فهذا غير صحيح البتة، مثله في عدم الصحة القول بأن المغول هم طائفة من الترك، وهذا قال به بعض المؤرخين القدماء من العرب والفرس الذين عرفوا المغول بعد أن

اجتاحوا البلدان الإسلامية.

ذلك بأن المغول عنصر من الناس قائم بذاته، كان منعزلاً في صحرائه الواسعة، ولكن الصحيح أنه توجد في اللغة المنغولية كلمات وتعبيرات تركية عديدة، نتيجة للاختلاط الذي نشأ عن خروج المغول من صحرائهم، وحكمهم عدداً من البلدان الإسلامية، مثلما أنه يوجد شبه أو تشابه في بعض الملامح بين الترك الذين يعيشون في المواطن التركية القديمة مثل القازاق، وبين المغول نتيجة للقرب في الموقع، وللاختلاط بالزواج ونحوه، ولكن من دون أن يعني ذلك أن المغول طائفة من الأتراك، أو أن لغتهم فرع من اللغة التركية.

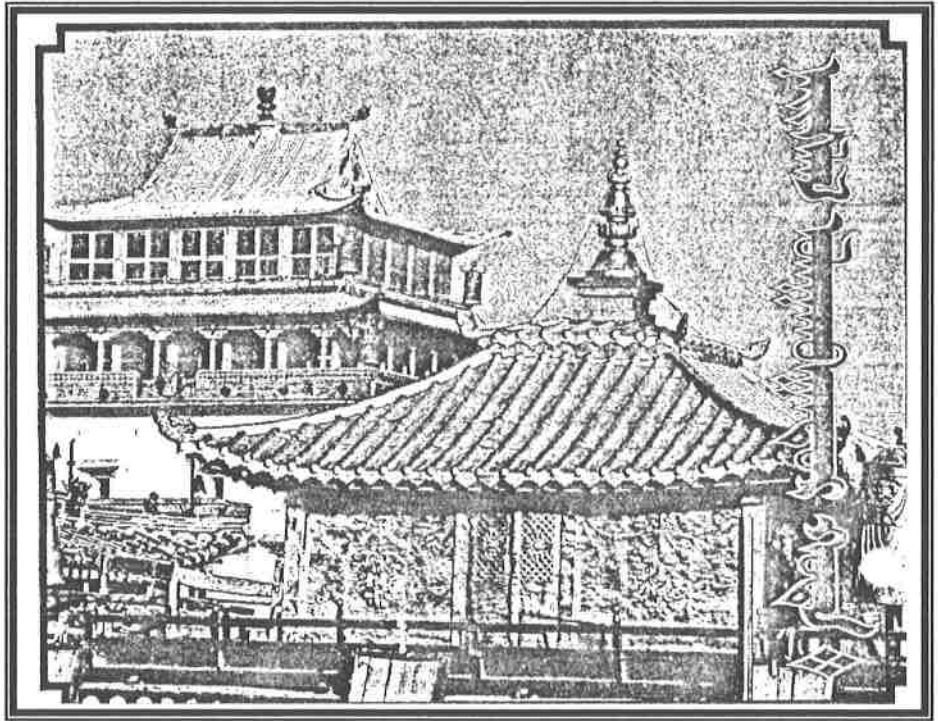
الحروف العربية في منغوليا:

تكتب اللغة المنغولية منذ أزمان طويلة بحروف غريبة، تذكر العربي منا إذا رآها بالكتابات العربية التي وجدت منقوشة في البلدان العربية التي يمكن وصفها بكونها مكتوبة بالخط الآرامي الذي تطور منه الخط العربي الكوفي.

وهذا صحيح، وإن كان غريباً، ذلك بأن الكتابة المنغولية هي الكتابة العربية القديمة، حملها النساطرة من النصارى الذين كانوا قد ذهبوا إلى تركستان الغربية في القرن الأول الهجري تقريباً، بغرض نشر الديانة المسيحية في تلك البلاد التركستانية التي لم تكن توجد فيها كتابة هجائية محلية، فأخذها أهل تركستان الشرقية من الأويغور عنهم، واستعملوها فترة من الزمن، حتى سميت بالكتابة الإيغورية، وأخذها عنهم المغول بحكم جوارهم معهم، واحتكاكهم بهم، فاستعملوها في كتابتهم.

ولما انتشر الدين الإسلامي في تركستان الشرقية ومعه الكتابة العربية المألوفة، أخذ التركستانيون بها وهجروا الكتابة الآرامية التي كانوا يستعملونها، حيث صاروا يكتبون بالكتابة العربية المعتادة، ولا يزالون كذلك حتى اليوم.

أما المغول، فأنهم بقوا على استعمال الكتابة القديمة التي تعرف بالخط الآرامي، ولا يزالون على ذلك حتى اليوم.



المعبد البوذي الكبير في (أولان باتور) عليه الكتابة بالحروف العربية القديمة (الآرامية) في أيمنه كأنها عمود واقف

MONGOLIAN SCRIPT									
الأبجدية المنغولية									
	A	B	C	D		A	B	C	D
1	ᠠ	ᠡ	ᠢ	a	15	ᠰ	ᠴ	ᠱ	s
2	ᠡ	ᠢ	ᠣ	ə	16	ᠵ	ᠶ	ᠷ	ʃ
3	ᠢ	ᠣ	ᠤ	i	17	ᠶ	ᠷ	ᠰ	t
4	ᠣ	ᠣ	ᠤ	ɔ	18	ᠶ	ᠷ	ᠰ	d
5	ᠣ	ᠣ	ᠤ	o	19	ᠶ	ᠷ	ᠰ	tʃ
6	ᠣ	ᠣ	ᠤ	o	20	ᠶ	ᠷ	ᠰ	dʒ
7	ᠣ	ᠣ	ᠤ	u	21	ᠶ	ᠷ	ᠰ	j
8	ᠣ	ᠣ	ᠤ	n	22	ᠶ	ᠷ	ᠰ	r
9	ᠣ	ᠣ	ᠤ	b	23	ᠶ	ᠷ	ᠰ	w
10	ᠣ	ᠣ	ᠤ	p	24	ᠶ	ᠷ	ᠰ	f
11	ᠣ	ᠣ	ᠤ	x	25	ᠶ	ᠷ	ᠰ	k
12	ᠣ	ᠣ	ᠤ	g	26	ᠶ	ᠷ	ᠰ	h
13	ᠣ	ᠣ	ᠤ	l	27	ᠶ	ᠷ	ᠰ	ʔ
14	ᠣ	ᠣ	ᠤ	m	28	ᠶ	ᠷ	ᠰ	ɬ

وضعتها في أول الكلمة
A = Initial position
B = Medial position
وضعتها في وسط الكلمة

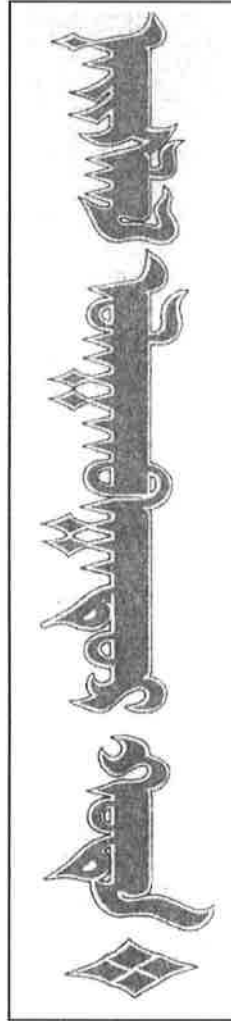
وضعتها في آخر الكلمة
C = Final position
D = IPA transcription
نطقها بالأحرف الصوتية

الأبجدية المنغولية

MONGOLIAN ALPHABET
(According to Vladimircov's Comparative Grammar)

في أول الكلمة Initial	في وسطها Medial	في آخرها Final	نطقها باللاتيني Old value
ᠠ	ᠠ	ᠠ	a
ᠡ	ᠡ	ᠡ	e
ᠢ	ᠢ	ᠢ	i
ᠣ	ᠣ	ᠣ	o u
ᠤ	ᠤ	ᠤ	o u
ᠨ	ᠨ	ᠨ	n
ᠩ	ᠩ	ᠩ	ng
ᠪ	ᠪ	ᠪ	q > ʔ
ᠫ	ᠫ	ᠫ	ʔ q
ᠮ	ᠮ	ᠮ	p b w
ᠯ	ᠯ	ᠯ	(p)
ᠰ	ᠰ	ᠰ	s
ᠱ	ᠱ	ᠱ	š
ᠳ	ᠳ	ᠳ	t d
ᠵ	ᠵ	ᠵ	ʈ ɖ
ᠮ	ᠮ	ᠮ	m
ᠨ	ᠨ	ᠨ	n
(ᠠ)	ᠠ	ᠠ	(i)
ᠠ	ᠠ	ᠠ	y
ᠲ	ᠲ	ᠲ	k g
ᠷ	ᠷ	ᠷ	r
ᠸ	ᠸ	ᠸ	v w
ᠬ	ᠬ	ᠬ	(h)

الأبجدية المغولية



الحروف العربية في منغوليا

المسلمون في منغوليا:

عندما اجتمعنا في مقر الجمعية الإسلامية في (أولان باتور) في منغوليا بحثنا مع الإخوة العاملين في الجمعية، وكلهم متعلم يحمل شهادة عالية أو عليا، ما بين مهندس وطبيب وأستاذ بالجامعة، موضوع الإسلام في منغوليا، وجرى معهم حديث عن أحوال المسلمين في هذه البلاد المغولية، وقد ضمنا إليه ما رأيناه وسمعناه بعد ذلك، فكانت خلاصة ذلك أن عدد المسلمين في كل منغوليا يبلغ ١٢٢ ألف نسمة، جلهم من القازاق، ومعهم قلة من الإيغور.

ومعروف أن القازاق والإيغور يعدون الآن من الأجناس التركية، وإسلامهم قديم، ولا يكاد يوجد بينهم من هو غير مسلم إلا من صار ملحداً أو غير متدين بدين، وأما المتدين منهم، فإنه لا يكون إلا مسلماً، على أن الذي تنبغي ملاحظته أن القازاق أقل نقاءً في أصلهم التركي من الإيغور الذين هم من سكان تركستان الشرقية الواقعة في الصين الشعبية الآن، وهي بلاد الترك الأصيلة. وأما القازاق فإنهم مختلطو الأصول ما بين ترك قديماً ومغول، أسلموا منذ القديم، أي بعد عهد جنكيز خان، ولذلك تبدو لغة القازاق أقل نقاءً في أصلها التركي من لغة الإيغور، وقد ذكرت ما يتعلق بالقازاق مفصلاً في كتاب «**حديث قازاقستان**».

وحالة المسلمين في هذه البلاد المنغولية متدنية جداً من ناحية الثقافة الدينية، إذ هدم الشيوعيون جميع المساجد عندما استولوا على الحكم، حتى لم يبق فيها أي مسجد، وحاربوا الثقافة الدينية حتى صعب على المسلمين تلقيها في البيوت، ونشروا الثقافة الإلحادية بكل وسائل النشر من التلقين في المدارس حتى الإذاعة والصحافة.

وكان للمسلمين قبل الشيوعية أربعة عشر مسجداً، وقد هدم أواخرها في أواخر سنة ١٩٣٧م وأوائل سنة ١٩٣٨م، قالوا وقتل الشيوعيون مائة وخمسين من رجال الدين المسلمين في عام ١٩٣٧م.

وقد بدءوا منذ نحو سنة ببناء مساجد جديدة بلغ عددها ستة، ولما لم يكونوا على درجة من الناحية المالية والثقافية كافية لبناء المسجد، فقد انتدبت لذلك جمعية إسلامية في بريطانيا اسمها (مجلس خدام الدين)، بدأت بناء أول مسجد في منغوليا بعد الشيوعية، سموه مسجد أبي بكر الصديق، وقد عرض رئيس الجمعية الإسلامية الأخ قادر سيراني مشاهد تلافزية مؤثرة عن البدء ببناء هذا المسجد الأول، وإقامة أهله أول صلاة جمعة فيه قبل أن يكتمل.

وقد حضر مندوب جمعية (خدام الدين) الشيخ إسماعيل بوهتا صلاة الجمعة الأولى في تاريخ البلاد، بعد أن كانت قد انقطعت طيلة الحكم الشيوعي المتزمت، وذكروا أن الجمعية رصدت لبناء هذا المسجد وغيره من المساجد في منغوليا ١٢ ألف دولار أمريكي، وذكروا أن التحضيرات الآن جارية لبناء مساجد أخرى، وبعضها بدئ به بالفعل، وهي:

- مسجد عمر بن الخطاب في راشانت.
- مسجد النور في مدينة (فلقى) عاصمة ولاية (بيان أولكي) التي يكثر فيها المسلمون.
- مسجد رقية في (بلو) في منطقة الإيغور.
- مسجد فاطمة في (بلو) في منطقة الإيغور أيضاً.
- مسجد علي في (جخزرقزي) في (التاي).

- مسجد عائشة في داخل (منغوليا).

وقد ساعدت جمعية تبليغ الإسلام في دولة الإمارات العربية المتحدة على بناء بعض المساجد الأخرى، وقال بعضهم: إنها تبرعت ببنائها، ومن الغريب أنهم لم يتقدموا إلى رابطة العالم الإسلامي بطلب المساعدة على بناء المساجد، مع أنها أكثر المؤسسات الإسلامية العالمية شهرة في بناء المساجد، ومساعدة الجمعيات الإسلامية، ومقرها مكة المكرمة، غير أنهم كانت قد انقطعت صلتهم بالعالم الخارجي كله.

وحتى بالنسبة للحج لم يحج منهم أحد منذ عام ١٩٢٦، أي منذ ٦٥ سنة، ويؤملون أن يتمكن ثمانية منهم من الحج هذا العام لأول مرة بعد ذلك الانقطاع الطويل عن الحج، وهو انقطاع امتد ٦٦ عاماً، ويروون عن آخر مرة حج فيها منهم حجاج أنها كانت عام ١٩٢٦م، وأن الرحلة استغرقت عاماً واحداً، إذ توجه الحجاج عبر أراضي آسيا الوسطى على الإبل والجياد، وكان عدد الحجاج فيها سبعة، ولم يعد منهم بعد الحج إلا واحد، أما الباقون فتوفي أكثرهم، وبقي واحد أو اثنان في الأراضي المقدسة.

وأهم ما يلزم لهم الآن افتتاح فصول دراسية في المساجد لتعليم الصغار وإرشاد الكبار إلى مبادئ الدين الإسلامي الحنيف التي صاروا لا يعرفون منها شيئاً، حتى إن بعضهم لا يستطيع التلفظ بالشهادتين لفظاً صحيحاً. كما أنه لا بد من تخصيص منح دراسية لأبنائهم حتى يتعلموا ويعودوا إلى بلادهم معلمين ومرشدين وأئمة مساجد، وأخبروا أنهم أرسلوا بعض الطلاب إلى تركيا لهذا الغرض، ومن أوضح الأدلة على ضعفهم في الدين أنه لا يوجد في العاصمة مسجد، مع أن فيها حوالي عشرة آلاف مسلم.

وقد أكد لنا رئيس الجمعية الإسلامية، وكرر ذلك التأكيد بأنه لا يوجد الآن لديهم رجل دين واحد على حد تعبيره، وهو يريد بذلك الرجل الذي يعرف الدين.

وذكر لنا أنه لا يوجد في منغوليا من أقصاها إلى أقصاها من يعرفون العربية إلا خمسة أشخاص غيره، يقول رئيس الجمعية قادر سيراني: إنه لا يوجد إلا ستة أشخاص يعرفون العربية في منغوليا أنا أحدهم.

هذا وقد نفعتنا عربيته، فكنا نحدثه بها مع العلم بأنه يعرف شيئاً من الإنكليزية، ويعرف الروسية، لأنه تعلم العربية في كلية اللغات في موسكو.

الإسلام هو الدين الثاني:

ذكر لنا رئيس الجمعية الإسلامية أن الجمعية الإسلامية معترف بها من قبل الحكومة، أي أنها مسجلة رسمياً. قال: والدين الأول في البلاد هو البوذية، وبعده الدين الإسلامي، ولا توجد أديان أخرى معترف بها، حتى المسيحية يبلغ عدد معتقيها ١٤٠ شخصاً في كل أنحاء البلاد، ولذلك تضمن دستور البلاد الاعتراف بالديانة البوذية وبالدين الإسلامي، ولم يتضمن الاعتراف بالدين المسيحي، قال: غير أن التصير الآن بعد أن سقطت الشيوعية قد اتسع في البلاد، وصار المنصرون يذهبون حتى خارج العاصمة، ويمكن أن يدخلوا عدداً من البوذيين في المسيحية، بسبب الإغراءات التي يقدمونها لمن يعتنق الديانة المسيحية، كالمناح الدراسية للشبان، والتطبيب للمرضى وغير ذلك.

وكل هؤلاء المنصرون هم من الأجانب.

وصول الإسلام إلى منغوليا:

انتقل الإسلام إلى هذه البلاد من منطقة (آلتاي تركستاني)، وهناك مدينة (قوبدا) في غرب (آلتاي)، التي أصبحت يتركز فيها دين الإسلام في القرن التاسع عشر، نتيجة أعمال الدعوة التي قامت بها نخبة الدعاة المحليين، ومنهم (حزرت مومن إيسان) وغير المحليين من الحضرات الدينية التتارية، وجهات أخرى، الذين قاموا بنشر العلوم الدينية.

وأما أهل (آلتاي منغولي) فهم المسلمون الـ (آباقر) الذين كانوا يبنون المساجد والمدارس، ولذا تغيرت حياتهم وثقافتهم إلى مرحلة جديدة إثر نشر الإسلام.

ولقد احتفظ التاريخ باسمين من أسماء رجال الدعوة، وهما (مامي)، و(أقيت أليتشى أولى) اللذان تحت إشرافهما كانت تبنى المساجد والمدارس، وتنظم دراسة الأولاد فيها، ومن (بخارى)، و(طشقند)، و(سيمائي) كان يأتهم علماء الدين ومدرسو علوم أخرى.

(حزرت مومن أيشان) - المذكور - قام بتنظيم نقل الحجاج من بين سكان مدينة (أومسك)، و(سامارا)، و(أودسا) على مبلغ كبير في ذلك الزمن ما يبلغ إلى ٧٥٠٠٠ روبل، ولقد ضيفهم أثناء طريقهم إلى مكة السلاطين الأتراك.

وبعض رجال الدين، ومنهم (باردام)، و(أورازباك)، و(لائيك) دعوا (أقيت) إلى الإقامة ببلادهم من أجل تعليم أهلها وما حولها للدين، ولقد استجاب الأخير لدعوتهم، وكذلك عمل في الدفاع عن الإسلام على أساس العلوم المدنية، وكانت له كتب كثيرة، بعضها لم يدركها تماماً أحد حتى الآن، وهي التي بثت الإسلام في منغوليا من خلال صفحاتها.

وفي سنة ١٩٠٨ كان (أقيت) يؤدي حجه، وكان هناك أئمة قازاقيون من طائفة قائمة بمنغوليا، وكان لهم نشاط في الدعوة كذلك.

لقد حاول الأعداء إيقاف نشر العقيدة الإسلامية، فمثلاً في سنة ١٩١١ م أجبرت ٤٠٠ أسرة مسلمة، على الدخول في البوذية، ولكن المسلمين استمسكوا بدينهم، فأذنوا بالحرب، فعندئذ هاجرت مجموعة الأسر المذكورة إلى أعماق روسيا.

ولما وصلت الشيوعية إلى هذه البلاد وجه دعاة الله بالنداء إلى قومهم للثبات على الإسلام، ولقد اغتصب الشيوعيون أموال أغنياء من المسلمين، وفقدوا قدرة مقاومتهم.

في سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ م خرج سبعة رجال من المسلمين (آلتاي) إلى الحج، ولم يعد منهم إلا واحد واسمه أبو بكر حاجي، وعلى نفس الطريق في سنة ١٩٢٨ حاولت مجموعة أخرى أن تحج فما استطاعوا، ونقول: إنه من ذلك الحين وإلى سنة ١٩٩٠ ما أدى حجه أي أحد من مسلمي منغوليا.

وفي سنة ١٩٣٠ م تم تشييد سبعة مساجد في منغوليا على أيدي مسلمين قازاق.

وفيما بين ١٩٣٧ - ١٩٣٩ اشتد ظلم الشيوعيين للمسلمين نتيجة مظاهرة غير رسمية، فقتل ٣٢٧٠ مسلماً من ٢٣٢٢٩ مسلماً منغولياً، ومنهم من كان عالماً أو داعية، أو لهم شبه الصلة مع الشيخ (أقيت) إذ ذاك، ودمرت المساجد والمدارس، وأما أهل (قوبدا) فلقد قتل كثير منهم بدون سبب.

عند إحصاء العدد الإجمالي لسكان منغوليا، وتصنيفهم كان موجوداً فيها ١٢٧٦ إماماً، ولم يرحم الشيوعيون منهم إلا القليل، وقُضي

على بقيتهم بالإعدام.

واسترهدت الناس فأخفوا إيمانهم، ولذلك في الفترة من ١٩٤٠-١٩٦٠ ما كان مفتوحاً إلا مسجد واحد فقط، الذي يقع بمدينة (أولغاي).

لقد استمر عدوان (الحزب الشيوعي الشعبي) ضد جميع أديان منغوليا لمدة سبعين سنة، وعلى وسائل شتى، ومنها نشر الكتب مع الافتراء على الإسلام وشتمه والكذب عليه.

وفي سنة ١٩٧٠ م تكررت حملتهم على المسلمين، ومن ثم انفصلت جميع العلاقات بين مسلمي القازاق والمغول، وقد أصدر الحزب المذكور عدداً من القوانين في مكافحة كافة ظواهر الإسلام من أجل إزالته في أعين الناس، ومنها إفشاء ترويج الأغذية المصنوعة من لحوم الخنزير، والمشروبات المسكرة، وحرم على المسلمين أداء جميع العبادات الإسلامية.

ولقد تحملت أمة المسلمين في تلك المناطق أذى كثيراً، أكثر مما تشير إليه شواهد التاريخ، ومع ذلك احتفظ المسلمون بدينهم إلا قليلاً منهم، فتعدوا على حدود الله بعدما أزال عقولهم طغاة الدعايات المادية والإلحادية.

وهناك رجال جاهدوا واجتهدوا، وأخذوا العلم الإسلامي الصافي من أصوله، ودعوا قومهم إلى توحيد الله، فتوجهت الأمة إلى نهاية الظلمات حيث نور الله، وصارت تحتاج إلى إيجاد العلاقات الشاملة بينها وبين سائر الشعوب الإسلامية المتأخية في الله، ومن ذلك التعاون معها في مختلف مجالات الحياة بإذن الله.

عود إلى المشاهدات

من إيركوتسك إلى أولان باتور:

قامت الطائرة في الحادية عشرة إلا ربعاً متأخرة ساعتين إلا ربعاً عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل وهو التاسعة، وأعلنوا أن الطيران من (إيركوتسك) إلى (أولان باتور) عاصمة منغوليا سيستغرق ساعة واحدة.

عندما أقلعت الطائرة صارت تطير فوق أرض جافة تماماً، لا شك في أن البرد جعلها تبدو كذلك، وحتى المنازل قد بدت من الطائرة كئيبه كأنما نثر عليها الرماد.

ورأيت أطراف بحيرة (باي كال) وبخاصة شعابها لا تزال متجمدة كلها، وعجبت كيف لم تذب أمس، واتضحت المنطقة التي تقع بقرب مدينة (إيركوتسك) منطقة تكثر فيها القرى والمنازل، وظهر امتداد البحيرة من تحت الطائرة كبيراً كأنما لا نهاية له.

ثم صرنا تطير فوق أرض ثالجة تماماً، وفيها مناقع مياه متجمدة كلها، وربما كان ذلك لكون هذا المنطقة أعلى من غيرها، ولم أكن أبصر من الطائرة أي مكان تبدو فيه التربة، بل كلها قد غطاها الثلج بأغطية بيض.

وهناك تلال جبلية غير عالية كلها قد غطتها الثلوج، مما يجعلها تبدو مقفرة موحشة.

ثم وصلنا إلى منطقة جبلية شبيهة باللون من الثلج، مما ذكرني بالمثل العامي عندنا الذي يصف الشتاء وقشفه بأنه أشهب، فيقول: نحن شبهة الشتاء، أو يقول: شتاء أشهب، لا يريدون من ذلك أن فيه تلجاً بطبيعة الحال، لأن الثلج لا ينزل عندنا، وإن كان قد ينزل الصقيع، ولكنهم

يريدون أن كل شيء في الأرض ميت من البرد، فليس فيها خضرة، كما أن الأعراب لا يكون عندهم دسم من لبن أو زبد يقاومون به (شبهة) الشتاء، لأن ذلك يوجد حيث يحل الربيع.

والدرجة الأولى في هذه الطائرة جيدة التتجيد، وهي منفصلة كما تكون في طائرات الشركات العالمية، وذلك أننا الآن في رحلة دولية، وهي ثلاثة صفوف، في كل صف ٤ مقاعد، مع أنه يكون في الصف ٦ مقاعد في الدرجة السياحية.

وكل شيء فيها نظيف، وحتى المضيضة الروسية جاملتي خلاف العادة عندهم، فجاءت إليّ وابتدأتني قائلة: أنا اسمي فلانة، وأنت ما اسمك؟ ولما ذكرته استقهمتي عنه حتى حفظته.

هذا وقد مرت الطائرة ببخيرة صغيرة على يسار الطائرة متجمدة كلها، إلا أننا وصلنا أرضاً فيها أماكن كثيرة ليس فيها ثلج كما هي عليه الحال في ضواحي مدينة (إيركوتسك) التي لا ثلج فيها، إلا ما كان على ضفاف البحيرة.

أما ضيافة الدرجة الأولى في رحلة مدتها ساعة كاملة، فإنها لم تزد على كأس من الشراب يخبرونك فيه بين عصير الفاكهة والماء المعدني.

وكان الجو صاحياً لحسن حظنا مما مكنتني من رؤية الأرض بجلاء، فرأيت آثار زراعة غير واسعة في الوديان، ومع ذلك لا يزال مظهر الأرض هذا المظهر الصحراوي، حتى الجبال التي أراها الآن ليس عليها ثلوج، وليست فيها خضرة، وإنما هي جبال جرد تبدو كالجبال في بلادنا، وحتى هذه الأرض التي أظنها من أرض منغوليا، لأنهم لم يخبرونا في الطائرة بأننا قد تجاوزنا حدود سيبيريا، فإنها تبدو مقفرة موحشة المنظر

والمظهر الصحراوي وليس للثلج.

فوق أرض المغول:

قربنا من الدخول إلى أرض العاصمة المغولية، وإن كان القياس أن نقول (المنغولية) بالنون، فهذا هو اسمها الرسمي، وهو الاسم الذي يسمى به المغول أنفسهم (منغول)، ولكن أسلافنا حذفوا النون من هذا الاسم فصار (المغول)، ولذلك قد نضطر إلى أن نقول (المنغول) أحياناً تبعاً للفظ الرسمي عندهم، وأن نقول (المغول) بدون نون تبعاً لصحة الاسم كما ينطق به أسلافنا العرب.

وقد أقبلنا إلى العاصمة من جهة الغرب، وعلماً ذلك من بدء الطائرة في التدني إلى الأرض، ثم طلبت المضيئة ربط أحزمة المقاعد.

وما زالت الأرض جرداء ذات مظهر صحراوي، وحتى القرى لم أر لها أثراً هنا.

ثم وصلنا إلى منطقة فيها عمارة قليلة من مزارع صغيرة في الوديان، ومياه قليلة منحدره من الجبال لا شك في أنها من ذوب ثلوج الشتاء التي لا تلبث أن تنفد، لأن جبالها ليست عالية ولا واسعة، ثم رأيت نهراً صغيراً ذا فروع ثلاثة، ولكنه ضيق شحيح المياه، وما شبهت فروعه التي تشعب إليها كما تبدو على البعد من الطائرة إلا بخصلات الشعر، لأنه لم يعد في مجرى رئيسي الآن لقلّة مياهه.

وقد أكد المظهر الصحراوي، بل الحقيقة الصحراوية للبلاد وجود سبخة ضخمة بين الجبال، وهو الأرض الملح تنعكس عليها أشعة الشمس، كما يكون عليه الأمر في بلادنا الصحراوية عندما نرى الطائرة فوق أرض سبخة.

نجد في منغوليا:

مررنا فوق قرية منغوليا منعزلة في الصحراء، ليس فيها عود أخضر واحد لا من زراعة ولا من غيرها، مما جعلني أسائل نفسي عما إذا كنا نطير فوق (نجد) رغم البعد الشاسع ما بين موقع هذه البلاد وموقع بلادنا، إلا أنني عندما تأملت الموضوع اتضح لي أن المنظر قد خدعني، لأنه وإن كانت هذه البلاد صحراء قاحلة الآن، فإنها تخضر في الربيع الذي هو الصيف عندنا، كما أن الجو قارس البرد فيها، وليس معتدلاً، كما هو عندنا بالنسبة إلى جو هذه البلاد الصحراوية البالغة القسوة.

وقد ذكرني منظر هذه القرية بمنظر (هجرة) من هجر البادية، وهي القرى التي يستقر فيها الأعراب في الصحراء، دون أن تكون لديهم زراعة، وإنما يعتمدون على رعي مواشيهم فيما حولها من أرض الصحراء.

ولكن عندما تدنت الطائرة إلى الأرض أكثر بانث تباشير الربيع في أطراف عشب أخضر قد شمل الأرض، ولكنه لا يرى لأنه قصير لم تمض على بدئه بالنبات إلا أيام ثلاثة أو أربعة.

أما الأشجار فإنها هامة كأشجار سيبيريا، لأن الجو هنا بارد أيضاً، بل بالغ القسوة في البرد، وإن كان معدل برده يقل قليلاً عن برد سيبيريا، فقد أخبرنا أهل منغوليا من باب التفاخر وذكر مزايا بلادهم أن متوسط درجة البرودة عندهم في الشتاء يكون ما بين ٢٨ إلى ٣٢ درجة مئوية تحت الصفر، على حين أنه يصل في سيبيريا في تدييه إلى ٤٠ درجة تحت الصفر.

في مطار أولان باتور:

قبيل هبوط الطائرة كنا نرى مدينة (أولان باتور) على يسارنا فسيحة متناثرة ذات شوارع واسعة، وكان هبوط الطائرة في الحادية عشرة والدقيقة الثامنة والخمسين، وقد استغرق الطيران ٥٨ دقيقة وليس ساعة كما أعلنوه.

وأعلنوا أن درجة الحرارة فيها هي ١٣ درجة مئوية، وهذه درجة مفرحة، رغم كونها أبرد من (إيركوتسك) عندما وصلناها، إذ كانت آنذاك (١٤)، ونحن كنا وصلناها قبيل منتصف الليل.

أما مدارج المطار، فإنها صحراوية تماماً، لا يرى المرء حولها ورقة خضراء أو حتى أي عود يابس أيضاً، وإنما هي بقايا أعشاب هامة من الأعشاب التي نمت في الصيف، وقضى عليها الشتاء.

لم نمر في مكاتب المطار بأية مشكلة، لأننا نحمل سمات دخول إلى منغوليا من سفارتها في طشقند، ومعني سمة دخول سياسية بسبب جوازي (الدبلوماسي)، ولذلك أدى ضابط الجوازات التحية العسكرية وهو يعطيني الجواز.

وقد استقبلنا داخل منطقة الجمرک الأخ (قادر سيراني) رئيس الجمعية الإسلامية المنغولية من أجل استقبالنا، ولكونه عضواً في البرلمان عن الأقلية المسلمة، ولم يفتشوا أي شيء من الأمتعة التي معنا كنا.

ووجدنا في الاستقبال بعدما خرجنا من منطقة الجمرک عدداً من الإخوة المسلمين الذين حضروا لاستقبالنا مع رئيس الجمعية الإسلامية، منهم:

- الأخ الأستاذ (خالتي بن أشكال) أستاذ في التقنية في الجامعة.
- والأخ (سارقان بن عبدا لله).
- والمهندس (نفرام محمد) مهندس معماري.
- والدكتور (شيرخان أوراي خان) عالم جيولوجي.

إلى مدينة أولان بانور:

عندما خرجنا من مبنى المطار كان الهواء بارداً والشمس ساخنة،
تشبه شمس الشتاء عندنا.

وبعد مفارقة المطار كان الطريق يشق منطقة ريفية، بل هي منطقة
مراع، رأينا فيها قطعاً من الأغنام معها راعيها، وهي لا تكاد ترفع
رؤوسها عن الأرض، إذ هذا هو أول وقت تخرج فيه إلى المرعى منذ حبسها
زمن الشتاء الطويل.

وقال الأخ قادر سيراني: إن المواشي أخرجت للمرعى قبل يومين فقط.
وهي ترعى من بقايا العشب اليابس على قلته، ومن رؤوس الأوراق
الخضر التي بدت تطل من الأرض، وتبين أنها تملأ وجه الأرض إلا أنها
صغيرة الآن، وسوف تزدهر حتى تصبح مراعي جيدة من الأعشاب،
فهكذا طبيعة أرض المغول هذه.

ومررنا ببوابة رمزية ذكرتها بمثيالاتها في الهند، وأكثرها من العهد
الإسلامي المغولي، ويجب ألا نخدعنا هذه العبارة (العهد المغولي)، فالمغول
الذين ذهبوا إلى الهند وحكموها لم يذهبوا إليها من بلاد المغول هذه، ولا
من شقيقتها الجنوبية (منغوليا الداخلية) التي هي الآن جزء لا يتجزأ من
الصين، وإنما جاء أولهم وهو السلطان محمود بابر من فرغانة في

أوزبكستان بعد أن أسلم المغول بقرون، وشاركوا في الأخذ بحضارة إسلامية عربية ازدهرت في بلاد تركستان وما وراء النهر، فكانت الأبنية الإسلامية الخالدة في الهند من المساجد والمدارس والأريطة، بل والمكتبات والقلاع مفخرة للمدنية الإسلامية في الهند، وعلى رأسها (تاج محل)، وهو وأمثاله مما يجذب السياح إلى الهند أكثر مما يجذبه إليها شيء آخر فيها.

والبوابة الرمزية هي التي لا تغلق شيئاً، بل تكون على حدود مكان معين أو قبل مكان معظم مقصود تكون قائمة وحدها، لا تتطلق منها حيطان ولا غيرها.

ثم مررنا بقرية متفرقة المنازل، متسعة المساحة، وفي ضواحيها رأينا خيولاً من خيول المغول الشهيرة ترعى في ناحية هذه القرية.



خيل المغول ترعى بواكير العشب القصير

وأهم ما يميز خيول المغول على البعد طول أذيالها، وكثافة فيها، أي في أذيالها، وسوف يأتي مزيد من الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله، فقد طلبت من الإخوة المشرفين على برنامج زيارتنا أن يهيئوا لنا زيارة منطقة من مناطق رعي الخيول، وذلك قبل أن يتبين لنا أنها موجودة في أكثر المناطق. هذا والأبنية في هذه الضاحية التي تلي المطار ذات ألوان حمر وبيض. والناس الذين لمحتهم هنا هم من المغول الذين نضرب المثل للناس بهم، أي نقول: إنهم يشبهون المغول، ولقد ذكرت بعض القازاق الأصلاء عندما رأيت بعض هؤلاء.

ولا غرو لأن القازاق هم في الصحيح عن أصولهم مختلطون ما بين المغول والأتراك القدماء.

وأسرعت عبارة على ذهني تقول في مثل هذه الحالة: بلاد أخرى، وشعب آخر.

فقد كنت من فترة في بلاد ما وراء النهر، وعندما كنت أتقل بين الجمهوريات فيها، وهي أوزبكستان وجنوب قازاقستان وجمهورية قرغيزستان، وتركمانستان، بأن هذه الشعوب متقاربة الأصول واللغات، إن لم نقل إنها ذات أصل واحد، ولغة في التاريخ البعيد واحدة، وأما هنا في هذه البلاد فإنها بلاد أخرى يسكنها شعب آخر مستقل في أكثر خصائصه المظهرية المخبرية عن البلاد المذكورة.

وكذلك شككت في قول من قال من علمائنا القدماء بأن المغول جنس من الترك، فهذا غير صحيح، بل هم شعب آخر غير الشعب التركي الأصل، حتى لغتهم الحاضرة ليست قريبة من اللغة التركية، فالذي يعرف التركية، أو حتى لغة البلاد القريبة منهم كالأوزبكية والقرغيزية لا

يفهم لغة المغول أو (المنغول) كما يسمون أنفسهم، ولا يفهمون لغته وقد تقدم ذكر ذلك.

مدينة أولان باتور:

اجتزنا جسراً فوق نهر شحيح المياه، هو الذي رأيت أسافله من الطائرة بعد أن يجتاز المدينة، وهو النهر الوحيد في هذه المنطقة الصحراوية، أو التي هي شبيهة بالصحراوية كما يحلو لأهلها الذين يقولون: إن الصحراء المغولية الخالصة إنما هي في الجنوب، حيث (منغوليا الداخلية) الداخلة في الصين الشعبية، لأنها خالية من الأنهار، وحتى الأعشاب فيها أقل كثافة منها في هذه البلاد المنغولية الشمالية.

هذا وقد ذكرت شيئاً عن زيارتي إلى (منغوليا الداخلية) التي هي في الصين في كتاب: «**في مهد المغول**» وقد نوهت بهذا، لأنك ربما تحب - رعاك الله - أن تطلع على شيء من أحوالها وأحوال عاصمتها خوخاخوت التي لا يبعد عنها كثيراً قبر جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية التي صارت واسعة بعد ذلك، وامتدت من مشارف الصين شرقاً إلى حدود الشام غرباً، ووصلت إلى بلاد الروس شمالاً حيث أسلم ملكها الملك بركة خان، فأسلم قومه معه، وأسسوا (إمبراطورية) ضخمة هناك عاشت مئات السنين، وبقيت جمهورية (تتارستان) التي هي الآن داخلة في اتحاد مع جمهورية روسيا وعاصمتها (قازان)، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وتبعد المدينة عن المطار (١٥) كيلو متراً، ولكن المسافة تشبه البراري العذراء التي ترعى فيها الأنعام، لأن البلاد كانت تحكم من الشيوعيين الذين يحرمون المبادرات الشخصية، لذلك لا ترى مشروعات خاصة أو لشركات خاصة في ضواحي مدنهم.

وقد ذكرني منظر الأنعام التي ترعى هنا ما بين المطار والمدينة وهي الأغنام والخيول والأبقار ببلد آخر كان شيوعياً وهو ألبانيا، فقد رأيت المواشي من الأبقار والأغنام ترعى في المسافة الخالية ما بين المطار والمدينة، إلا أنها ليست فيها خيول ترعى مثلما هو الحال هنا، وكذلك رأيت من بين المواشي في (منغوليا الداخلية) الإبل ذات السنامين التي هي كثيرة عندهم. ولكنها ليست موجودة في هذه المنطقة الشمالية من جمهورية منغوليا التي كانت تسمى (جمهورية منغوليا الشعبية)، وحذفوا وصفها بالشعبية في السنة الأخيرة.

فالإبل لا تستطيع الصبر على برد هذه البلاد المغولية الشمالية الذي يقرب من برد سيبيريا بحكم الموقع والجوار، حتى ولو كانت من الإبل ذات السنامين المشهورة بصبرها على العيش في البلدان الباردة في شمال الصين وفي تركستان الشرقية، وقد ذكرت ذلك في كتابين لي هما « داخل أسوار الصين » وهو مطبوع، وكتاب « في مهد النزل » الذي يراد فيه تركستان الشرقية، وما يزال مخطوطاً.

كان أول ما ميز مدخل المدينة وجود بوابة رمزية قبلها تعتبر مدخلاً لها، وإن لم تغلق على شيء، ومناظر بهيجة من أبنية حديثة مما تبنيه الدولة الشيوعية، وتؤجره شقاً سكنية على عامة الناس، ولكنها ذات ألوان بهيجة خلاف ما كان عليه الوضع في سيبيريا، وكذلك الطريق الإسفلتي العام واسع وحسن المنظر.

والأبنية هنا أكثرها على طراز خاص وهو الطراز المغولي الذي عاد به من عاد من المغول إلى بلادهم بعد أن تعلموا من المسلمين في بلاد ما وراء النهر وخراسان الطريقة الفنية للبناء الفاخر، وإلا فإن أوائلهم كانوا بدواً

أصحاب خيام، ولا يزال معظم الشعب المغولي سواء أكان في منغوليا الداخلية أو جمهورية منغوليا هذه التي كانت تسمى في القديم (منغوليا) الخارجية من البدو الذين يسكنون الخيام.

ولم نقل إنهم من الأعراب، لأن الأعراب هم البدو الذين ينتمون للجنس العربي خاص ذلك بهم، وسوف يأتي وصف للخيمة المغولية من الداخل والخارج فيما يأتي من كلام عن زيارة هذه البلاد عند ما نرى بعضها أو ندخله.

وهذه المباني العريقة هي ما بين الطراز الصيني وفن الطراز العربي، وليست خالصة لأي منهما، وإن كانت أعاليها التي منها قبابها وأبراجها بالصيني أشبه.

ومما يزيد شبهها بالصين أن طلاءها فاقع كما هو عليه طلاء الأبنية عند الصينيين الذين يحبون الألوان الفاقعة، بل الصارخة أكثر مما يحبون الألوان الهادئة، كما هو عندنا وعند الأوروبيين، واللون الأحمر القاني موجود هنا، وإن كان أقل مما هو موجود في أبنية الصين.

وينبغي أن نتذكر أن المغول حكموا الصين في فترة من الفترات، وأنهم تأثروا بالمدنية الصينية بحكم ذلك، وبحكم الجوار بين البلدين، حتى إن جزءاً من منغوليا لا يزال تابعاً للصين الشعبية، وهو منغوليا الداخلية، وهذا الجزء المستقل الذي نحن الآن بصدد الدخول إلى عاصمته هو - على سعته - واقع على حدود الصين، فقد قيل مثلاً: إن منغوليا بين الصين والاتحاد السوفيتي كالجنين في الشطيرة وهي (الساندويتش)، فهاتان الدولتان الكبيرتان الصين والاتحاد السوفيتي، أو كما يعبر عنها بعض الناس بالدب والتنين تحيطان بمنغوليا هذه إحاطة

كاملة.

نزلنا في فندق (بيان قل) الذي يقع في القسم الحديث من المدينة، وهو فندق جيد ظنناه جديداً، لأن ما فيه من أثاث وبلاط ورخام هو جديد، فذكروا أنه مجدد، وأن ذلك كله حدث بعد سقوط الشيوعية، وقد رأيناهم وهم لا يزالون يفرشون أنحاء من الفندق بالأثاث الحديث الجيد.

وفي الفندق مساعد حديثة جيدة، وهو أول فندق حديث جيد نزلناه في كل جولتنا فيما وراء النهر، وفي شمال شرق آسيا، إذ جميع الفنادق التي نزلنا فيها هي ذات إدارة روسية، وهي قديمة تكاد تعتبر مهملة لولا أنها مسكونة، إلا أن العناية بها والترميم فيها لا وجود لهما.

فعلى سبيل المثال في هذا الفندق رأيت الأبواب والنوافذ والستائر جيدة، تنزلق بسهولة، أما جميع الفنادق التي ذكرتها قبله فإنه لا بد أن يكون في غرفهم عدة عيوب كالستائر التي لا تتزاح بسهولة، وإذا حاولت إزاحتها بشيء من الشدة وقعت عليك، ومقابض الأبواب الحديدية، كثيراً ما تجرح اليد، ومفاتيح الغرف تكون كبيرة خشنة، وخزائن الملابس لا تفتح إلا بصعوبة، أو لا تفتح أصلاً، وبعض تلك الفنادق تكون التمديدات الكهربائية فيها خارجية إذ التمديدات الداخلية فسدت ولم يصلحوها، وأذكر أن غرفتي التي سكنتها في فندق أوزباكستان في طشقند كانت مفروشة بالخشب، إلا أن في أرضها مسامير تمسك بالجوارب، وتجرح الرجل، ولا من يصلح.

حتى أدوات الترفيه كالتلفاز يكون كبيراً يحتاج إلى إصلاح ويصعب ضبط مفاتيحه، ولذلك يجعلون في الغرف سماعات كبيرة من التي تنقل برامج الإذاعة المسموعة كما كان عليه الأمر في القديم، وقد أخبرنا

الأخ قادر سيراني أنه أبلغهم أننا ضيوف على الجمعية الإسلامية لئلا يطلبوا أجره بالعمل الصعبة، أما الجمعية فإنها تستطيع أن تدفع بالعمل المحلية، وهذا يخفض الأجرة إلى الثلث، أو أقل نظراً لانهايار عملتهم.

وقال: إن معنى هذا ان تعود الغرفة التي من المقرر أن تكون أجرتها ٨٠ دولاراً إلى عشرة دولارات فقط، وهي غرفة واسعة فيها سريران وشرفة جيدة، ولكن أنى لنا الجلوس فيها إذ إن وقتنا كله سينقضي بالتجول نظراً لضيق الوقت.

جولة سريعة:

لم نطق صبراً على البقاء في الفندق أكثر من ساعة صنعنا أثناءها الشاي، وأكلنا الكعك والتمر مما معنا، لأننا لم نتغد في الطائرة. ثم خرجنا مع الأخ (قادر سيراني) على سيارتين إحداهما سيارته، والأخرى لأحد الإخوة سندفع له الأجرة وإن لم يطلبها.

ميدان البطل:

كانت أولى الوقفات في الميدان الرئيسي في المدينة، وهو ميدان فسيح اسمه (سوخا باتور) أي ميدان البطل سوخا، وسوخا هذا هو قائد ثورة منغوليا الشيوعية التي أسموها شعبية، ويقع على هذا الميدان مبنى البرلمان ودار الحكومة التي ينعقد فيها مجلس الوزراء، ودار الأوبرا وأكاديمية العلوم ودار الثقافة والبريد المركزي.

وكل ذلك غير متلاصق لأن الميدان واسع، مثل سائر نواحي المدينة وضواحيها، وذلك لحداثة عهدها الذي ذكروا لنا أنه لا يكاد يزيد على مائة سنة، كما أن وجود هذه الأبنية الجديدة ليس قديماً، لأن الشعب

كان شعباً بدوياً كما سبق، ولذلك يعيش أكثر أفراده الآن في خيام ذات طابع خاص بهم.



مع الأستاذ رحمة الله على يساري، وقادر سيراني على يميني في
الميدان الرئيسي في أولان باتور

وهذا الميدان مبسط ومرصف، وكل ما فيه جميل لولا قلة البقاع الخضراء، وذلك ناتج عن الطبيعة الشبه صحراوية للمنطقة، إضافة إلى أن الأشجار الموجودة الآن في الشارع هي أعواد كالحلة من شدة البرد الذي أحال لونها الأخضر إلى لون الرماد.

ويعتبر هذا الميدان قلب القسم الفاخر من المدينة، ويطل على المدينة من جهة الجنوب جبل (بوغدا) وهو جبل أجرد مثل بقية الجبال هنا، بل مثل بقية أنحاء البلاد التي رأيناها، بل خيل إلي أن في أحد جبالها برقة بيضاء،

وهي الرمل الذي يركب الجبل، ويكون في الغالب في أسفله، ويبدو منظرها كذلك، إلا أنني تحققت بعد ذلك أنها حصباء وليست رملًا منها، كما أن هناك جبالاً صحراوية أيضاً واقعة جهة الشمال من المدينة، ولكنها لا تحاصرها وكأنما أراد الجو أن يثبت لنا - نحن الصحراويين - أنه صحراوي أصلاً وفرعاً، إذ رأينا عجاجاً مقبلاً من الشمال الغربي يحمل معه الغبار والتراب كأنه السحاب الخفيف، وهو شيء تعودنا عليه في بلادنا، لا سيما في أواخر فصل الصيف الذي يسميه عوام الكتاب عندنا بفصل الربيع، وهو الذي يسبق فصل القيظ الذي يسميه أولئك الكتاب بفصل الصيف.



شارع في أولان باتور

وقد ذكرني هبوب هذه الرياح العاصفة بهبوب مماثل لها، ولكنه أشد قسوة وأطول هبواً شهدته في مدينة (خوخا خوت) عاصمة (منغوليا)

الداخلية) عندما زرتها في عام ١٤٠٧ هـ وقد ذكرت ذلك في كتاب ((**مهمل** **الطغول**))، وقال الأخ قادر سيراني رئيس الجمعية الإسلامية معلقاً على هبوب هذه الرياح العاصفة إن العاصف في هذا الوقت يأتي، ولكنه لا يلبث طويلاً يعقبه صحو ثم يأتي بعده ربح وغبار ثم صحو وهكذا.

أما نحن فإننا لم نصادف مدة بقائنا إلا عاصفين اثنين، وقد قلت (عاصفاً) ولم أقل عاصفة لئلا يشتهب الأمر على بعض القراء الذين صاروا يعرفون أن (العاصفة) هي الرياح الشديدة المخربة التي تدوم وقتاً طويلاً، ومنها العواصف الثلجية كما يسمونها، ونحن في لغتنا العامية لا نعرف (العاصف) إلا هذه الرياح القوية التي لا تدوم طويلاً، وكان مع هذا العاصف سحب وكانت الرياح باردة برد الجو، لكن ما لبث أن تكشف كما قلت.

مدينة البطل الأحمر:

معنى اسم هذه المدينة (أولان باتور) هو (البطل الأحمر)، فأولان أحمر، وباتور بطل، وهذه التسمية ترمز إلى المذهب الشيوعي الذي كان سائداً فيها، إذ يريدون بالأحمر هنا: الشيوعي رمزاً إلى اللون الأحمر الذي اتخذته الشيوعية لوناً لها.

كان اسمها قبل ذلك (داكوري)، وهي حديثة النشأة نسبياً، إذ أنشئت قبل مائة سنة، يعني أنها أصبحت بلدة مسكونة من ذلك التاريخ.

وعدد سكانها (٥٠٠) ألف نسمة من مجموع سكان دولة منغوليا البالغ عددهم مليوني نسمة، وهذا عدد قليل بالنسبة إلى سعة هذه البلاد غير أنها بلاد صحراوية على وجه العموم. وإن كانت فيها مناطق شبيهة

بالصحراوية على أن صحراويتها ليست مثلنا، إذ تثبت فيها أعشاب هائلة جراء ذوبان الثلوج التي تسقط عليها شتاءً والأمطار التي تسقط على شمالها صيفاً، مما جعلها - أي منغوليا - تشتهر بالثروة الحيوانية الضخمة بالنسبة إلى عدد السكان.



ميدان آخر في أولان باتور

ذلك بأن فيها ٢٥ مليون رأس من الحيوان منها ١٤ مليوناً من الأغنام و٤ ملايين بقرة، ومليونان من الخيل، وسبعمائة ألف بغير من ذوات السنامين التي تعيش في جنوب البلاد.

ولا شك أنه لولا وجود الشيوعية التي تقيد حرية التجارة وتصادر حريات الأفراد والمبادرات الشخصية لتضاعف عدد الحيوان فيها، لأن الحيوان الآن قد صار من العملة الصعبة نظراً لكثرة استهلاك اللحوم

وارتفاع أعداد البشر.

كما أن الذي يحد الآن من تجارتها بالمواشي هو انعزال موقعها بعيداً عن مواطن الاستهلاك التي تدفع الثمن بالعمله الصعبة، وعدم وجود وسائل نقل حديثة للحيوان أو لحومها، وليس لديها إمكانات لإيجاد مسالخ فنية حديثة، بحيث ترسل الذبائح واللحوم بعد تجميدها إلى الخارج.

قلت: إننا الآن في جولة سريعة على مدينة (أولان باتور) هذه، ولذلك قصدنا الأماكن المهمة التي تتعلق بالدعوة الإسلامية مرجئين الجولة المتأنية إلى ما بعد ذلك.

أرض المركز الإسلامي:

لا يوجد في عاصمة منغوليا أي مسجد أو أي مركز إسلامي، رغم وجود عدد من المسلمين فيها يقدر بعشرة آلاف شخص، وذلك بسبب الطغيان الشيوعي الذي هدم المساجد في جميع أنحاء منغوليا، حتى لم يبق فيها مسجد واحد.

وبعد أن أفلست الشيوعية وأعلن أهلها إفلاسها وذهبت ريحها، عاد الناس إلى ماضيهم العريق يبحثون عن شيء يعوضهم عن الشيوعية التي تركوها عندما اكتشفوا أنها وهم عاشوا في جحيمها عشرات السنين، تقدم الإخوة المسلمون في هذه المدينة ممثلين في الجمعية الإسلامية المنغولية بطلب إلى الحكومة أن تمنحهم أرضاً واسعة يقيمون عليها مركزاً إسلامياً يكون رمزاً للثقافة الإسلامية التي يعتنقها نحو ١٣٢ ألفاً من سكان منغوليا، ويكون صلة وصل بين منغوليا والمسلمين في الحواضر الإسلامية الذين يتزايد اهتمام حكام البلاد بتوثيق العلاقة بهم، وبخاصة منهم ذوو الثروات النفطية من أجل إنشاء العلاقات الاقتصادية التي

تحتاجها هذه البلاد.

وقد استجابت الحكومة لطلب المسلمين فمنحتهم أرضاً في ضاحية واسعة جميلة في غرب المدينة، ذهبنا إليها وشاهدناها أرضاً ريفية واقعة على خط طريق المطار المهم وعلى طريق آخر.

ومن المؤمل أن يشتمل المركز على مسجد جامع ومكتبة وقاعة محاضرات ومدرسة إسلامية، إلا أن الإخوة ذكروا لنا أن إجراءات منحها للمسلمين لم تكتمل، وأنهم سوف يرسلون إلى الرابطة إذا انتهى ذلك وعزموا على البدء في العمل.

وقد أخبرناهم أننا على استعداد لمساعدتهم في هذا المشروع الجليل، وأن الرابطة بالنظر إلى مسؤولياتها العظيمة الواسعة على امتداد العالم كله فإنها لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل وحدها، وإنما تسهم فيه إسهاماً وتتوسط أيضاً لدى أهل الخير من المتبرعين الذين يثقون بها وهم على استعداد للإنفاق على المشروعات الإسلامية النافعة.

الجمعية الإسلامية المنغولية:

بعد أن التقطنا صورة لأرض المركز الإسلامي المؤمل بناؤه عدنا بسرعة إلى مقر الجمعية الإسلامية لمنغوليا، فوجدناهم كتبوا اسم الجمعية عليه بالعربية (جمعية مسلمي منغوليا) وبالإنكليزية، كما كتبوها أيضاً بلغتهم المنغولية التي تكتب بحروف عربية الأصل يسمونها الحروف الإيغورية، نسبة إلى الإيغور الذين هم أكبر الطوائف في تركستان الشرقية، وهي حروف عربية وصلتهم قبل أن يصلهم الإسلام مع جماعة من رجال الدين المسيحي من سكان بلاد الشام كانوا ذهبوا دعاة

إلى دينهم، حتى وصلوا إلى تركستان الشرقية، وكانت كتابتهم بالحروف العربية القديمة.

ومن الغريب أن تلك الحروف العربية انقرض استعمالها في البلدان العربية، ولكنه بقي في (منغوليا) هذه البعيدة النائية، لأنه ليس لأهلها حروف غيرها. وقد يأتي شيء من الكلام عن هذه الحروف العربية المغتربة في مناسبة أخرى فيما بعد بإذن الله.



المؤلف على يمينه قادر سيراني، ثم محمد حافظ، فأحد أعضاء الجمعية أمام مدخل الجمعية في أولان باتور

ويقع مقر الجمعية على شارع (إمنتي إستانون) أي شارع السلام، أهم الشوارع وأطولها في (أولان باتور)، وهو مؤلف من أربع غرف ومرافقها استأجرته الجمعية من إحدى الجمعيات شبه الحكومية بأجرة رخيصة،

وأثاثه خشبي من صناعة وطنية.

و الجمعية حديثة العهد جدا ، إذ أسست في شهر أكتوبر عام ١٩٩٠ أي لم يمض على إنشائها إلا أشهر ، قام على ذلك رئيسها الأخ قادر سيراني الذي هو مثل أكثر المسلمين من أصل قازاقي ، و إن كانت جنسيته مغولية ، وهو من أسرة سكنت في منغوليا منذ عهد ليس بالقصير .

احتياج جمعية مسلمي منغوليا إلى ما يلي :

- جهازي فاكس وتلكس .

- آلي كاتبة وتصوير .

- سيارة جيب لزيارة مناطق المسلمين المتباعدة التي لا تصل إليها السيارة المعتادة بسبب وعورة أرضها ، وعدم وجود الطرق الإسفلتية فيها .

- الطلاب المسلمون المنغوليون الذين يدرسون في تركيا منذ عامين يرغبون زيارة أهلهم في منغوليا أثناء الإجازة الصيفية ، ويحتاج كل طالب إلى مبلغ مائتي دولار لتغطية نفقات السفر بالقطار .
- المسلمون يحتاجون القماش الأبيض لتكفين موتاهم ، إذ يواجه المسلمون صعوبة في توفير أقمشة الأكفان ، حيث لا يتوافر القماش في منغوليا ، واستيراده من الخارج يكلف كثيراً .
- أهم ما يحرص المسلمون على إنجازه من المشروعات هو بناء مسجد كبير في العاصمة ، ويريدون أن يبنوا بجانب المسجد مدرسة إسلامية .
- المسلمون بسبب الحكم الشيوعي وحرمانهم من التعليم الإسلامي

فترة طويلة وعزلتهم عن العالم الإسلامي في جهل كبير بتعاليم ومبادئ الدين الحنيف، مما يستدعي توفير الأئمة والدعاة والمدرسين لإرشادهم وتعليم أبنائهم أحكام الإسلام، وطلبوا أن يبدأ ذلك بإرسال ثلاثة دعاة ممن يعرفون اللغة القازاقية.

وقد شكرتهم على الإيضاح الشامل لأحوال المسلمين واحتياجاتهم في منغوليا، وأكدت لهم استعداد الرابطة للتعاون في تحقيق طلباتهم والاتصال بهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لمساعدتهم بأقمشة الكفن. كما أبدت استعداد الرابطة لتحمل رواتب ثلاثة دعاة يتم اختيارهم من خريجي معهد الإمام البخاري من بخارى بأوزبكستان، وأقترح أن يكون أحدهم الشيخ ذو القرنين بن حماد الإمام في بلدة مركي في قازاقستان.

وماذا عن السفارات الإسلامية:

لا توجد في منغوليا سفارة لأية دولة مسلمة إلا سفارة لأفغانستان الشيوعية التي يصح أن تسمى سفارة نجيب الله، نسبة إلى رئيس أفغانستان الشيوعي (نجيب الله)، وكانت فيها بعثة لمنظمة التحرير الفلسطينية غير أنها أغلقت.

ومن الغريب أنه لا يوجد فيها طلاب من الأقطار الإسلامية إلا طالب أفغاني واحد نفعهم الله به، لأنه صار يترجم لهم ما يلزمهم معرفته من الأوردية التي يحسنها إلى لغتهم التي تعلمها، وقد اجتمعنا بهذا الطالب بعد ذلك، ولازمتنا في أكثر أوقات وجودنا في هذه البلاد.

كما لا توجد لمنغوليا سفارة في أي بلد إسلامي إلا سفارة في القاهرة، وقد نفع الله بوجود موظف فيها هو (قادر سيراني) فقد عرف الإسلام فيها، وقد ذكر لنا أنه وهو مسلم بن مسلم، بل هو عريق في

الإسلام، لم يسمع بالأذان طيلة حياته إلا في القاهرة.

وقد اتصل بنا من مصر يخبر بأنه موجود في القاهرة، وأنه يريد بحث أوضاع المسلمين في البلاد وطرق مساعدتهم على أمور دينهم من قبل الرابطة، ولم تكن لدينا آنذاك منذ نحو سنتين أية معلومات عن الإخوة المسلمين في هذه البلاد، فكتبنا إليه نرحب بقدومه إلى مكة المكرمة ضيفاً على الرابطة لبحث الأمور المتعلقة بالمسلمين، وقد زار الرابطة فعلاً، وكان هذا أول اتصال بالإخوة المسلمين في هذه البلاد.

وقد أخبرنا عن سوء وضع المسلمين من الناحية الثقافية، وأنه يحتاج إلى علاج لا يستطيعون أن يقوموا به إلا بمساعدة الرابطة وغيرها من المؤسسات الإسلامية، فاتفقنا معه على بعض الأمور، وأخبرناه أن الرابطة بصدد إرسال وفد منها إلى بلادهم هو وفدنا هذا.

موطن المسلمين:

يقطن أكثر المسلمين في ولاية تسمى (بيان أو لكي) في الجنوب الغربي من منغوليا حيث الحدود مع قازاقستان، ومن هنا كان أكثر المسلمين من القازاق، وقد طلبنا أن نזור تلك المنطقة، وبطبيعة الحال سوف ندفع أقيام تذاكرنا غير أنهم هنا قالوا إن المنطقة تبعد أكثر من ٢٠٠ كيلومتر، ولا يمكن الذهاب إليها إلا بالطائرة لأمثالنا غير أن الطائرات كثيراً ما يتعذر عليها الذهاب إلى هناك بسبب عدم وجود وقود الطائرات عندهم، وذكروا بهذه المناسبة أن النفط موجود في الأرض، ولكنه لم يستخرج لأن الحكومة الشيوعية السابقة لا تريد أن تتولى ذلك شركات غربية رأسمالية، وكان الاتحاد السوفيتي يزودهم بالنفط ومشتقاته ويأخذ بدلاً من ذلك سلعاً منهم وأشياء أخرى يدفعونها بالروبل،

أو عن طريق المقايضة ثم لما ترك الشيوعية أعلن أنه لن يبيع نفطه إلا بعملة صعبة قابلة للتحويل، فاتفقوا مع الصين على أن تعطيههم قدرأ مما يحتاجون من (البترول) في مقابل استخراج نحاس من بلادهم.

وقد جهدنا أن نساغر إلى هناك، غير أن الطائرات لم تتحرك، وذكر لنا المسؤولون عن الطائرات وهي حكومية أنه لا أمل في أن تطير طائرات إلى تلك الولاية: ولاية (بيان الكي)، ولذلك لا أمل في أن نذهب إلى تلك المنطقة.

ولهذه الولاية مكانة في نفوسنا فهي منطقة يكثر فيها المسلمون، وقد سمعنا عن جهاد أهلها وحرصهم على دينهم، حتى إنهم دفنوا المصاحف مع الموتى لئلا يحرقها الشيوعيون، فكانوا يدفنونها في القبور.

قالوا: وامتد طغيان الشيوعيين حتى تلفت أكثر المصاحف عندما بدءوا يخرجونها سرأ.

والآن نحن نريد أن نذهب إلى تلك المنطقة لمساعدة أهلها على بناء مساجدهم، ولتوزيع مصاحف كريمة عليهم مما طبع في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة ومعنا نسخ منها، كما أن معنا نماذج من تفسير معاني القرآن باللغة القازاقية هم في حاجة إليها.

وسوف نكرر المحاولة لذلك، ونرجو أن نجد طائرة تسافر إلى هناك.

جولة واسعة في مدينة أولان بانور:

بدأت هذه الجولة في الخامسة عصرأ على سيارة الأخ قادر سيراني الذي هو القائد للسيارة - بالعربية - وهو (القايد) بمعنى المرشد لنا - بالإنكليزية -.



المنازل المغولية الشعبية بجانب العمارات الشاهقة

انطلقنا مع شارع السلام الواسع الطويل الذي يشق المدينة كلها من الشرق إلى الغرب، ولا يوجد شارع فيها مثله بهذه المثابة من الطول والامتداد إذ يبلغ طوله ١٥ كيلو متراً، مع أن البلدة لا تعتبر من البلدان المكتظة بالسكان، إذ لا يزيد سكانها على خمسمائة ألف نسمة، لكنها مدينة حديثة واسعة الشوارع والبيادين، بل بالغة السعة، وهي أدل ما تكون على أنها مدينة صحراوية، بما تمثله الصحراء من سعة وامتداد، مع أن شوارعها منتظمة وفي بعضها أرصفة معتنى بها، وإنما المراد بذلك سعتها وانقسامها.

وقد فوجئت بكون هذه المدينة التي هي عاصمة دولة تعتبر صغيرة

بالنسبة إلى عدد سكانها تكون عاصمتها يمثل هذه الحالة من الجمال والتنظيم، على حين أن الدولة التي تدور في فلكها وهي الاتحاد السوفيتي تقل مدنه عن ذلك، وبخاصة مدن الإقليم السيبيري الشاسع الثلج الذي يماثل أو يشابه هذه البلاد في أشياء كثيرة من أهمها الجو، والطقس القارس البارد في الشتاء.



شارع واسع في أولان باتور

وعلى ذكر الطقس أقول: إن الجو اليوم جيد فليس بذى برد قاسٍ، ولكنه يعتبر بارداً بالنسبة إلى مستوى البرد عندنا في الشتاء، أما عند أهل البلاد فإنني رأيت عليهم ملابس الصيف الخفيفة، ومنهم صديقنا ومرافقنا الأخ (قادر سيراني) الذي ذكر لنا أنه لا يشعر بأي برودة في الجو. وقد عجبت لشيء آخر وهو أن أعداد السيارات التي تسير في هذه

العاصمة المغولية هي أكثر من أعداد السيارات التي تسير في المدن الروسية التي يقارب عدد السكان فيها عددهم في هذه العاصمة. ولكن معظم السيارات هي من صنع روسي، وفيها سيارات من سيارات (الجيب) الصحراوية كثيرة، نظراً لطبيعة بلادهم الصحراوية الوعرة، وقلّة الخطوط الإزفلتية خارج العاصمة.

ومعظم الأبنية على هذا الشارع الذي معنى اسمه (شارع السلام) هي متعددة الطوابق، وكلها حكومي بنته الحكومة للمواطنين تؤجره عليهم شققاً سكنية بأجر قليل كما هي العادة في البلدان الشيوعية الأخرى، لأن الدول الشيوعية لا تتيح للأفراد أن يبنوا لهم مساكن في المدن، لذلك يكون من واجبها أن تقوم بذلك.

وعندما رأيت كثرة هذه الأبنية مع قلّة عدد السكان في المدينة قلّة نسبية، وقلتهم في أكثر أنحاء البلاد قلّة حقيقية، سألت الأخ قادر سيراني عن مدى توفر المساكن في المدينة؟ فذكر أنها متوفرة، وأن البلاد لا تعرف أزمة في الإسكان.

ومعظم الأبنية على طراز إسمنتي حديث، إلا أن قليلاً منها مبنية على طراز قديم هو الذي ذكرت أن فيه قريباً من طراز البيوت الصينية وما هو بها.

وكنت أفكر منذ أن رأيت البيوت في مدينة (إيركوتسك) السيبيرية كثيية المنظر ذات لون رمادي في أكثر الحالات عما إذا كان ذلك كله من فعل الجو بسبب البرودة القاسية، ولكنني في هذه المدينة رأيت أن أكثر الأبنية ذات ألوان بهيجة وأصباغ جيدة، فسألت الأخ قادر سيراني، وبعد ذلك سألت غيره عن مستوى البرودة في الشتاء فذكروا أنها ٣٥ درجة

مئوية تحت الصفر بالنسبة إلى المدينة، و٤٥ درجة تحت الصفر على الجبال أي في الأماكن العالية منها.

في المنطقة الشمالية:

استكملنا السير في هذا الشارع الممتد من جهة الشرق إلى الغرب حتى إذا انتهى بانتهاء المدينة ذهبنا إلى جهة الشمال من خارج المدينة لنعود إلى جهة الشرق مع شمالي المدينة مخترقين قسماً منها لم نره من قبل، وهو طرفها من جهة الشمال حيث يفضي إلى الصحراء الجبلية التي لا تختلف بقليل أو كثير عن الصحراء في بلادنا من هذه الناحية.

فالبلدة ممتدة شرقاً وغرباً، ولكنها ليست كذلك من جهة الشمال إلى الجنوب.

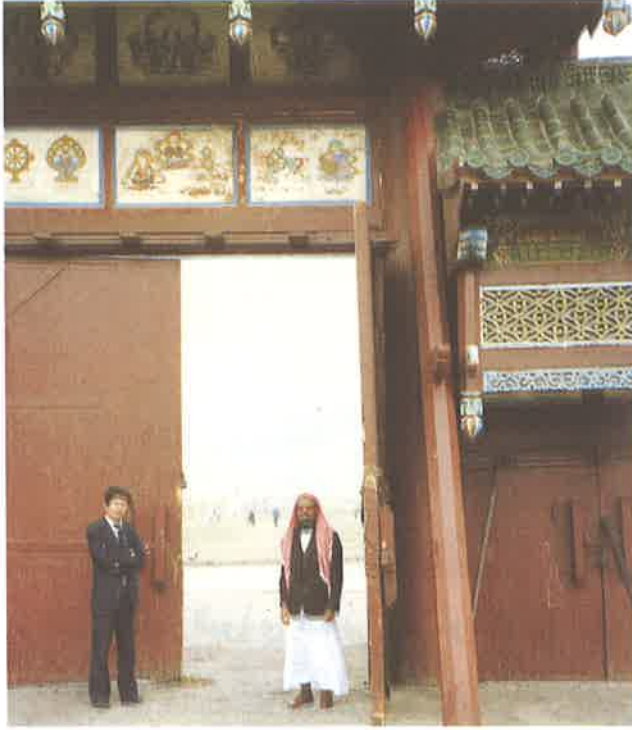
وقد رأينا على شارع رئيسي واسع في هذه المنطق أبنية ضخمة متعددة الطوابق ذات مظهر جيد، ذكروا لنا أن عمرها لا يتجاوز ٢٠ سنة.

ورأيت فيها شيئاً تكررت رؤيته، وهو خيام حقيقية، وخيام من الأخشاب على طراز الخيام المغولية التقليدية قد أحاطوا على كل مجموعة منها بسور غير عالٍ أكثر ما يكون من الخشب، أو يكون من الأعواد التي صف بعضها إلى بعض.

وهي مساكن مؤقتة ذكروا أنها لمن ينتقلون من أهل البدو والأرياف إلى المدينة يسكنون فيها حتى يمضوا فترة انتقالية إلى حياة الحضر.

ثم تبين لي أن حصر مجموعات البيوت التي تشبه الخيام، أو لنقل أنها الأكواخ بأسوار من الخشب أو نحوه هو قاعدة عامة عندها، ورأيتها في أطراف المدينة وفي القرى.

المعبد البوذي الكبير:



على مدخل المعبد الكبير في أولان باتور

وصلنا إلى معبد بوذي كبير، بل هو واسع ضخّم ذكروا أنه البقية من ٧٠٠ معبد بوذي كانت موجودة في البلاد قبل الشيوعية، فهدمها الشيوعيون أو حولوها إلى أغراض أخرى ما عدا هذا المعبد لكبره وقدره وأهميته التاريخية، وإن كانت الأهمية التاريخية للأبنية في هذه المدينة هي نسبية، لأن المدينة نفسها ليست قديمة الإنشاء كما تقدم.

وهو كالعادة في المعابد البوذية الكبيرة مبني على مرتفع جبلي يطل على الوادي الذي فيه المدينة، فيرى منه أكثرها، ويسمونه (معبد قائدن)، ويتألف من مبانٍ عديدة متباعدة، أكثرها على الطراز الشبيه بالصيني في البناء.



داخل المعبد البوذي الكبير في أولان باتور

دخلنا من بوابة له عالية كأنها بوابات القصور أو القلاع الحصينة القديمة يحرسها تمثالان لأسدين قصيرين طبقاً للتقليد أو العقيدة البوذية التي رأيت مثيلاً لها في عدة بلدان تعتنق البوذية، مثل لاوس وتايلند وبورما.

ولباس رهبان البوذيين هنا ليس كلباس رهبان البوذيين في تايلند ولاوس المؤلف من إزار ورداء غير مخيطين يلبسهما الراهب كما يلبس المحرم منا لباس الإحرام في الحج أو العمرة، وإنما هي ملابس تقليدية خاصة أهم ما يميزها في نظر السائح الغريب طول أكمامها حيث تراها تزيد عن يد لابسها وتفضل منها فضلة تتدلى إلى جنبه، بل إلى فخذه عندما يمشي مرسلاً يديه.

وشيء آخر يميزها وهو أنه لا بد أن يكون عليها حزام، رأيت

ذكورهم ونساءهم هنا يستعملونه، والمراد بذلك المتدينون الموجودون هنا أو العاملون في المعبد.

وهذا اللباس مأخوذ من اللباس البوذي القديم، تمسك به المتدينون، وتركه الشيوعيون إلى اللباس العالمي المسمى عندنا بالإفرنجي حتى لا يكاد يلبس اللباس القديم منهم أحد الآن، إلا أهل البدو والأرياف.

ولا شك أن سبب الفرق في اللباس بين هؤلاء البوذيين المغوليين وإخوانهم في الدين من التايلنديين والبورماويين واللاووسيين هو اختلاف الجو، حيث الجو هنا بارد قاسي البرودة، وفي تلك البلاد حار رطب.

وقد طلبت من أحد الشبان الذين يلبسون هذه الملابس الدينية التقليدية بالتقاط صورة معه، فامتنع من ذلك، ولكن راهباً أكبر منه سناً بيده مسبحة طويلة كما هي عادة كبار الرهبان سمح بذلك.

ودخلنا إلى فناء المعبد المكشوف، فوجدناه شاسع المساحة فيه عدة أبنية مختلفة الأغراض من معابد إلى مدارس ومسكن للعاملين فيه، ولكننا لم نستطع دخول أي واحد منها رغم وجود الأخ قادر سيراني معنا الذي هو من أهل البلاد ويعرف لغتهم بطبيعة الحال، واعتذروا عن ذلك بأن بعضها فيه ترميم، وبعضها ليس هذا هو وقت دخوله، فاكتمنا مرغمين بالتمشي في الباحات الخارجية المكشوفة في المعبد، والتقطنا صورة من بوابة له جنوبية تطل على المدينة.



المؤلف مع أحد الرهبان البوذيين عند باب المعبد البوذي الكبير على ضفة النهر: في أولان باتور

قطعنا شرقي المدينة من الشمال إلى الجنوب، فمررنا بضاحية في آخرها من جهة الشرق، وأهم معالمها ميدان واسع حديث يسمونه (ميدان يالل) بمعنى (ميدان النصر) تتوسطه دبابة، وعادة وضع دبابة وسط ميدان عام عادة رأيتها شائعة في مدن الاتحاد السوفيتي.

وشوارع هذا الجزء من المدينة واسعة، وميادينه فسيحة، لأن المباني فيه منثورة نثراً، وليست متلاصقة وأكثرها للإدارات الحكومية والمؤسسات العامة.

فتركنا المدينة متجهين جهة الجنوب الشرقي، حتى وصلنا إلى النهر

الذي تقع عليه المدينة واسمه (نهر تول)، وهو يشق الوادي الذي فيه المدينة،
وتقع المدينة بمعظمها جهة الشمال من مجراه.



منظر من الجبل لنهر (تول) قرب أولان باتور

وقفنا على ضفة النهر نستجلي المنطقة وليس على ضفتيه أي شيء من
الزراعة، وربما كان ذلك بسبب فصل الشتاء، غير أن من المفروض أن
تكون عليها أشجار ولو من أشجار الغابات، ولكننا لم نرَ من ضفافه ألا
بعض الأشجار البرية القصيرة التي تحولت إلى أعواد يابسة بسبب البرد.

كما أننا لم نشاهد عليه أي منتزه، أو مكان استراحة أو مقصف أو
مقهاة، بل إنه يبدو كما لو كان في برية خالية.

وكان المنظر بالنسبة إلينا غريباً حقاً، إذ يرى المرء هذه المدينة
المغولية الشمالية النائية، وهي بمظهرها الصحراوي يجري فيها النهر الذي

رأينا هنا لا بأس بمياهه من حيث الكثرة في هذه المنطقة، وهي ليست غزيرة، ولكنها تبدو أكثر مما رأيناها عليه عند مغادرة النهر المدينة من جهة الغرب، وربما كان ذلك راجعاً لسعة مجراه في تلك المنطقة.

وقد أقاموا عليه جسراً حديثاً جيداً معتنى به يركبه طريق يصعد إلى الجبل جهة الجنوب منه.

على جبل زاي صن:

تركنا نهر (تول) وصعدنا إلى الجبل القريب منه جهة الجنوب، وهو الجبل الممتد إلى الغرب والشرق وتقع تحته المدينة جهة الشمال، فهو يؤلف إحدى سلسلتين من الجبال غير العالية تحيطان بالوادي الذي يجري فيه نهر (تول)، وتقع فيه مدينة (أولان باتور)، ولكن جبل (زاي صن) يحف بالمدينة مباشرة عند قلبها، على حين أن الجبل الشمالي يفسح لها المجال قليلاً جهة الشمال، وهو أقل ارتفاعاً من جبل (زاي صن).

صعدنا إلى الجبل مع طريق معدّ لذلك أي للصعود فيه، يقف دون رأسه، لا يتعدى ذلك، وفيه مواقف متسعة لمن يريدون استجلاء المنظر، والتمتع برؤية الوادي الذي يجري فيه النهر التي تقع فيه المدينة.

وهو جبل أجرد لا يختلف مرآه عن منظر الجبال في بلادنا بشيء.

أوقفنا سيارتنا في متسع من الطريق جيد الموقع في متن الجبل، وهو معتنى به وله حائط من جهة منحدره جداً، واستجلينا المنطقة في بحر من الغرابة مرجعه الشعور بأننا في منغوليا الشمالية القريبة من حدود سيبيريا، وتطل من جبل (زاي صن) على نهر (تول)، وبين أيدينا مدينة أولان باتور فسيحة ممتدة مع هذا الوادي المتسع.

ولم يكن ينقص هذه الوقفة الممتازة إلا (دلة) القهوة المبهرة بالهيل،
وصحن السكرية الذي يجلله الدبس، وأنى بأرضك الدبس!!!



منظر عام لموقع (أولان باتور)

التقطنا ما شئناه من الصور التي أرجو أن يعذرني القارئ الكريم إذا
شعر أنني أكثرت من إيرادها في هذا الكتاب، لأن المنطقة بعيدة نائية عن
بلادنا، والمعلومات الميدانية الحاضرة عنها قليلة، وربما أوضحت صورة
للقارئ ما لم تستطع صفحات من الكلام أن توضحه.

العودة إلى قلب المدينة:

انحدرنا من جبل (زاي صن) من دون أن نرى فيه متنزهين، بل لم نر
فيه ولا حول النهر أي أحد جالس أو في مظهر المتفصح، بل إننا لم نر أحداً
على الإطلاق إلا رجلاً وطفلاً ذاهبين إلى مكان آخر.

وكانت الساعة قد بلغت السادسة والرابع وما زال الوقت عصراً، فالشمس تغيب متأخرة في هذه المنطقة في فصل الصيف كما تقدم.

ورأينا منه ما لم نره من قبل ونحن ذاهبون إلى مكتب لشركة الطيران المنغولية الوطنية ويسموننا اختصاراً (ميات) وجميع الطائرات التي تستخدمها من صنع روسي، ولا ينبغي أن يخدع المرء لفظ جميع، لأن عدد الطائرات النفاثة التي تسافر بعيداً وهي التي سنسافر عليها إلى موسكو هي واحدة!

إنها واحدة فقط، وهناك طائرات صغيرة تعمل على الخطوط الداخلية، ولكنها واقفة الآن بسبب عدم وجود الوقود عندهم كما تقدم. وقد تجدد إعجابي بمباني المدينة وما تدل عليه حالتها من كونها تلقى العناية والصيانة، وكلها حكومية كما تقدم.

كما أن شوارع المدينة ومبانيها متسعة جيدة كما سبق.

ومن أمثلة العناية عندهم أنني قلت للأخ قادر سيراني إنني رأيت في مدينة (إيركوتسك) السيبيرية تراب الأرصفة بعد الثلج الثقيل الذي دام عليه لعدة أشهر، ولم أر مثله في مدينتكم، مع أنها مثلها في شدة البرد، وكثرة سقوط الثلج؟

فأجاب أن الحكومة قد أزالته ذلك، وإن كان موجوداً، ولكن وجوده يشوه منظر الأرصفة والميادين فأبعده من قلب المدينة الجيد هذا.

وجدنا مكتب (ميات) التي هي خطوط منغوليا الجوية حديثاً فيها عدة أجهزة من أجهزة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) لم نر مثيلاً لها في مكاتب مؤسسة الطيران السوفيتية (إيروفلوت) في (إيركوتسك)، وليس

في مطارها إلا جهاز واحد متعطل ولم يصلح منذ مدة، هكذا قالت لنا الموظفة المسؤولة هناك عندما طلبنا أن تؤكد لنا حجزنا إلى (أولان باتور) قبل يومين. وقد حجزنا منه إلى موسكو من (أولان باتور) يوم الخميس مقاعد لنا في الدرجة الأولى، وذلك بعد أن تأكدنا منه أن الطائرات لا تسافر إلى ولاية (بيان أولكي) التي يكثُر فيها المسلمون بسبب عدم توفر وقود الطائرات عندهم.

وقد بحثت عن أشرطة ملونة للمصورة فوجدتها بسهولة، وإن كانت غالية، اشترت الواحد منها ذا الست والثلاثين صورة بستة دولارات أمريكية لا يبيعون إلا بها، وهذا يعادل ضعف قيمته في بلادنا، غير أن توفره هنا أمر جيد، إذ لم أجده في (المأتا) عاصمة (قازاقستان)، ولا في مدينة (إيركوتسك) بأي ثمن.

الجنس المغولي:

هذه البلاد هي بلاد المغول، وأهلها بطبيعة الحال هم من المغول الأصلاء، مثلها في هذا مثل جزيرة العرب بالنسبة للعرب.

وقد كنت منذ أن وصلت إلى مطار هذه البلاد أتأمل الناس في كل مكان، وآخر ذلك في وسط المدينة هذا الذي رأيت جموعاً كبيرة من الناس فيه.

وخيل إلي أن بعض الناس هنا قد سبقت لي رؤيتهم في (تايلند)، وذلك لشدة شبههم بالتايلنديين، ومع أن هذا التفكير ساذج لأنه من الظاهر أنه لا يأتي من تايلند ذات الاقتصاد المزدهر والأعمال الجيدة أحد إلى منغوليا

التي هي بعكس ذلك، وبخاصة بمثل هذه الكثرة، فقد سألت الأخ قادر سيراني عن ذلك فنفاه وقال: لا يوجد عندنا أحد من التايلنديين.



مع مواطنين مغول في قلب مدينة أولان باتور

وهؤلاء الذين يشبهون التايلنديين هم طائفة من المغول، وليسوا كلهم، وإنما الغالب عليهم أنهم مثل التايلنديين في المظهر العام، ولكنهم أغلظ أجساماً منهم، والغلظ في الأجسام أن تكون أعضاء الجسم وتقاسيم الجسم كبيرة من غير سمن.

وقد ذكرت عدة مرات سكان جنوب الصين عندما رأيت هؤلاء

المغول.

ويتميز الجنس المغولي في هذه البلاد بالأنف القصير، ولكنه ليس كالأنف الزنجي الواسع المنخرين، بل المنخران لا يكونان في العادة

متسعين، وبروز الشفتين مع ضيق الفم، وتكون الوجنتان مرتفعتين والعينان ضيقتين، والفك عريضاً، وأحياناً يكون عريضاً جداً، والرقبة تميل للقصر مع صغر قليل في الرأس.

ويميل الجسم للبدانة في كثير من الأحيان، وإن لم يكن هذا قاعدة عامة.

ومن الصفات البارزة في الجنس المغولي ميل الوجه إلى الاستدارة، وإن كان ذلك أقل مما هو عند الجنس الصيني، ولكنه أكثر مما هو عند الجنس القوقازي الذي يعتبر الجنس العربي داخلاً فيه.

أما القامات فإنها أعلى من قامات التايلنديين والإندونيسيين، وإن تكن غير طويلة.

وعلى وجه العموم فإنه يمكن وصف الوجه المغولي بأنه كما لو كان صاحبه قد استلقى على الأرض فسار على وجهه شيء ثقيل ضغط عليه حتى اتسع وكبرت مساحته.

ولله في خلقه شؤون.

الكروف في غرفة الاستقبال:

كان الأخ قادر سيراني رئيس الجمعية الإسلامية قد دعانا على العشاء في بيته هذه الليلة، وأخبرنا بذلك منذ قدومنا، وذلك لكون اللحم هنا كله لا يجوز أكله، لأن أهل البلاد ليسوا من أهل الكتاب الذين تحل ذبيحتهم حتى ولو كانت حلالاً في الأصل مثل الغنم والبقر، إضافة إلى ما يخشى من اشتباهه بلحم الخنزير، لذلك لا بد للمسلم من أن ينظر في موضوع الطعام، وبخاصة من اللحم الحلال، وقد فوضنا أمر طعامنا

وكيفية تناوله إلى الأخ (قادر).

مر علينا في الفندق في الثامنة مساءً ولم تغرب الشمس بعد، فحملنا بسيارته إلى حي غير بعيد، حيث وجدنا بيته شقة مستأجرة من الحكومة بثمن بخس بالنسبة إلى دخولنا نحن، ولكنه كبير بالنسبة إلى دخول أهل البلاد، وتدني قيمة عملتهم الوطنية، فذكر أن أجرته في الشهر تساوي دولارين اثنين بالسعر الذي يباع به الدولار في السوق السوداء، وإن كانت تبلغ عشرة دولارات بالصرف الرسمي، غير أن النظر إلى ذلك مجرداً عن الاعتبارات الأخرى من قيمة العملة في البلاد، ومن حجم الرواتب لا يعطي الفكرة الحقيقية عن القيمة الصحيحة للدولار، لأن رواتبهم متدنية جداً إذا قورنت بقيمة الصرف الحاضر للدولار في السوق السوداء، وحتى بقيمة الدولار بالصرف الرسمي الحكومي، فمثلاً رئيس الجمهورية في هذه البلاد، واسمه (روجربت) يتقاضى راتباً مقداره خمسة آلاف توقرست في الشهر، والتوقرست هو اسم العملة الوطنية عندهم، ويساوي هذا المبلغ ١٢٥ دولاراً بالسعر الرسمي الحكومي للدولار، غير أنه لا يساوي إلا (٢٥) دولاراً إذا صرف الدولار في السوق السوداء، فهو نزر قليل على أي جهة وجهته، لأن سعر الدولار بالصرف الرسمي هو (٤٠) توقرست، وبالصرف الحر (٢٠٠).

ويمكن أن تقاس رواتب باقي الموظفين، وبخاصة الصغار منهم على هذا الأساس.

ونعود إلى العنوان وهو وجود الخروف في غرفة الاستقبال، إذ عرفنا أنه من عادة القازاق والمغول في هذه البلاد أن يقدموا الذبيحة حية ليراها الضيف.



المؤلف يضع يده على الخروف في قاعة الجلوس في منزل الأخ قادر سيراني

وينبغي على ضيف الشرف أن يمس الخروف ويمسح على ظهره ويدعو
لصاحبه، وقد فعلت ذلك.

كان منظر الخروف غريباً في غرفة الجلوس الضيقة بالنسبة إلى ما
نعرفه من أمثالها في بلادنا، وهو بين المقاعد والمائدة المعدة للطعام.

كان من الحاضرين في المائدة الدكتور (خلطاي بن سكاى) وهو أستاذ
في الجامعة، وعضو في الجمعية الإسلامية، وتخصصه في العلوم والتقنية، وأخ
شقيق للأستاذ قادر اسمه (بيرام).

ثم جاء ابن له صغير اسمه (صفر)، وذكر أن له أيضاً ثلاث بنات أسماؤهن
ليلى، وعسل، ورثيسة.

الأقط المغولي:

وجدنا على مائدة متعامنة مقدمات الطعام، ومنها جبن من صنع البيت، وأقط مغولي، وهو كالأقط الأعرابي عندنا سواء بسواء، وأذكر أنني رأيت مثيلاً له في مكان آخر، ذكرت أنه الجزء الجنوبي من بلاد المغول هذه الذي يسمى (منغوليا الداخلية)، وذلك عندما خرجنا إلى مسافة مائة كيلو متر من العاصمة (خوخاخوت) لكي نزور مخيماً للمغول، ورتب الإخوة المسؤولون في الجمعية الإسلامية في تلك المدة لنا غداءنا في ذلك المخيم، فأحضرت فتيات كن يخدمن فيه (أقطاً) لم يستطع المترجم أن يترجم لنا اسمه بالنص، وإنما ذكر صفته بأنه لبن يطبخ بعد أن تؤخذ منه زبدته ثم يجفف، فلما ذقته بعد أن سمعت وصفه قلت: هذا هو الأقط، وهو الذي يسمى (المضير) في بادية الحجاز.

ولاحظت أنه أكثر صلابة من (بكرية) الأقط عندنا، وهي أول الأقط في أول الربيع، وهو المسمى عند عامة بني قومنا (النجيش)، وأقل صلابة من الصريب وهو الأقط في آخر الوقت يكون صلباً حامضاً.

وقد أحضر أيضاً سلطة خضراء كالتي تكون في بلادنا ويقدر وافر.

وربما كان تعود على هذه السلطة الخضراء المخلوطة من بقائه في مصر مدة عمله فيها، لأنه ليس من عادة أهل هذه المنطقة أن يأتوا بهذه السلطة على هذه الكيفية.

وحدثنا الأخ قادر سيراني عن نفسه قال: كان أبي سكرتير الحزب الشيوعي في المحافظة، فقاطعته سائلاً هل تظن أنه يعتنق الشيوعية عن اقتناع أم ما هو السبب في كونه يصبح سكرتيراً للحزب الشيوعي في محافظته؟

فأجاب: إنه ليس الدافع لذلك اعتقاد الشيوعية، وإنما هو الخوف من السلطة، ثم محبة الوظيفة والظهور بمظهر من تكون له أهمية عند رجال الإدارة.

قال: ولم أسمع بأي شيء عن الإسلام، بمعنى أنني لا أعرف أي حقيقة من حقائق الإسلام، وإن كنت أعرف أننا مسلمون، فلم يقل لي أحد شيئاً حول تمييز المسلمين بإسلامهم عن غيرهم من الناس.

قال: وسافرت إلى موسكو للدراسة، فدرست فيها اللغة العربية والعلاقات السياسية لمدة خمس سنين.

فعينت في سفارة منغوليا في القاهرة لكوني أعرف العربية، قال: ولأول مرة في حياتي سمعت الأذان، وكان عمري آنذاك ٢٤ سنة، فقبل لي: إن ذلك من أجل الصلاة، وإنها تؤدي خمس مرات في اليوم والليلة، فاستكثرت ذلك، لأنني لم تكن لدي أي معرفة بشيء من أمور الإسلام.

ثم صرت أتردد على أحد المشايخ في مصر أتعلم عليه كيفية الصلاة وبعض الأمور الدينية المهمة، ومن هنا شرح الله صدري، وراسلتكم في رابطة العالم الإسلامي، وطلبت منكم استقبالي في الرابطة، فوردت إجابة الرابطة بالترحيب بي وباستضافتي في مكة المكرمة، وأرسلت إلي تذكرة للسفر ذهاباً وإياباً، وهكذا بدأت معرفتي بالإسلام مع أن آبائي وأجدادي من المسلمين القدماء.

أكلة الأصابع الخمسة:

كان الأخ قادري يقص علينا قصته ونحن نتناول مقدمات المائدة، وعندما فرغنا منها كان أخوه يحضر الطبق الرئيسي من الطعام،

ويسمونه (بيش برمق) ومعناه: الأصابع الخمسة، فهم يسمون النوع من الطعام الذي أحضروه بأكلة الأصابع الخمسة، وذلك أنه يؤكل باليد كلها، وهذا معنى قولهم الأصابع الخمسة مما ذكرني بقول أحد الشعراء الفكاهيين:

اضرب بخمسك لا تأكل بملعقة إن الملاعق للنعماء كفران

وليس ما ذكره في البيت صحيحاً من حيث كراهية الأكل بالملعقة، فضلاً عن أن يكون من كفر النعمة الذي هو ليس كفر العقيدة، وإنما ذلك من باب المداعبة والمطايبة.

وأكلة الأصابع الخمسة مؤلفة من لحم الغنم اللذيذ المسلوق مع رقائق من خبز البر تشبه المرقوق عندنا، ويكون اللحم فيها كثيراً، بل يكون عماد الوجبة.

وقد أمعنا فيها أكلاً بأصابعنا الخمس، لأننا لم نأكل وجبة غداء ثقيلة اليوم، وكان معها حساء دسم لذيذ أيضاً، ثم الشاي والقهوة وشيء من الفاكهة المستوردة وهي هنا غالية جداً.

الجمعة الأولى:

عرض علينا الأخ (قادر) شريطاً تلفزيونياً مسجلاً عليه مشاهد من إقامة صلاة الجمعة لأول مرة منذ أكثر من ستين سنة في هذه البلاد، وذلك في ولاية بيان أولكي عندما حضر إليهم أخ من الإخوة من أهل الهند المقيمين في لندن، وينتمي إلى (مجلس خدام الدين) هناك، وقد تولى الترجمة من الأوردية إلى لغتهم الطالب الأفغاني الوحيد الموجود في بلادهم.

وقد أقاموا الصلاة في أحد النوادي، لأنهم كانوا قد بدءوا ببناء أول مسجد

بعد سقوط الشيوعية منذ قليل من الوقت، وقد كانت المشاهد مما يبعث على التأثر حقاً، إذ يظهر فيها الشيوخ الطاعنون في السن وهم يبكون متأثراً من عودتهم إلى الصلاة بعد المنع البات، والأطفال يصغون وهم فاغرو الأفواه، إذ يسمعون بذلك لأول مرة، وبعض المصلين يتلفتون أثناء الصلاة لأنهم لا يعرفون أن ذلك لا يجوز، وإن كانوا تعلموا كيفية الصلاة تعلماً أولياً قبل أيام.

ونساء ورجال من المسلمين جلسوا مختلطين على كراسٍ يراقبون، لأنهم لم ينقادوا للصلاة في أول الأمر، وذكروا أن بعضهم جاؤا بخيولهم من مسافات بعيدة لحضور صلاة الجمعة الأولى بعد الشيوعية.

يوم الأربعاء ١١ / ١١ / ١٤١٢ هـ - ١٣ / ٥ / ١٩٩٢ م

يوم بارد:

أصبحنا على برد شديد، أعقب ليلة باردة حتى إننا لم نكد ننام من البرد، لأنهم لم يشعلوا المدافئ في الفندق، إذ لا يعتبرون هذا برداً يستوجب ذلك، وعندما جاء الأخ (قادر سيراني) هذا الصباح وسألته عن البرد قال: إن البرد ليس شديداً، إن درجة الحرارة ليست أقل من واحدة أو اثنتين فوق الصفر.

وكنت البارحة نمت وأنا ألبس الجبة البخارية، ووضعت عليّ جميع ما طالته يدي مما يتغطى به في الفندق.

وقد ذهبنا مع الأخ (قادر) إلى مكتب الخطوط المنغولية من أجل الحجز لنا ما بعد موسكو، لأننا سنسافر من هنا إلى موسكو بإذن الله، ومن هناك نعود بعد يوم إلى بلادنا، فوجدنا في المكتب جمعاً من الناس ضاق بهم، ولكن كانت فيه تدفئة، وحجزنا منه إلى موسكو.

وعندما مسني البرد قلت للأخ قادر: إن بلادكم أبرد من سيبيريا!

فقال: قد يكون هذا الآن، ولكننا في الشتاء أكثر دفئاً منها، لأن درجة الحرارة في (إيركوتسك) تصل إلى ٤٠ درجة تحت الصفر، وفي مدينتنا هذه تكون ٣٥ درجة تحت الصفر!

وقال: إنني عشت في (إيركوتسك) في سيبيريا، لأنني تعلمت اللغة الروسية فيها، وأعرف تلك اللغة جيداً، هكذا قال: ولكنني لاحظت أن أكثر الناس قد لبسوا ثياباً ثقيلة، وإن لم تكن في ثقل الثياب التي يلبسها الأوروبيون عندما تكون درجة البرودة في هذا المستوى.

سمة الدخول إلى روسيا:

كنا حصلنا من القنصلية الروسية في جدة التي صارت تمثل جميع الدول المستقلة التي كانت تابعة للإتحاد السوفيتي في السابق على سمة دخول إلى هذه الدول، إلا أننا خرجنا منها عندما وصلنا إلى (منغوليا) التي وإن كانت دولة شيوعية في السابق، فإنها كانت مستقلة اسماً، وكانت تدور في فلك الإتحاد السوفيتي، ولذلك لا بد من سمة دخول جديدة حتى نتمكن من أن نمر بموسكو ليوم واحد.

ذهبنا مع الأخ (قادر) إلى القنصلية الروسية، وتقع في (فيلا) كبيرة ذات فناء واسع، ولا يفتح بابها الخارجي الواقع على الشارع إلا بعد أن يتعرف الموظف في الداخل عليه من خلال جهاز فيفتح له بالكهرباء وهو في مكتبه إذا كان يريد أن يسمح له بالدخول.

وقد كلمه الأخ (قادر) باللغة الروسية، وعرفه بنا ففتح لنا الباب الخارجي، ثم لم يفتح الباب الداخلي إلا بعد أن رأنا الموظف، وكنا مررنا بحواجز من القضبان الحديدية مع طريق متعرج، عندما كلمه الأخ (قادر) بخصوصنا أمرنا بالانتظار لفترة من دون أن يأخذ جوازاتنا، ولما كان ذلك يضيع علينا وقتاً ثميناً، لأننا لاحظنا أنه لم يكن لديه أحد غيرنا إلا واحد خرج وبقينا عندهم.

ثم جاء بعدنا أناس من المواطنين المنغوليين، فأنهاى لهم مطلوبهم، وخرجوا، وقيل لنا: إنهم كانوا قد جاؤوا أمس، ولم يكن يزيد على قوله لنا: انتظروا بدون تفسير، ثم قال حينما أكثرنا عليه: إن القنصل مجتمع مع نائب القنصل، ولذلك هو مشغول.

في برطان منغوليا:

كان موعدنا للاجتماع بالأخ (زردخان كيناجاتين) نائب رئيس البرلمان

قد أذن فتركنا جوازاتنا في القنصلية الروسية على أمل العودة إليها بعد الفراغ من اللقاءات في البرلمان.

ونائب رئيس البرلمان هو من الإخوة المسلمين من أصل قازاقي، ومن الشخصيات المعروفة في هذه البلاد، وقد استقبلنا الأخ نائب رئيس البرلمان في مقر البرلمان وهو مبنى ضخم واقع على الميدان الرئيسي المسمى (سوخاباتور) أي البطل الأحمر، ويقول بعضهم هنا: إن هذا الميدان الأحمر يشبه بالميدان الأحمر في موسكو الذي يقع عليه الكرملين.



مع نائب رئيس البرلمان المنغولي في مبنى البرلمان

ولكن الحمرة هنا معنوية، يراد بها الحمرة الشيوعية، وحمرة ميدان موسكو يراد بها الجمال، فالأحمر هو الجميل عندهم، وقد سمي الميدان بهذا الاسم (الميدان الأحمر) قبل قيام الدولة الشيوعية.

رحب بنا نائب رئيس البرلمان، ولم نجد معه إلا موظفين اثنين كان أحدهما يسجل ما يدور من حديث بيننا، وبعد التعارف وعبارة المجاملة أحضر

لنا القهوة وهي أول قهوة يحضرها لنا موظف في بلد شيوعي غير القهوة التي تقدم في البيوت، على حين أن أهل الصين الشيوعية كلهم يقدمون في الدوائر الحكومية الشاي الصيني لضيوفهم، وهو الشاي الخالي من السكر.

وقد شكرته على ترحيبه بوفدنا، وبلغت تحيات المسؤولين في رابطة العالم الإسلامي، وكذلك أعضاء مجالس الرابطة الذين يمثلون المسلمين في معظم أنحاء العالم، وكذلك تحيات إخوته المسلمين في الأراضي المقدسة، ورغبتهم في توثيق العلاقة والتعاون مع الإخوة المسلمين في منغوليا، واعتزاز المسلمين بوجوده في هذا المنصب الرفيع.

ثم وجهت إليه الدعوة لزيارة الأراضي المقدسة وأداء مناسك العمرة ضيفاً على رابطة العالم الإسلامي، وقد شكر نائب رئيس البرلمان وفد الرابطة على زيارة البلاد، والدعوة التي قدمها له، وأشار بأنه سيستجيب للدعوة

ثم تحدث عن منغوليا قائلاً: بأن علاقة منغوليا كانت مع روسيا فقط قبل عام ١٩٨٩م، وكان الحكم شيوعياً، والدين محظور حتى ابتعد المسلمون عن دينهم، مع أن عدد المسلمين يزيد عن ١٣٠ ألفاً، والآن أخذ المسلمون يستعيدون نشاطهم، فقد زال الحظر المفروض على الدين، وتأسست الجمعية الإسلامية رسمياً في فبراير ١٩٩٢م، وتجد التأييد الرسمي على أعمالها.

وقال: الوضع العام صعب جداً في منغوليا، وخاصة الوضع الاقتصادي سيئ جداً، فالبلاد غنية، ولكن روسيا كانت تزودهم بكل الاحتياج، ولم يعمل الشعب المغولي للاستفادة من ثروات بلاده، وعندما توقفت الواردات من روسيا توقفت الحياة أو كادت تصبح كذلك.

والأوضاع السياسية غير مستقرة، ومنغوليا تقع بين دولتين كبيرتين هما الصين وروسيا، ويهمها أن تطور علاقاتها مع جميع بلدان العالم، ومنها

البلدان الإسلامية، وستكون جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية جسراً بينها وبين العالم الإسلامي، وقد بدأنا العلاقات مع بعض بلدان العالم الإسلامي مثل تركيا، وسلطنة عمان، ولنا علاقات سابقة بمصر، وهنا سفارة لجمهورية أفغانستان، ونتطلع إلى علاقات وثيقة مع المملكة العربية السعودية.



تذكارية مع نائب رئيس البرلمان المنغولي وقد لبس العباة العربية التي أهديناها له

وقال: سيستفيد المسلمون - بلا شك - من هذه العلاقات، فبعض الأبناء يدرسون في تركيا، وبدأت الكتب الإسلامية تصل إلى منغوليا، كما أن هناك وفوداً إسلامية زارت بلادنا.

قضى الحكم الشيوعي على العلماء والمفكرين فيما بين ٢٧ - ١٩٣٨ ثم قتل ٣٧٠٠ شخصاً من العلماء والمثقفين في عام ١٩٣٧ بسبب تمسكهم بدينهم، وبتهمة صلتهم بأقرباء لهم في قازاقستان، لأن معظم القازاق المسلمين في منغوليا لهم أقارب في قازاقستان.

بدأ المسلمون يبنون مساجد لهم كما أدى في العام الماضي بعضهم فريضة

الحج، ويتوقع أن تقوم أيضاً مجموعة منهم بأداء فريضة الحج هذا العام، وهكذا بدأ المسلمون يستعيدون نشاطهم، وسيكون لهم مجدهم في المستقبل القريب.

وذكر أن الانتخابات العامة لاختيار أعضاء البرلمان ستكون في ٢١/٧/١٩٩٢ م، وسيشارك في هذه الانتخابات مسلمون، حيث سيتم اختيار اثنين من المسلمين ضمن ٧٦ عضواً هم أعضاء برلمان منغوليا، وبعد ذلك سيتم تشكيل حكومة جديدة في أول أغسطس ١٩٩٢، وأنه سيشارك في مؤتمر القازاق الذي سيعقد في المآتا بقازاقستان في أواخر سبتمبر ١٩٩٢ م.

وقد شكرته على هذا الإيضاح مؤكداً استعداد الرابطة للتعاون مع جمعية مسلمي منغوليا لما فيه خدمة المسلمين، وقلت له: إن الوفد سيقدم إليها بعض المساعدات المالية لبعض أنشطتها، ثم تمنيت له النجاح في الانتخابات القادمة، وانفقنا معه أن تكون زيارته إلى الرابطة في شهر أوكتوبر ١٩٩٢ م.

مع رئيس شؤون الأديان:

كانت الفقرة التالية في البرنامج هي زيارة رئيس شؤون الأديان في (منغوليا)، ورئيس شؤون الأديان في البلدان المنغولية في مرتبة وزير، ويعتبر عندهم من أهم الوزراء، لأنه ليس المراد بوزارة شؤون الأديان أن تقوم تلك الوزارة بمساعدة القائمين على شؤون الأديان أو نشرها، وإنما بمراقبتهم وإبقائهم تحت السيطرة، أو على الأدق المراد بذلك مراقبة الأديان، وعدم نشرها، بل عدم وجودها، إلا في أنفس أهلها، بمعنى أن مهمتها هي الوقوف في وجود الأديان وجوداً فاعلاً.

ولكن الطغيان الشيوعي قد توقف الآن، بل إن الشيوعية قد سقطت من أساسها، وإن لم يسقط بعض الشيوعيين في أشخاصهم، وإنما غيروا جلدتهم بأن

تركوا مقتضيات الشيوعية من نشر الإلحاد ومحاربة الأديان، وأطلقوا على أحزابهم أسماء جديدة تتلبس بالديمقراطية والتخلي عن التعسف الشيوعي، الذي كان يرين على البلاد، وبذلك أصبحت وزارات شؤون الأديان فيها تتقرب الآن إلى أهل الأديان، بعد أن كانت تقف ضدهم، وتمنحهم الأراضي لبناء المساجد والمعابد، ولهذا السبب كانت زيارة هذا الشخص المسؤول عن شؤون الأديان في منغوليا مهمة.

كان المكتب الذي استقبلنا في هذا المبنى الضخم الذي يقع فيه البرلمان، وهو واسع لم نزد على أن نزلنا في مصعد فيه إلى الطابق الأرضي، ثم اجتزنا ممرات وردحات حتى وصلنا قاعة مستطيلة عليها مائدة اجتماع مجهزة بالسماعات التي لم نحتج إليها، إذ استقبلنا رئيس شؤون الأديان وحده ليس معه إلا موظفان، وأحضر الشاي لنا، ثم عقدنا فوراً اجتماعاً في هذه القاعة، واسمه: غورجافين لها غفاسور Gurjavyn Ihaqvasur، واسم وظيفته مستشار رئيس جمهورية منغوليا، ومنسق مجلس الوزراء لشؤون الأديان، وهو مغولي الأصل، وقد رحب المستشار بنا، فشكرته على حسن استقباله، وذكرت له رابطة العالم الإسلامي ونشاطها وأعمالها في خدمة المسلمين، وخاصة في ميدان الثقافة الإسلامية، لأن الدين ليس هو علاقة الإنسان بربه روحياً فحسب، بل هو علاقة وثقافة وفكر، وقلت له إن المسلمين لهم علاقة عريقة مع المغول في التاريخ، فعندما خرج المغول مع جنكيز خان إلى البلاد الإسلامية كانت لهم أعراف وتقاليد خاصة، وعندما استقر بهم المقام في بلدان إسلامية بعد غزوها واحتلالها دخل جماعات منهم الإسلام، وكان لهم إسهامات في تنشيط الثقافة الإسلامية أكثر مما خربها أجدادهم وآباؤهم، وقد استعان بعض ملوكهم بالمسلمين في تصريف أمور الدولة كما حدث في الصين، فكان لهم وزراء ومستشارون، وبسبب إسلام بركة خان حفيد جنكيز خان وصل الإسلام إلى

القولقا وأوروبا الشرقية ولا يزال الإسلام هناك.

ولا تزال كتبنا تتحدث عن المغول ربما أكثر مما تتحدث كتب المغول عنهم، وعندما وصلنا إلى منغوليا شعرنا بعمق العلاقة التاريخية والثقافية مع شعب المغول، فدولة المغول في الهند كان لها فضل كبير في الحضارة الإسلامية والإنسانية التي تتجلى من الآثار التي خلفها المغول المسلمون في الهند.

ونقرأ في كتبنا بأن (منغوليا) مقر الديانة البوذية، ونعرف أن المغول البوذيين لهم ثقافة وتقاليد عريقة... وقد علمنا بأن المسلمين يتمتعون بحريتهم الآن في بناء المساجد، وإمكانية نشر الثقافة الإسلامية، وممارسة شعائرتهم الدينية.



تذكارية مع نائب رئيس شؤون الأديان في منغوليا في مكتبه

ونحن نشكر حكومة منغوليا الحاضرة على ما يلقاه المسلمون من رعاية، ونعتبر أي معاملة حسنة للمسلمين هي بادرة حسنة نحو المسلمين في العالم... وليس للمسلمين المغوليين فقط... ولا شك أن هذه المعاملة الحسنة لها

أثر طيب في العلاقات مع العالم الإسلامي، وبخاصة المملكة العربية السعودية. ونشكر معالي المستشار على هذه المقابلة الطيبة، و نرجو أن يبلغ شكر الرابطة وأمينها العام إلى فخامة رئيس جمهورية منغوليا على ما يتمتع به المسلمون هنا من حرية.

وعلق مستشار رئيس الجمهورية لشؤون الأديان على ذلك بالشكر قائلاً: إنه سوف يبلغ رئيس الحكومة بهذا الحديث الشيق عن الإسلام في منغوليا... ولا بد من تطوير العلاقة مع العالم الإسلامي.

وأشار إلى أن الإسلام وثقافته وعلماءه لهم تأثير على الثقافة والتقاليد المغولية، مثلاً لا يزال المغول يقرؤون تاريخهم من كتب رشيد الدين الهمذاني، وجلال الدين متكبرتي وغيرهما حتى الآن.

إن القازاق الذين يعيشون في منغوليا هم جزء من الشعب المغولي، وهم يتمسكون بدين الإسلام، ولا يمكن أن تكون لهم حرية بدون أن تكون لهم حرية في ممارسة دينهم الإسلامي.

إن إنعاش النشاط الروحي يعتمد على الأساس الديني، وليس على أساس سياسي، ومن المهم تطوير النشاط الإسلامي في منغوليا من خلال التعليم والثقافة وبناء المساجد، قال: إن المسلمين يحرصون بالشكر رابطة العالم الإسلامي لمساعدتها في هذه المجالات.

وقبل ثلاثة أشهر اعتمد البرلمان الدستور الجديد لمنغوليا، وطبقاً لهذا الدستور فقد تم ضمان الحرية الدينية... ولكن الدين الأساسي الذي اعترف به الدستور هو البوذية للمغول، والإسلام للقازاق، فهما الدينان الرسميان في البلاد فقط، ولا يوجد فيها دين آخر غيرهما.

الحصول على سمة الدخول:

عدنا بعد المقابلات التي تمت في مبنى البرلمان إلى القنصلية الروسية ولم نجد الموظف صنع شيئاً ولم يمكننا من مقابلة القنصل ولا نائبه ولكنه أذن لمرافقنا الأخ (قادر سيراني) بالتحدث بالهاتف من داخل القنصلية مع القنصل. وتبين لنا أن كل هذا التأخير إنما هو للبحث عن شيء يأخذونه منا وقلت للأخ قادر: إن وقتنا ثمين ونحن مستعدون لدفع شيء لهم إذا كانوا لا يمنحوننا السمة إلا بذلك. فقال: إن القنصل ذكر لي أنه قد يحتاج إلى طلب الأذن من وزارة الخارجية في موسكو وهذا يحتاج إلى وقت طويل ونفقات الإرسال عليكم إلا إذا رأيتم أن نعاملكم معاملة الآخرين كما قال: بأن تدفعوا (٢٠) دولاراً للجواز (الدبلوماسي) الذي هو جوازي و(٥٠) دولاراً لكل جواز من الجوازين الآخرين لأنهما غير (دبلوماسيين).

ومع أن الجواز السياسي لا تؤخذ في العادة على السمة التي تمنح لصاحبه نقوداً مثلما صنعت سفارتهم في بلادنا عندما منحتني سمة دخول (دبلوماسية) مجانية فقد وافقنا على ذلك ودفعنا المبلغ له فأعطونا بسرعة سمة دخول لمدة خمسة أيام صالحة للدخول بالقطار أو الطائرة لأنه لا وسيلة أخرى للوصول إلى موسكو غيرهما والقطار يحتاج إلى خمسة أيام ولم يكن لنا هدف في موسكو إلا البقاء يوماً واحداً للاتصال بسفارة بلادنا ومقابلة السفير السعودي هناك الدكتور عبد العزيز خوجه وبالشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا فقد واعدناه على ذلك وأرسل الأخ (قادر) برقية لكل واحد منهما بموعد وصولنا في ضحى الغد إلى موسكو. وقال أحد الإخوة المرافقين: إن المبلغ الذي أخذوه منكم وهو مائة وعشرون دولاراً يكفي راتباً لستة موظفين لشهر واحد

مأدبة الجمعية الإسلامية:

كان موعد مأدبة الغداء التي تقيمها الجمعية الإسلامية لوفدنا قد أرفه، وهو الواحدة ظهراً، ومكانه هو مقر الجمعية الإسلامية على شارع السلام المهم وجدنا في مقر الجمعية عدداً من الأعضاء الكبار فيها، والطالب الأفغاني الذي هو الطالب المسلم الوحيد الذي قدم من خارج منغوليا للدراسة فيها، ووجوده نافع هنا لأنه يترجم إلى لغتهم بعض الأشياء التي يحتاجونها من اللغة الأوردية، كما كان المترجم الوحيد فيما بينهم وبين الإخوة الذين قاموا على بناء أول مسجد في منغوليا بعد سقوط الشيوعية، وهم من الهنود الذين يقيمون في بريطانيا كما سبق.

كما حضرها أخ مسلم تركي قدم إلى هذه البلاد لينظر في موضوع استيراد جلود منها إلى تركيا، لأنه يعمل في الصناعات الجلدية ولديه مصنع في تركيا لهذا الغرض.



في مقر الجمعية الإسلامية في أولان باتور أثناء مأدبة الغداء

كان الجو بارداً، ولذلك عندما جاء الطعام دسماً حاراً كان له وقع حسن في أعيننا وفي نفوسنا، إن لم نقل في بطوننا.

وعماده الأساسي لحم الغنم اللذيذ السمين والحساء السمين أيضاً الذي فيه الشعيرية وقطع اللحم والشحم وهو دسم بدونها، ووجبة (الأصابع الخمس) وهي اللحم ورقاق الخبز المطبوخ معه، وأضيف إلى ذلك شيء غالي في هذه البلاد، ويعتبر من التحف فيها وهو السلطة الطازجة من الطماطم والخيار وعصير التفاح الذي يعاقبونه على الشاربين الآكلين، وهو محفوظ في زجاجات نظيفة، ومعه الماء المعدني المشبع بالغاز.

وقد أكلنا هنيئاً مع هؤلاء الإخوة الذين ضاقت بهم المائدة، وكان الحديث عن أشياء لم نكن نعرفها من قبل في هذه البلاد بصفة عامة، وعن أحوال المسلمين خاصة، حديثاً شيقاً مهماً لم يمكن الحصول عليه مع الاطمئنان إلى صحته من غيرهم.

إلى بلدة نالايخ:



قرية (نالايخ)

في الساعة الثانية ظهراً غادرنا العاصمة (أولان باتور) قاصدين بلدة (نالايخ) التي تقع على بعد (٥٠) كيلو متراً من العاصمة، وفيها عدد لا بأس به من المسلمين، حتى قال أحدهم: إنها بلدة مسلمين، والأمر ليس كذلك إذا نظرنا إلى عدد سكانها، إذ يقدرون بأربعين ألفاً بينهم ثمانية آلاف مسلم يؤلفون ٧٦٠ أسرة، وكان القصد من الذهاب إليها هو الاجتماع بالإخوة المسلمين من أهلها، ومساعدتهم على بناء مسجد فيها، يؤدون فيه صلواتهم، ويعلمون فيه أولادهم ما يلزمهم لأمر دينهم، لأنه ليس فيها مسجد، وهم مثل غيرهم من المواطنين أعجز عن أن يستطيعوا ذلك بأنفسهم.

وقد أخبرونا أن أهل القرية هم على وجه العموم من العمال الذين يعملون في منجم للفحم هناك، وقد استوطن أوائلهم القرية قبل ٦٠ عاماً وكان معنا سيارتان إحداهما سيارة رئيس الجمعية الأخ (قادر سيراني) التي يقودها بنفسه، وهي روسية من طراز (الادا)، ولكنها قوية لأن الروس أضافوا إليها ما يكسبها القوة والتحمل، وما يجعلها دفيئة لمواجهة البرد الشديد في بلادهم، والأخرى هي سيارة نائب رئيس البرلمان الأخ (زردخان كينا جاتين).

عندما فارقتنا مدينة (أولان باتور) صرنا نسير في أرض صحراوية ليس في أكثرها أي أثر للحياة ما عدا الخط الإسفلتي الذي لا بأس به لولا ضيق فيه، فتخيلنا بلادنا في خارج المدن والقرى لولا شيء واحد، وهو أن الأعشاب البرية قد باتت تطل رؤوسها الخضراء بعد سبات الشتاء الطويل، ومع ذلك ترعاها المواشي التي أخرجوها من مخابئها التي كانت فيها في الشتاء، وأطلقوها للرعي قبل ثلاثة أيام فقط، أما قبل ذلك فإنها لا تطلق لسببين، أولهما: أن الأرض ليس فيها شيء أخضر يرعى، وثانيهما: أن البرد شديد يقتلها إذا تعرضت له.

وذكرت بلادنا لسبب آخر، وهو أن أخانا (قادر) كان يسوق سيارته بسرعة مثلما يفعل سائقونا في الصحراء، عندما لا تكون هناك عوائق

للانطلاق في السير، ولا يكون هناك جديد يقع البصر عليه، بالنسبة إليهم
وكنت أظن أن قيادة السيارة بسرعة متناهية هي عادة للسائقين في
صحرائنا، إلى أن رأيت السائقين في صحراء موريتانيا الذين يكادون يطيرون
بسياراتهم على الخطوط المزفلة في الصحراء، واليوم هاأنا ذا أرى أن قيادة
السيارة في صحراء منغوليا هي كذلك.

ولذلك طلبت من الأخ قادر مثلما طلبت من سائق السيارة التي وضعتها
الحكومة الموريتانية تحت تصرفنا وهو (فلاني) ماهر أن يتمهل فيسير سيراً
معتاداً، وقد ذكرت ذلك في كتاب «**إطالة على موريتانيا**»، وقال لي
الإخوة المرافقون: إن وجه الأرض يصبح كله في الصيف أخضر، وذلك للدفء،
ولأن الصيف تهطل فيه الأمطار في العادة، بخلاف الشتاء الذي تنزل فيه الثلوج،
إلا أنهم قالوا: إن هذه الأعشاب الخضراء تموت في آخر الصيف، أي لا تنتظر حتى
يهلكها البرد والثلج، وربما كان ذلك لقلة المطر في أواخر الصيف.

وقد قابلتنا عدة سيارات من التي تسير على هذا الخط الإفريقي، وأكثرها
من سيارات النقل الروسية الخشنة، أو لنقل: إنها الغليظة غير الانسيابية لا في
مظهرها ولا في مخبرها.

الوجه المطروق:

قدمت القول في الوجه المغولي الأصيل أن أحسن وصف له أنه كالذي
استلقى صاحبه على ظهره، فجاءه من وضع على وجهه شيئاً ثقيلاً برفق ثم
ضغط عليه حتى انبسط الوجه، بمعنى اتسع في غير طول.

وعندما رأيت أبقاراً ترعى في هذه الأرض التي بدأت بإخراج المرعى من
بطنها، خيل إلي أن المغول كأنما وطئت الأبقار وجوههم فوسعتها.

ولا أقول: الإبل مع كونها أصدق وصف بذلك من البقر، لكونها ذات أخفاف واسعة، لأن الإبل لا توجد إلا في جنوب البلاد، أما في هذه المنطقة فإنها لا تقوى على الصمود لبردها، مع أن الإبل الموجودة في منغوليا كلها من ذوات السنامين التي تعيش في البلدان الباردة، ولكن (برد دون برد).

وقد ورد إلى ذهني الحديث الشريف الذي ورد فيه ما معناه: إنكم تقاتلون قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة، والمجان: جمع مجن، وهو الذي يتقي به المحارب ضربات السلاح التي يحملها خصمه بيده، والمطرقة هي التي ضربت بالمطارق - جمع مطرقة - حتى اتسعت.

وقد فسر بعض العلماء هذا الحديث بأنه المراد به الترك، وظني أن ذلك ليس هو المراد، وإنما المراد به المغول الذين هجموا على البلدان الإسلامية المزدهرة، مثل بلاد ما وراء النهر وخوارزم وفارس والعراق، حتى قتلوا الخليفة المستعصم بالله عند وصولهم إلى بغداد في عام ٦٥٦ هـ.

وهم الذين قاتلوا المسلمين قتالاً شديداً متميزاً، وكانت الغلبة في ذلك القتال لهم، حتى أذن الله لمن أذن له منهم أن يسلموا، وأن يصبحوا من أنصار الدين، وعلى رأسهم الملك (بركة خان) الذي أسلم وحاشيته، وكسر الله به ابن عمه الطاغية الكافر هولاكو، فهزمه بالحرب شر هزيمة، ولم تقم لهولاكو بعد ذلك قائمة، وبقيت آثار الملك (بركة خان) في مسلمي تارستان وبشكيريا وغيرهم في روسيا، بل في كل منطقة نهر إيتل (الفولقا) وبحر البaltيق.

وقفه في الصحراء:

طلبت أن يقف الإخوة في هذه الصحراء المغولية حتى أتأملها، وألتقط فيها صوراً تنكارية، وكان ذلك مما يجعلها كأنها هي صحراء العرب، لأنه لم يكن بقربنا ثلج ولا أشجار، ولا أثر للنهر الوحيد نهر (تول) الذي بنيت عليه العاصمة.

ورأيت راعي غنم قد أطلق لغنمه العنان - إن صح أن للغنم أعنة وأعنتها مجازية - وجلس متقبضاً من شدة البرد، والتقبض أن تجتمع أعضاء المرء إلى بطنه من البرد، وكان جلوسه تحت صخرة لجأ إليها ليتقي بها الريح الباردة.



الأغنام ترعى في صحراء منغوليا

ولاحظت أن هذه البلاد هي بلاد مراعي وماشية، ولكن ذلك له ثمن ضخم شاق، إذ يجب على أصحاب الماشية أن يخزنوا لها العلف فيجمعونه في الصيف لتأكله في الشتاء، وحتى الحيوان نفسه فإنه لا بد له من ملاجئ دفيئة يبقى فيها طيلة الشتاء القارص البرد.

ومررنا بسجن منفرد في هذه الصحراء الواسعة، وقال الأخ (قادر): إنه لم يبق فيه من السجناء إلا قليل، ومعلوم أنه كان فيه عدد كبير قبل ذلك، لأن كل من يخالف الشيوعيين يودعونه السجن إذا كانوا لم يحكموا عليه بالقتل. والأرض في مجملها مجموعة من التلال الحجرية، إلا أنها ليست كلها من الحجر الصلب، بل بعضها حجارتها رخوة ومختلطة بتراب.



في صحراء منغوليا

بُعد المزار:

مررنا بخط للسكة الحديدية، وصادف أن رأينا فيه قطاراً متجهاً
جهة الشمال الغربي، فذكروا أنه القطار الشهير الذي يربط الصين
بموسكو، أو لنقل: إنه يربط مدينة (بكين) عاصمة الصين بموسكو
عاصمة الروس في سير يمتد سبعة أيام إلى ثمانية، فذكرت بعد مزار هذا
القطار ومواصلته السير في الليل والنهار.

وقارنت في ذهني بينه وبين مزار العربي الذي مدح ناقته التي امتطأها
للوصول إلى هدفه مادحاً إياها بقوله:

فيا بعد ما بين الكلال وبينها ويا قرب ما يرجو عليها المسافر

وإذا ركب الراكب القطار من هذه المدينة (أولان باتور) إلى موسكو، كان
عليه أن يقضي خمسة أيام بلياليها في سير متواصل، حتى يصل القطار إلى موسكو.

وأخبرني الأخ (قادر سيراني) أنه سافر بهذا القطار إلى تركيا عن طريق موسكو وبلغاريا، فاحتاج إلى عشرة أيام من السير حتى وصل إلى إسطنبول.

هذه نالايخ:

وصلنا بلدة (نالايخ)، ونحن لم نشعر، وذلك لكونها لا توجد بها منازل عالية، بل معظم منازلها على هيئة خيام مغولية أو قازاقية التي تصنع من اللباد وقضبان الحديد، ومن الخشب ويوجد فيها قليل من المنازل المبنية من الآجر، ولكنها كلها تشترك في كونها من طابق واحد وتتشترك أيضاً في شيء آخر، ألا وهي أنها تكون مجموعات داخل سور واحد يجمعها كلها يكون من الخشب في أكثر الأحيان ومظاهر العوز والحاجة بادية عليها، وذلك أنها نشأت من أجل منجم للفحم قريب، فكلهم أو جلهم عمال في منجم الفحم هذا.

الاجتماع بالمسلمين:



تذكارية لوفد الرابطة بين الإخوة المسلمين في بلدة نالايخ قرب أولان باتور

وجدنا زعماء المسلمين في القرية مجتمعين في أحد البيوت أظنه مدرسة، واستقبلنا منهم أحد كبارهم وهو الأخ (خى بي رعلي) رئيس فرع الجمعية الإسلامية المنغولية في هذه البلدة.

جلسنا في غرفة لا بأس بسعتها في مكان الاستقبال الذي يقع أيضاً داخل حوش من الأخشاب، فابتدأ الأخ علي الكلام قائلاً: أرحب بكم باسم ثمانية آلاف مسلم قازاقي في بلدتنا هذه لكونكم قدمتم من مكة المكرمة، ونحن إخوة لكم في الدين، وكنا نكافح الشيوعية منذ سنين، وها نحن منذ سنتين بدأنا دراسة الإسلام في منغوليا، وعندنا نية بناء المسجد في هذه البلدة، ونحن مسرورون لوجودكم هنا، ونرجو مساعدتكم على بناء مسجد لأن الوضع الاقتصادي عندنا صعب، ولا نستطيع أن نبني مسجداً بأنفسنا.

وقد تكلمت فيهم بكلمة مبسوطه، بينت لهم الغرض من مجيئنا إلى منغوليا وأنه من أجل السلام عليهم، والاطلاع على أحوالهم ومساعدتهم في أمور دينهم، وأخبرتهم أنه يسر رابطة العالم الإسلامي أن تساعدكم على بناء المسجد، إلا أنها قد اعتادت على أن تقدم المساعدة للذين حصلوا على الأرض، وبدءوا بالعمل، وبالنسبة إليكم يكفي أن نعرف أنكم حصلتكم على أرض للمسجد لنقدم لكم المساعدة، لأننا نقدر الوضع الاقتصادي الذي تجتازه بلادكم، ونرجو أن نرى الأرض بعد اجتماعنا هذا، ونحن نحمل إليكم تحيات إخوانكم في الحرمين الشريفين الذين لم ينسواكم رغم بعد الديار وقلة الاتصال بيننا وبينكم.



أثناء الاستماع إلى كلمة المؤلف في بلدة نالاخ في منغوليا

ثم قلت لهم: إنه قد أتاحت لكم الآن فرصة لم تتح لأبائكم من قبل، ألا وهي فرصة تعلم دينكم الإسلامي الحنيف، فيجب على كل واحد منكم يستطيع فهمه وعقله أن يتعلم شيئاً عن دينه أن يفعل، ومن لم يستطيع فإنه يجب عليه أن يعلم أو لاده، لأن أولادكم أمانة في أعناقكم، ويمكنكم الآن أن تعلموا أولادكم فتجمعوهم في أي مكان، وليس من الضروري أن يكون مدرسة منظمة حتى يتسنى لكم الحصول على مدرسة مناسبة، وإذا بنيتم المسجد بإذن الله، فيجب عليكم أن تبنوا معه مكاناً صالحاً للدراسة حتى ولو كان غرفة كبيرة وإذا لم يمكنكم ذلك فإنه يمكن أن يدرس الأولاد في المسجد نفسه إلى حين بناء مكان مناسب لهم.

ثم دعوت لهم بأن يبسر الله لهم الحج إلى مكة المكرمة فأكثروا التأمين، وبعضهم اغرورقت عيونهم بالدموع، ولم يعرفوا كيف يؤمنون على الدعاء، ثم قلت لهم: إن الحج لمن استطاع إليه سبيلاً، والسبيل هي الزاد والراحلة

التي هي تذكرة السفر بالطائرة، ونفقة الحج، ومن لم يستطع ذلك فإنه ينتظر حتى يبسر الله له أمره، وتتوفر لديه القدرة على الحج، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾

كنت أتأمل هؤلاء الإخوة وأكثرهم من الكهول وكبار السن، فأرى أن الجو قد فعل في وجوههم ما فعل من القشف إلى جانب شظف العيش وقسوة الحياة، ورأيتهم لا يزالون يرتدون أحذية من الجلد أو المطاط ذات رقاب عالية تصل إلى الركبة، ورأيت على أحدهم غطاء على رأسه يشبه الغطاء الأحمر الذي على رأسي، إلا أنه من الجلد، أي أنه (غتره) من الجلد، وذلك لشدة البرد عندهم، مع أن هذا اليوم ليس بشديد البرد الآن.

وكان أكثر هؤلاء الإخوة يبدون مبهورين وهم يرون إخواناً لهم جاؤا إليهم من مهابط الوحي في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولا يكادون يصدقون ذلك، لذلك لاحظت أن أكثرهم لا يرفع بصره عن وفدنا ينظر بدون أن يمل النظر.

وبعد الانتهاء من إلقاء الكلمات صافحناهم كلهم فرداً فرداً، ورأيت فيهم شيوخاً، فرأيت في وجوههم المعاناة المادية والمعنوية، فصرنا نحتضنهم ونقبلهم وصرنا أسألهم عن أسمائهم الخاصة وأسماء أولادهم، وعن أحوالهم الدينية، فكان هذا مدعاة رضى لهم.



صورة تذكارية لوفد الرابطة مع بعض كبار المسلمين في بلدة
نالايخ

إلى أرض المسجد:

خرجنا من هذا الاجتماع فسرنا مع جماعات من الإخوة أهل القرية على الأقدام تشير أقدام الجميع غباراً خفيفاً، لأن الأرض حديثة عهد بمطر، ولولا ذلك لكان الغبار فيها يستر الشخوص مثلما كان ذلك في قرانا العربية قبل التمدن الأخير.

وقد اخترنا السير على الأقدام لصعوبة سير السيارات فيها كما جربنا ذلك عند الانصراف، وذلك لكونها ليس فيها شوارع مستقيمة، ولا أزقة متعامدة، وإنما هي ممرات شبيهة بالشوارع، أو هي شوارع جعلت للمرور من دون تخطيط، ماعدا الرئيسية منها فإنها واسعة، ولكنها كما يبدو من حالها أنها رسمت من أجل استطراق الدواب والإنسان، وليس من أجل السيارات، وذلك لقلّة السيارات عندهم أو ربما صح القول إنه لعدم وجودها عند أهل القرية.



في نالاخ يضعون أختاء البقر على أسوار الأعواد لتجف فيوقدون بها

ولشيء مهم آخر وهو أن أرض هذه الشوارع والأزقة فيها من الحضر والأماكن المرتفعة ما يمنع من سير السيارات فيها، وقل أن يجد المرء زقاقاً واحداً فيها من دون أن تكون فيها حفرة، إما من مجرى الماء المطر أو مجرى ماء خارج من أحد البيوت أو لغير ذلك.

ورأيت على حيطانها ما رأيته من حيطان بعض قرى الهند، وكان موجوداً عندنا في القرى قبل التمدن الأخير، وهو أختاء البقر - جمع خثي وهو رجيع البقرة أو برازها - قد رصعوا بها الحيطان من أجل أن تجف هذه الأختاء وتستعمل في الوقود.

وتذكرت أن هذه الأختاء تكون مرتعاً للذباب والحشرات في البلدان الحارة، غير أنهم في هذه البلاد قد كفاهم الله ذلك بسبب برد بلادهم، فلا تعيش فيها الحشرات الطائرة إلا خلال فصل الصيف القصير.

وقفنا ملياً عند الأرض المخصصة لبناء مسجد عليها، وليست واسعة رغم

كون القرية في صحراء واسعة خالية من النبات، ولكن أزقة القرية الداخلية ليست واسعة أيضاً، رغم سعة الأرض حول القرية.

وقد تكلمت مع الإخوة المسلمين من أهل القرية الذين تجمعوا حولنا فنكرت لهم أن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لدفع إسهام عاجل من نفقات مسجد على هذه الأرض سوف نتبعه بإسهام آخر، وأن عليهم أن يبذلوا جهدهم في إقامة أول مسجد في هذه القرية.

واقترحت عليهم أن يسموا المسجد (مسجد مكة المكرمة) آخذاً من كون وفدنا القادم من مكة المكرمة هو الذي بدأ بدفع معونة على بنائه، وهو أول من وقف على أرضه من غير أهل البلاد، ودعوت الله تعالى وهم يؤمنون بأن يوفقهم للخير، وأن يجعل مستقبل حياتهم خيراً من ماضيها، وأن ينصر بهم الإسلام والمسلمين، ثم أوصيتهم بأن يعتنوا بأبنائهم حتى يكونوا خيراً للإسلام منهم.



تذكارية مع أهالي قرية نالايخ على أرض المسجد

وقد شارك في الحضور نساء من نساء القرية، وأطفال من أطفالها، اقترح بعضهم التقاط صورة مع الوفد على أرض المسجد التي هي واقعة بين شارعين من شوارع القرية، فكانت هذه الصورة.

وأعلننا لهم تبرع رابطة العالم الإسلامي للمسجد بألفين وخمسمائة دولار، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى مستوى الدخول عندهم.

في خيمة قازاقية:

وإن شئت الدقة قلت: إنها خيمة مغولية، فنحن هنا في بلاد المغول أهل الخيمة، ويجمع بين المغول والقازاق كونهما كليهما في الأصل من الرعاة، وكلا الشعبين يسكن في بلاد صحراوية أو شبه صحراوية، توجب عليهم التنقل في طلب الرعي والكأ، وكلاهما يسكن في بلاد باردة بل قارسة البرد، لذلك لا بد أن يقضي فترة من فصل الشتاء مستقراً في خيمة سميكة دافئة، لأنهم لا يمكنهم التنقل بماشييتهم في درجة حرارة تنزل إلى ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر، ولقد تقاربت خيام المغول مع خيام القازاق بدافع الحاجة وتشابه البيئة، أما إذا كان القازاق في بلاد المغول فإن التقارب يكون أكثر.

فالخيمة التي سنذهب إليها الآن هي قازاقية على الشكل المغولي.

انتقلنا سيراً على الأقدام من الأرض المخصصة للمسجد، فسالطنا عدة أزقة من أزقة القرية التي تتخلل المساكن العامة على هيئة مجمعات سكنية من غرفة واحدة أو من خيام، كل عدد من هذه المساكن واقع وسط سور عام يضمه مع مثيلاته طبقاً للعادة المتبعة في هذه البلاد المغولية.

ودخلنا حوشاً من هذه الأحوشة، وإن شئت الدقة قلت إنه فناء مكشوف تتجمع فيه الخيام على هيئة صفوف، كل خيمة هي مسكن مستقل بذاته يسكنها رجل وأسرته.

وهذا الفناء الخارجي له باب يغلق كما تغلق أفنية البيوت الخاصة.

وجميع أسوار الأحواش أو الأفنية هي من الأخشاب أو الزنك، وليس فيما رأيناه منها ما هو مبني بالإسمنت أو الآجر.

كان الإخوة المسلمون الكرام يتقدموننا حتى أدخلونا خيمة من هذه الخيام التي هي منزل خاص دائم.

عندما دخلنا الخيمة وجدنا أن باطنها يخالف ظاهرها، فهو يبدو كخيمة بيضاء من الظاهر، ولكن تبين أن باطنها يبدو كالغرفة الكبيرة المؤثثة، وهي دفيئة جداً، وإنما الوقود داخلها من الحطب ومن الفحم الحجري الذي يوجد عندهم بكثرة، وبثمن رخيص، وقد جعلوا فوق الموقد فيها أنبوبة يخرج منها الدخان إلى خارج الخيمة كأنها أنبوبة المدفأة.

وحيطان الخيمة وسقفها مبطن باللباد السميك الذي يأخذه من أصواف أغنامهم ذات الصوف الكث الذي يقيها برد الشتاء القارس.

قواعد الخيمة:



داخل الخيمة: الرجال يشربون الشاي تسكبه لهم المرأة

وقفت عندما دخلت حتى أشار صاحب الخيمة أو لنقل صاحب البيت وهو

الأخ (خي بيكي) إلى المكان الذي ينبغي أن أجلس فيه على لباد سميك من الصوف، فوقه بعض الحشايا الخفيفة من القطن، وأراد بعض الإخوة أن يجلس في مكان معين، فأخبرنا الأخ (قادر سيراني) بالعربية التي لا يفهمونها بأن هذا ليس مجلسكم، إنما مجلسكم هنا وأشار إلى الجهة التي على يميني، وكان مجلسي تجاه الداخل من الخيمة، أي المقابل له، وجلس بجانب صاحب البيت (خي بيكي)، وعلى يساره كان مجلس النساء اللاتي لم يكن قد اكتمل جلوسهن، لأنهن قد كن معنا في أرض المسجد.

وقال الأخ سيراني: إن الأصول أن يجلس الضيف الكبير مقابلاً للمدخل يكون وجهه إلى الداخل الذي هو باب الخيمة، ويكون إلى يساره رب البيت، وتكون النساء على يسار صاحب البيت، ويكون بقية الضيوف والحاضرين من أهل المكان على أيمن الضيف.

وقال: إن لديهم قواعد وعادات لا يخلون بها في مثل هذه الأمور.

لم يكد يستقر بنا المقام وصاحب البيت يرحب بدون ثرثرة، أو إكثار حتى وضعوا (الأسترخان) وهو شبيه بالسفرة التي يوضع عليها الطعام، وبينها وبين ما نسميه (السماط) وضعوا عليه الكعك الذي نعرفه بيبسه وصلابته، ومعه خبز صغير لدن، أي لين، وهو غير كبير تشبه استدارته استدارة الكف وهو مصنوع في البيت.

وجاءوا معه بإبريق كبير مليء بالشاي المخلوط بالحليب المملح، وهو الذي وضع فيه الملح بديلاً من السكر، إذ لم يكن فيه سكر أصلاً.

وذكرت أننا كنا في أول عهدنا كنا نفعّل كذلك، فنضع الملح مع الحليب بديلاً من السكر، ولم نكن نضع معه (شايًا) لندرة الشاي وغلائه في ذلك الوقت، أما الحليب فإنه كان متوفراً من الشياه والماعز.

وجعلت امرأة تسكب من إبريق الشاي المعدني الكبير في فناجين كبيرة أشبه بالسلطانيات الصغيرة للقوم، وهم يأكلون من هذا الكعك اليابس والخبز الصغير اللين.

وقد اكتمل صف النساء، وفيهن شابات جميلات، فجعلت المرأة التي تسكب الشاي للضيوف تصب لهن في الفناجين وتعطينهن كما تعطي الضيوف من الرجال.

وكانت الغرابة هي الطابع في هذه الخيمة التي إذا تأملها المرء وجد فيها ما يكون في الغرف الخاصة في البيوت، ففيها صندوق لحفظ الأشياء، وفيها خزانة غير عالية للملابس، وفيها حوض ماء لغسل اليد والوجه عليه صابونة وفرشاة للأسنان ومرآة، ولا أدري من أين يأتيهم الماء، وفيها ثلاجة وساعة حائط.

الضيافة الحية:



صاحب الخيمة الأخ بيكي يحضر الخروف داخل الخيمة لئلا يذبحه، وعلى يمينه صف النساء داخل الخيمة

قام صاحب المنزل فخرج من الخيمة ثم عاد ومعه خروف أبيض، وإن كان بياضه ليس ناصعاً مثل أكثر ألوان الغنم عندهم، فهمس في أذني الأخ سيراني يقول: جاءكم بالضيافة، فقلت له: قل له إنه مقبول وموفور، فنحن لا نستطيع أن نأكل منه لأننا كنا تغدينا قبل قليل لحماً دسماً، ونحن مدعوون الليلة على لحم دسم، فكيف نأكله؟ فلم ينقل إليه كلامي إنما قال لي: إن عدم قبول ضيافته يعتبر إهانة له أمام الناس وبخاصة أهل بيته، ويجب عليك قبوله وعلامة قبوله أن تمسح بيدك على رأس الخروف وتدعو لصاحبه.

ففعلت ذلك ودعوت له وشكرته إلا أنني قلت للأخ (سيراني): إن الخروف الآن حي، ونحن وقتنا ضيق يصعب علينا انتظار ذبحه وطبخه ثم تقديمه، وإنما نريد أن نتجول في صحراء المغول، ثم نعود إليهم بعد ساعتين أو ثلاث فوافقوا على ذلك.

صحراء المغول:



داخل الخيمة في نالايخ

ونحن لم نفارق صحراء المغول منذ أن غادرنا العاصمة (أولان باتور) بل منذ أن أقبلت بنا الطائرة الروسية من سيبيريا على مطار المدينة، ولكن المدينة بتخطيطها الجيد وشوارعها الواسعة، وأبنيتها العالية المتعددة الأدوار على الشوارع الرئيسية تبعدك عن منظر الصحراء ما عدا هذه القرية المغولية في قلب الصحراء التي إذا أقبلت عليها لم تر من البعد ما يميزها عن الصحراء عندنا، فليس فيها عود أخضر سواء أكان مزروعاً أو نابتاً نباتاً عفويًا، وإنما الخضرة فيها تنحصر في وجه الأرض الذي بدا عليه الأخضرار، وكأنما كان ينتظر حلول الربيع ليفاجئ الجميع بهذه الخضرة النضرة بعد الغبرة الباردة.

خيل المغول:

فارقنا قرية نالاخ فوقعنا في الريف الذي بدأ وجهه يخضر، فوجدت خيلاً من خيول المغول ترعى قرب حوش لم يخرج المنطقة عن وصف الصحراء الخالية، وهذه الخيول ترعى بنهم وشراهة لا ترفع رؤوسها عن الأرض إلا إذا أزعجها مزعج عن ذلك مثلي عندما أردت الاقتراب منها بالسيارة لتصويرها، مع أنني أركب مع الأخ (قادر سيراني) في سيارته التي هي من طراز (لادا) الروسي الصغير، وهو من أهل البلاد الذين يعرفون بلا شك كيفية التعامل مع هذه الخيول. ولكنها نفرت من السيارة فنزلت أحاول الاقتراب منها غير أنها أجفلت مني أيضاً.

وكنت وأنا أتأملها استعيد ما ذكر مؤرخونا العرب عما فعلته خيول المغول بديارنا الإسلامية الواسعة، حيث كانت مصدرًا من مصادر قوتهم، فأجدها قصيرة القوائم غليظة الأجساد، طويلة الذيول كثيرة شعرها أو لنقل سببها والسبب - في الفصحى والعامية عندنا - هو شعر ذيل الفرس.



خيل المغول (فرس وفلوها في الصحراء)

وهي فيما يبدو من مظهرها قوية جداً، وإذا أضيف إلى ذلك منظر وجوهها التي فارقها الجمال فليست في منظر خدود الخيول العربية الجميلة وإنما تبدو عابسة أو كالعابسة، وذلك أنها جامدة القسما، وربما كان بعض ذلك من وحي الخيال المتأثر بما كنت قرأته عما فعلته خيول المغول في بلادنا العربية وبجيوش الأمم الإسلامية التي قضت عليها قبل أن تصل إلى البلاد العربية.

وصورتها على البعد بعد أن حاولت الاقتراب منها جهدي.

وجاء الخيال ليقول: إنها قصيرة نسبياً لتتماشى مع قصر قامات المغول الذين يبدون أو يبدو المعاصرون منهم الذين رأيناهم في هذه المدينة أشبه ما يكونون بالتايلنديين، لولا أنهم أطول من التايلنديين قامات وأما تقاسيم وجوههم فإنهم أقرب الأمم إليهم.

وأما مظهرها المزعج ومظهرها الذي يوحى بالخشونة والشدّة، فإن ذلك ينسجم مع الجو الثالغ المزعج في هذه البلاد، بل إنه يتماشى مع قسوة الحياة هنا على وجه الإجمال.

وقد عرفنا من الإخوة الذين عرفوها من أهل البلاد أنها ليست من سوابق الخيل، ولكنها أصبرها على المشقة والسير المعتاد.



المؤلف يحاول الاقتراب من فرس منغولية لتصويرها من قرب
مقبرة المسلمين:

بعد أن سرنا عشرة كيلات من قرية نالاخ في هذه الصحراء المغولية الخالية، رأينا على بعد نحو الكيلو الواحد من الخط الإسفلتي الوحيد التي تسيير

عليه السيارة خطأ تبين بعد ذلك أنه خط يذهب إلى منطقة سياحية مهمة، ورأينا ما أشار إليه الأخ سيراني بقوله: إنها مقبرة المسلمين. وقال: إن الناس قد اعتادوا هنا على أن يبعدوا المقابر عن العمران، ويجعلوها في مكان منعزل، وهذه عادة لهم قديمة.

وسألته عن مقابر المغول من غير المسلمين وعن عاداتهم فيها فأجاب: إنهم كانوا يرمون موتاهم للسباع والطيور الجارحة في الصحراء لتأكلها، ولكنهم عندما خالطوا المسلمين ورأوا كيف يدفنون موتاهم صاروا يفعلون مثلهم فيدفنون موتاهم، ولكنهم يضعونهم في مكان بعيد حذراً من أن تؤذيهم أرواحهم كما يزعمون.

ومع أنهم من البوذيين فإنهم لا يحرقون موتاهم كما يفعل البوذيون الآخرون. هنا وقد أمعن الطريق في صحراء حقيقية خالية من أي شجرة من أشجار الرعي كانت، وليس فيها إلا ما ذكرته من ظهور رؤوس أعشاب يبدو أنها ستكون ملتفة، لأنك إذا رأيت الأرض على البعد رأيتها خضراء حتى إذا وصلت إليها وجلت أن عشبها صغير، كأنما قد أطل برؤوسه الخضر من الأرض على استحياء من غيابه أثناء غياهب الشتاء القاسي الطويل.

نهر نول:

وصلنا إلى وادٍ منخفض يجري فيه نهر (تول) الذي يمر بمدينة (أولان باتور) العاصمة، ويكاد يعتبر نهراً يتيماً هنا، ومع ذلك فإن وجوده أمر بالغ الأهمية في هذه الصحراء، وهو يتجمد في أكثر أيام الشتاء، بل إنه لا يكاد يكون موجوداً، لأنه يأتي من ذوب ثلوج في جبال جليدية، وهذه يتحجر ثلجها في الشتاء حتى لا ينضح بقطرة من ماء

وعلى ضفة النهر أشجار قصيرة من الأشجار الصحراوية، ولكنها

هامدة كأنما لم تمر بها حياة من قبل، وذلك في منظر رمادي كئيب.

برقة منغولية:

والنسبة إلى هذه البلاد هي منغولية على لغة أهلها، و(منغولية) على لغة قدامئنا من علماءنا كما هو مسطور في كتبهم القديمة.

والبرقة هي الحجارة التي يركبها الرمل، وتكون في أصل جبل أو تلة صخرية، والبرقة المنغولية تشبه البراق - جمع برقة - الموجودة في صحرائنا العربية، إلا أنها هنا غير بعيدة من نهر تول بخلاف براقنا التي لا تعرف من الماء إلا ماء السماء الذي لا يأتي إليها كما تشاء.



المؤلف في صحراء منغوليا وتبدو الثلوج بين الأشجار الهامدة

ومع ذلك فإننا لا نغبط المغول على براقهم هذه القرية من النهر، لأن ليل الشتاء القاسي الطويل يجوع فيه الإنسان والحيوان، فلا يجد ما يأكله إلا ما خزنه في أيام الاعتدال، ويصعب عليه التنقل فيها، بل لا يستطيع ذلك، إلا إذا لبس

المزيد من اللباس، وكان تجوله في النهار وبشرط أن يؤوب إلى مكان فيه دفء وطعام.

ومررنا بجسر فوق النهر من خشب متشعث حتى خشينا على عجالات سياراتنا من مسامير.

وعلى ذكر السيارات أقول: إن معنا سيارتين، إلا أن النهر ليس عريضا، أقدر عرضه بمقدار عرض نهر بردى في دمشق مرتين ونصفاً.

ومررنا بقطيع كبير من الضأن البيض إلا ما كان من رؤوسها فهي سود، عليها صوف كث لا شك في أن ذلك من أجل برودة الجو.

ورأيت راعي الغنم يرقبها بانتباه، فنكروا أنه توجد هنا ذئاب شرسة.

وحدثونا عن ثمن الخروف من هذه الخراف فنكروا أنه يساوي ما بين ٥ إلى ٧ دولارات، وذكروا أن راتب المدرس في المدارس الحكومية، وكل المدارس هنا حكومية هو في المتوسط ١٥٠٠ من عملتهم ويساوي ذلك سبعة دولارات ونصفاً، وعلى هذا نرى أن ثمن الخروف هنا أعلى مما هو عندنا إذا قيس بمرتب الموظف أو العامل، لأن الخروف المتوسط عندنا ثمنه خمسمائة ريال، والمدرس راتبه في المتوسط خمسة آلاف أو ستة آلاف ريال.

إلا أن الذي ينبغي التنبيه إليه أن أجور المنازل في البلدان الشيوعية رخيصة جداً، وكذلك أسعار الكهرباء والماء والتدفئة، على حين أنها في بلادنا وفي البلاد الرأسمالية تستهلك جزءاً كبيراً من مرتب الموظف.

وعلى أية حال فإن الموظف بل والمواطن في البلدان الشيوعية لا يستهلك من البضائع والمأكولات إلا قليلاً إذا قورن بما يستهلكه الموظف في الغرب.

وأخبرونا بهذه المناسبة أيضاً أن مرتب رئيس الجمهورية في منغوليا يساوي ثمن ستة خرفان، فكم يساوي مرتب رئيس الجمهورية في البلدان

العربية من خروف؟

ورخص اللحوم الحية هنا بالغ بالنسبة إلى الأسعار العالمية، غير أن المشكلة هي في التصدير، فالتصدير يحتاج إلى وسيلة نقل جيدة معتدلة السعر، كما يحتاج إلى إمكانات لكي يلبي حاجات المستوردين.

هذا وقد بعدنا في سيرنا عند الوادي الذي فيه النهر ٦٠ كيلومتراً من العاصمة (أولان باتور)، والطريق يساهل أي يسير في السهل، ولكن تطالعه جبال غريبة التكوين، بحيث إننا رأينا فيها شقوقاً طويلة عجيبة.

ومررنا بمخيم ذكروا أنه فندق من الخيام قد أعد للسياح الذين يحبون أن يقضوا الليالي أو أياماً في صحراء المغول كما يفعل المغول أنفسهم، غير أنهم لا يأتون إلى البلاد إلا في موسم السياحة الذي هو في فصل الصيف، ولذلك رأينا المخيم أو الفندق المؤلف من الخيام خالياً.

واستمرت التلال الجبلية وكلما أمعنا السير في الطريق زاد ظهورها وهي لا تزال جبلاً غريبة الأشكال، بل حتى الألوان، فلا يستطيع المرء أن يصفها بأنها حمراء أو سوداء، وإنما هي بين ذلك، وفيها شيء من ذلك كله.

ومررنا بوادٍ فيه شجر صحراوي قصير قد نبت على ما يجري في هذا الوادي من ماء، إلا أنه هو وماء الوادي لا يزال ينتظر النشور الربيعي الذي هو الصيفي في الحقيقة، لأن عمر الربيع عندهم هو عمر الصيف الذي يبدأ في يونيو حزيران وينتهي في أغسطس (آب). ففي الوادي ثلج لم يذب بعد.



الثلوج في الأماكن المنخفضة في صحراء منغوليا

بدوي منغولي:

ورأيت مغولياً صحراوياً يسير وحده في هذه الصحراء، وهو يشبه الأعرابي الذي يسير في الصحراء العربية لا تدري من أين جاء ولا إلى أين هو ذاهب، والأهم من ذلك أنه لا يحمل في سيره ماء ولا طعاماً، ولا ندري من أين يأكل إذا لم يكن بقربه قرية أو أبيات من بيوت الأعراب، ولكن الفرق الواضح ما بين هذا البدوي المغولي، ولا نقول الأعرابي المغولي، لأن الأعراب هم أهل البدو من العرب، وهم عرب خلص، وأما البدو من غيرهم فهم سكان البادية ويكفونون من الأمم الأخرى، وذلك أن هذا البدوي المغولي قد أثقل جسمه بالملابس حتى خيل إلي أنه من حملها في تعب، وقد تحزم بحزام عريض حتى لا تدخل الرياح الباردة بينه وبين ملابسه.



مع مواطن منغولي في طريق ترابي للسيارات في صحراء منغوليا

ومن الطريف أن منظر هذا البدوي المنغولي قد اقترن بمنظر لا يمكن أن يقترن به منظر الأعرابي في صحرائنا، وهو منظر وادٍ مفعم بالثلوج وهي ذات بياض ناصع جداً ربما كان ذلك لكون الطبقة الثلجية التي كانت تركبها قد ذابت مع الدفء النسبي في الجو.

بين الجبال المغولية:

أردت رؤية هذه الجبال الغربية عن قرب ولمس حصاها فتركنا الطريق الإسفلتي، وسرنا مع طريق أرضية ممسوحة بمعنى أنها ممهدة وليست مزفتة.



إطلالة العشب الأخضر في الأرض في منغوليا

ووقفنا وسط الجبال المشققة التي في وسطها وادٍ منخفض اسمه (تيرلج) فيه أشجار يابسة، بل رمادية اللون كأنما مر عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً منكوراً، والحين من الدهر الذي مر عليها هو فصل الشتاء الذي تتدنى درجة البرودة فيه إلى ٤٠ درجة تحت الصفر في مثل هذه الجبال، ويكفي شاهداً على بردها أننا ونحن الآن في شهر مايو لا تزال بقايا الثلوج لم تذوب بعد في الوادي، رغم كون الثلوج ذابت في الأماكن المرتفعة، ولو كان الأمر في القياس المجرد لكانت أعالي الجبال المعرضة للرياح الباردة تبقى فيها الثلوج أكثر من الوديان المنخفضة، ولكن هذا القياس يصح أن يقال في أول الشتاء حينما تتجمد الأماكن العالية قبل المنخفضة، غير أنها كلها تتجمد في الشتاء بل تتصلد، أي تصبح كأنها هي الحجارة الصلدة، حتى إذا بدأ الربيع يطل عليها بدت رياحه الدافئة تنفخ تلك الأماكن العالية فتذيب ثلوجها بخلاف الوديان المنخفضة التي لا تدفئ إلا بعد ذلك.

وقد رأينا في بعض هذه الجبال أشجاراً ليست عالية، ولكن بعضها له

جذوع كبيرة إلا أنها مقطوعة، مما يدل على أنها كانت فيها أشجار نامية ألح الناس عليها بالقطع لحاجتهم إلى الدفء بالشتاء في منازلهم الصحراوية التي لم تصل إليها الكهرباء ولا أنواع التدفئة الأخرى.



خيمة المغول من الخارج بجانبها تمثال خيالي لحيوان عملاق

ورأيت على البعد بيوتاً أو على الأصح خياماً للمغول كما تكون بيوت الشعر للأعراب في صحرائنا العربية.

كان الهواء بارداً والثلج يلمع بياضاً في الوديان ومع ذلك يقولون: إنه فصل ربيع فما بالك بفصل الشتاء الشتاتي!

وقد وضع المغول بيوتهم في الشعاب المتطامنة واتفوا الرياح الشمالية الباردة بأن جعلوا بينها وبينهم إحدى الهضاب.

وهذا عكس ما يفعله الأعراب عندنا الذين يتمدحون في كونهم بينون بيوتهم من الشعر في أماكن مرتفعة بارزة حتى يراها الأضياف المحتاجون للضيافة في الصحراء، ويعتبرون أن إخفاء البيوت عن العيون في الوديان والشعاب

المنزوية إنما يدل على البخل وعدم الرغبة في إيواء الأضياف وإطعامهم.

تمثيل العمالقة:

هذا الطريق الذي نسلكه والمنطقة التي يمتد فيها كلاهما سياحي إذ ينتهي إلى فندق سياحي، ولذلك عنيت حكومة منغوليا بإعداده كذلك. ومن ذلك أنهم أقاموا تماثيل لعمالقة المخلوقات المنقرضة من ديناصورات ومخلوقات مثلها مشابهة لها في ضخامة الخلقة وغرابتها. ولما رأيت هذه التماثيل وقارنتها في ذهني بأكبر الحيوانات الأرضية كالفييل والجمل ذكرت ما جاء في الحديث: (... فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن...).



المؤلف عند تمثال خيالي لحيوان ضخم قصير اليدين طويل الرجلين

لاحظ الجبال المشققة

ومن التماثيل التي أعجبتني تمثال لحيوان يقال عنه: إنه ربما كان هو جد الكنفرو حيوان أستراليا الذي يعد خلقه ضئيلاً بالنسبة إلى حجم هذا الحيوان المنقرض، وجاء الخيال يقول: ما بالك إذا باليربوع حيوان الصحراء العربية الذي هو في حجم الفأر مع أن شكله يشبه شكل هذا الحيوان وحفيده الكنفرو ؟

إنه بلا شك لا يعدو أن يكون بمثابة الذبابة بالنسبة إلى حجم سلف هذا الحيوان الكبير، ولذلك التقط أحد الأخوة لي صورة وأنا ممسك بيده لقد سألت عن مناسبة إقامة هذه التماثيل الضخمة في هذه الصحراء فأخبروني أنهم قد وجدت بقايا من عظام مخلوق ضخم من هذه المخلوقات في جنوب منغوليا، وإن هذا أوحى لهم أن يمثلوه هنا ثم رأوا أن يمثلوا معه أبناء عموته، وأبناء عظمه ولا نقول جلده مع أن من الصحيح أن يقال ذلك. لأن جلد ذلك المخلوق الضخم لا بد من أن يكون قوياً سميكاً حتى يتحمل المحافظة على كتل اللحم والعظام التي يضمها جسمه الكبير.

وزعموا بمناسبة وجود بقايا العظام لأحدها أن منغوليا تعتبر من مواطن هذه المخلوقات، مع أن ذلك لا يختص بها وحدها فقد وجدت تلك البقايا متحجرة في كثير من أنحاء العالم القديم والجديد.

وقد نحتوا تمثالاً لحيوان الماموث الضخم وهو يفترس تمساحاً كبيراً وقد غدا في فمه صغيراً، ونوهوا بأن التماثيل كلها هي بالحجم الطبيعي من دون مبالغة في تكبيرها ومن دون تصغيرها بطبيعة الحال وذلك حسبما قرره العلماء من أحجامها كما ذكروا.

إننا نعلم أن هذه التماثيل هي تماثيل خيالية وإن كانت مستوحاة من بقايا تلك الحيوانات الضخمة التي سبق أن رأيناها في أماكن من المتاحف والمعارض في أنحاء متباعدة من العالم، ولكن مجرد النظر إليها هنا وهي تعطي صورة تقريبية للواقع مما يبعث الرهبة في النفس والرغبة - في نفس الأمر - في

الاطلاع على المزيد من خفايا أجسامها الضخمة.

الخيمة المغولية:

رأيت خيمة مغولية أصيلة سكانها من المغول وبجانبها حظيرة مقامة من أخشاب مضاعفة فوقها غطاء من الصوف، ذكروا أنها بنيت لتقضي فيها الدواب فصل الشتاء القاسي، وبجانبها حظيرة مغلقة من الخشب أيضاً وهي مخزن لعلف الحيوان أما الخيمة التي تسكن فيها الأسرة كلها فإنها كخيمة القازاق في غرفة واحدة أو هكذا تبدو ولها باب من الخشب.

قال لي الإخوة المرافقون، إن هؤلاء من المغول الذين يقضون فصل الشتاء هنا وهذه عادة لهم معروفة أن يقضوا الشتاء مستقرين في مكان لا يمكنهم التجول من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلاً أو المرعى لدوابهم، لأنه لا يوجد مرعى مطلقاً في الشتاء إذ تغطي الثلوج وجه الأرض كله، والتحول فضلاً عن التجول في الشتاء معناه الموت المحقق لهم ولمواشيهم، لذلك يقيمون في مثل هذه الخيمة التي تكون بجانبها حظيرة محكمة سميكة الحيطان للماشية التي يغذونها من الأعلاف المخزونة بجوارهم محفوظة من الثلج أيضاً، ويتغذون على ما يحصلون عليه من مواشيهم من لبن وزبد وربما جبن أيضاً.

لم أر أحداً في خارج الخيمة فصحبت معي الأخ قادر سيراني للترجمة ولشيء آخر، وهو أن هناك كلباً ضخماً رابضاً عند باب الخيمة لا أدري ماذا تكون تصرفاته، فنادى الأخ سيراني بلغتهم من بالخيمة فخرجت امرأة منها يتبعها طفلها، وأردت أن اقترب من الطفل ولكنه فزع وصاح فحملته أمه تسكته بذلك، والتقطت صورة لها وهي تحمله.



المؤلف عند باب الخيمة المغولية مع صاحبة الخيمة وابنها

وقالت له ما قاله لنا إخواننا من أنها مغولية تقضي مع أسرتها فصل الشتاء في هذه الصحراء الباردة، وأن فصل الشتاء قد انقضى أو أوشك على الانقضاء لذلك يفكرون بالخروج منها ورعي مواشيهم في الصحراء التي بدأت بالاخضرار.

أما منظر المرأة فإنه منظر المغول الجنوبيين الذين سبق أن رأيتهم في منغوليا الداخلية التي تتبع الصين في الوقت الحاضر، وذكرت أمرها عندما زرتها في كتاب «**في مهد المغول**» فهي سمراء من شدة البرد والتقشف، خشنة المنظر، ذات تقاطيع أشبه ما تكون بالتقاطيع التركية المغولية، وليست كالتايلنديين، ولكن المغول على وجه العموم ذوو سحن خاصة معروفة.

وسألتها بواسطة المترجم الأخ سيراني عما تملكه هنا فأفادت أنها تملك أغناماً تكفي لإعاشتهم، وأنهم لا يملكون بيتاً في المدينة، ولا أي مكان حضري آخر لأنهم من البدو.

تركنا المرأة المغولية ذات الخيمة المنفردة في هذه البقعة وكلبها ذا المظهر الخشن الذي ينسجم مع منظر الخيول والبدو من المغول، وواصلنا السير مع الخط الإسفلتي المعهود وهو يتجه إلى الشمال الغربي، فوصلنا وادياً لا يزال مكتظاً بالثلوج الناصعة، ولا تزال الأشجار فيه وفيما حوله كأنما أصابها حريق فأحالتها إلى رماد واقف.

ثم تعددت رؤية الوديان الثلجة دون الجبال التي ليس فيها شيء من الثلج.

صخرة في شكل رجل معه مصحف:

خرجنا من الطريق الإسفلتي مع آخر ترابي ممهد كسابقه فوصلنا إلى وادٍ في غابة هامة ذات أشكال موحشة، يكاد يدفنها الثلج الآن وإن كان تقلص فلم يعد في الأماكن المرتفعة من أطراف هذا الوادي.

ووقفنا عند جبل فيه صخرة تشبه بشكلها على البعد هيئة رجل معه مصحف فوق كفيه وهو مستقبل القبلة، وهذا أمر مشهور عندهم حتى صار المسلمون وغيرهم يصفون به ذلك المكان، وهي كذلك على البعد، أما إذا وصلها الإنسان وتأملها عن قرب فإنها تبدو صخرة معتادة من الصخور، إلا أنها واقعة على أعلى الجبل بحيث ترى من مسافات بعيدة.

والعجيب في هذه المنطقة هو ألوان الصخور الجبال فلونها بين اللون الرمادي والأدهم، واللون الأدهم هو الذي صار يسمى الآن على أقلام بعض الكتاب المحدثين البني - نسبة إلى ابن المحمص -.

وقد حاولت تصوير هذه الصخرة إلا أن الجو كان غائماً مما يجعل التصوير لا يذهب بعيداً، والجبل بعيد عن السهل لذلك لم تظهر الصورة واضحة. والمنطقة أخصب من سابقتها، فالمراعي اليابسة موجودة وهي المتخلفة من

ربيع العام الماضي.

ورأيت فيها مغولياً ركباً حصاناً أحمر وبيده مقود حصان أبيض يقوده أيضاً وهو راكب، وتعددت رؤية البدو من المغول الذي يشيرون إلينا يريدون أن نركبهم.

وبهذه المناسبة أذكر أننا لم نر أية سيارة تسير في هذا الطريق أول الأمر، ثم رأينا سيارتين فيما بعد.

ووصلنا إلى أرض مرتفعة بطبيعتها، وإن يكن منظرها منظر السهل، ولذلك رأينا بقايا الثلوج لا تزال موجودة فيها.

الفندق السياحي:

كانت نهاية الطريق هذا عند فندق سياحي جيد مبني بالإسمنت المسلح وسط هذه الصحراء التي يبدو كل شيء فيها محافظاً على قدمه إلا ما كان من أمر هذا الفندق.

وصلنا الفندق فجأة إذ لم نر خارجه أي شخص مع أنه ذو مرافق متعددة من مواقف للسيارات وغرف للخدم ونحوهم، ولكن الوقت الآن لا يزال مبكراً على مجيء السياح الذين أشاروا أنهم يأتون من بلدان عديدة، ولكن اليابانيين يؤلفون نسبة لا بأس بها منهم.

وفي فناء هذا الفندق الخارجي بنوا عدة خيام من خيام المغول التقليدية إمعاناً في الإغراب، ومن أجل أن يحس النزول السائح أنه جاء إلى مكان مختلف، لأن منظر هذا الفندق الكبير لا يختلف عن مناظر الفنادق الكبيرة الأخرى في العالم.

وإلى جانب هذه الخيام المغولية التقليدية بناء على هيئة الطراز المغولي

المتحضر، وهو طراز استفاده المغول من احتكاكهم بالحضارة الإسلامية عندما فتحو البلاد الإسلامية، وبخاصة بلاد ما وراء النهر وخراسان، وأخضعوها لحكمهم، وهو طراز فيه ملامح عربية ظاهرة، ولكنه ليس خالصاً للطراز العربي المعهود في البناء.



على جذع شجرة مقطوعة قرب الفندق السياحي في صحراء منغوليا

وهذا المنزل المغولي المتحضر من الخشب، ولكن طرازه كالقباب وتناسق الزوايا وتعامد الحيطان بصفة مستقيمة هو الذي جعل فيه شيئاً ظاهراً من طراز البناء العربي.

دخلنا الفندق فلم نجد فيه سياحاً، وإنما وجدنا عمالاً من رجال ونساء بعضهم يشربون الجعة.

ولم نلبث فيه إلا حاجة لنا بذلك، وإنما لاحظت أن بجانبه كومة من الثلج الناصع البياض متخلفة من ثلوج الشتاء.

وعلى ذكر السياحة ذكر وأن الموسم السياحي يبدأ عندهم في شهر يونيو وينتهي في شهر سبتمبر.

العودة إلى نالاخ:

في الساعة السادسة من بعد العصر بدأنا العودة إلى بلدة نالاخ التي وعدنا صاحبنا الذي دخلنا إلى خيمته أن نعود إليه ونأكل خروفه الذي يبدو أنه قد نضج الآن.

ولذلك لم نتلبث في الطريق إلا ما كان من وقفة أو وقفين إحداهما كانت عند خيول مغولية ترعى، وحاولنا أن نقترب منها لنصور ملامحها أكثر، ولكنها كانت تنفر منا.

ويبعد الفندق الذي كنا فيه (٨٩) كيلو متراً عن العاصمة (أولان باتور).

وقد نزل اثنان من المرافقين يركضون من أجل أن يجعلوا الخيول تأتي بالقرب منا، ولكنها كانت تأتي ذلك.

ورأيت عجباً وهو أن (فلواً) وهو ولد الفرس كان مع إحداهما فبدأ لي على البعد وكأنما هو ولد البقرة الذي ليس له رشاقة الخيل.

وهذا - أي كونه ليس رشيقاً - أمر حقيقي لاحظته من منظر الخيول الكبيرة، وليس في رشاقة الفلو العربي وإن لم يكن كولد البقرة.

العودة إلى الخيمة:

عدنا إلى الخيمة التي كنا فيها في قرية نالاخ فوجدناها دافئة مريحة بعد التنقل في الصحراء والتعرض لهوائها البارد، وجلسنا فيها وجلس القوم المدعوون وليسوا كثيراً على النظام المعهود، حيث لا يجوز للضيف من الرجال إذا دخل

الخيمة أن يسير إلى جانبها الأيمن أو أن يجلس فيه، لأن ذلك مخصص لجلوس النساء، وإنما عليه أن يذهب إلى الجانب الأيسر منه عند دخوله فيجلس فيه وهكذا كان.



النساء يجلسن في الركن الأيمن من الخيمة بالنسبة لمن يدخلها من بابها

ورأيت أحد الإخوة المدعوين ويظهر أنه من أقرباء صاحب الخيمة أو من جيرانه يدخل فيخلع حذاءه ذا الرقبة العالية من الجلد التي يصل ارتفاعها إلى الركبة مثل أحذيتهم كلها، وعادتهم أن يخلعوها إذا دخلوا الخيمة، أما هذا الأخ فقد رأيتَه خلع الحذاء الجلدي، ثم رأيتَه لف مجموعة من الخرق على قدميه وساقيه، وقد يخلعها حتى يبقى عاري القدمين، وقد استعمل تلك الخرق بديلة من الجوربين، ولا أدري أتلک عادة لهم قديمة أم أنها لمن لم يجد منهم جوربين يضعهما في قدميه تحت الحذاء الجلدي.

وجلست في مكاني المعتاد من صدر المجلس يلييني من جهة اليسار صاحب البيت، فالنساء اللاتي زاد عددن اثنتين أو ثلاثاً من أجل التفرج برؤية

الضيوف القادمين من مكة المكرمة.

أكل الخروف قواعداً أيضاً:

اطمأن بنا الجلوس فوضعوا سباطين وهما السفرتان اللتان توضعان على الأرض، ويوضع فوقهما الطعام في العادة، إحدى السفرتين أمامي للرجال، والثانية للنساء اللاتي يجلسن جهة اليسار مني، وهي جهة اليمين للداخل إلى الخيمة، يفصل بيني وبينهن صاحب البيت بجلوسه، وقليل جداً من الفراغ، لكون الخيمة تكاد تكون مليئة بالناس، ومع النساء بعض الأطفال، فكانت أولى قواعداً أكل الخروف أن جاؤوا برأسه مطبوخاً في صحن، ومعه سكين كبيرة حادة، وقدموه بين يديّ لكوني كبير الضيوف يحمله أحدهم بين يديه، ولم أدر ما أفعل، فهم لم يأتوا بطعام غيره بعد.

وقال لي الأخ سيراني بالعربية: إن الأصول أن تقطع من الرأس قطعة بالسكين فتأكلها وتكون أنت بذلك أول من يذوق الذبيحة، ويجب أن يكون ما تأخذه من الرأس من جانبه، أي من أحد خدي الرأس، ثم تقطع من أذن الخروف بالسكين قطعة تعطىها الأطفال الحاضرين.

وعندما فعلت ذلك وضعت السكين في الصحن بجانب الرأس وانتهت مهمتي، فوضع رأس الخروف بجانبه السكين أمام صاحب البيت الذي هو صاحب الخيمة، فقطع لنفسه قطعة صغيرة وأكلها، ثم جعل يقطع للضيوف من الرجال كلهم قطعة قطعة وهم يأكلون، والقطعة الواحدة في حجم نصف البيضة، أو أقل من ذلك، ثم ذهب حامل الرأس به إلى النساء ففعلن مثل ذلك، ثم عاد بالرأس إلى خارج الخيمة.

وبهذا انتهت المراسم الأولى للأكل وهي المراسم غير المعتادة بالنسبة إلينا، إذ البقية التي بعدها معتادة، فقد جاؤا بلحم الخروف كاملاً وإن كان مقطعاً

إلى قطع كبيرة، وقد جعلوه في صحنين كبيرين أحدهما أكبر من الآخر، ووضعوا أحدهما وهو الكبير أمامي، فتحلق عليه الرجال، والثاني وهو أصغر منه أمام النساء، فتحلقت عليه النساء.

وصار الجميع يأكلون لحم الخروف من دون أن يكون معه أي نوع آخر مما يؤكل، لا من الخبز ولا من الأرز ولا من الخضرات أو السلطات أو البقول اليابسة مثلاً، وإنما هو اللحم وحده لا يخالطه مخالط.

وكان هذا مدعاة لارتياحنا لأننا مدعوون على العشاء بعد أقل من ساعتين.

وجدت لحم الخروف لذيذاً جداً، وما شبهته إلا بلحم الخرفان النجدية في وقت الربيع التي ترعى العشب الأخضر، وهي ألد اللحوم التي نعرفها، وقد يكون ذلك صحيحاً، وقد يكون سببه أيضاً هو الحركة التي قمنا بها في الصحراء، أو يكون سبب ذلك سرورنا بقاء إخوتنا هؤلاء، وقد يكون الأمر مزيجاً من هذا وذاك.

وعلى أية حال قد نعمنا بلحم الخروف الذي لم يخالطه مخالط، وقد أتينا عليه مع الحاضرين حتى لم يبق منه شيء غير العظام أو يكاد، مع أنه سمين وغير شديد النضج، والأكلة كثير بلغ عددهم ١٧ رجلاً وعشر نساء وعدة أطفال، وهذا عدد الكبار منهم بالضبط لأنني عدتهم دون الصغار.

وبعد أن انتهى الأكل من اللحم جاؤا بالقدر الذي طبخ فيه الخروف وهو قدر كبير ذو مقبضين، قد أمسك بأحدهما رجل، وبالأخر رجل آخر فوضعه داخل الخيمة، وأخذوا يرففون من مرق اللحم يضعون من المرق في الزبادي يقدمونه للشاربين، وقدموا أول ما قدموه لي كعادتهم في إكرام الضيف، فكان المرق لذيذاً جداً ذكرني أيضاً بمرق اللحم الذي كنا نعرفه في القديم، لا

يوجد فيه شيء إلا الملح وقليل من الفلفل أو نحوه

وشرب الجميع من هذا المرق اللذيذ الذي لم يخالطه مخالط أيضاً، وهو الذي طبخ فيه لحم الخروف.

لم يقدموا الشاي هنا كما قدموه أول الأمر اكتفاء بالمرق فيما يظهر، وأما غيره من الفواكه ونحوها فإنه لا يوجد، ولو وجد لم يستطيعوا سبيلاً للحصول على ثمنه.

الوداع الحافل:

انتهينا من أكل اللحم وشرب المرق والاستراحة في هذه الخيمة، واستأذنا مضيفنا الذي أشار أحد العارفين إلى أنه ربما لم يكن وحده في تقديم هذا الخروف، لأن حاله أضعف من أن تحتل ذلك، وإنما يجوز أن يكون أعيان القرية أو بعضهم اشتركوا في إعداد الضيافة، ولذلك أعطيت الأخ سيراني شيئاً من الدولارات ليعطيه هدية لصاحب البيت، لأنه لم يكن معنا في السيارة الآن إلا بعض التمر من تمر المدينة وبعض السبع، فأعطينا كبار الحاضرين منها، وأعطينا النساء قليلاً من التمر.

والتف علينا أهل الخيمة وأهل الخيام الأخرى الذين تبين أنهم كانوا واقفين عند سيارتنا في الزقاق ينتظرون خروجنا للوداع.

وكان من اللافت للنظر أن نساءهم يسار عن أمام رجالهم بتوديع الضيوف بمصافحتهم كما يفعل الرجال.

واشترك الأطفال في التوديع والمصافحة، وكان كثير من الأطفال والشابات من النساء قد لسع البرد والقشعرير خدودهم، فصار فيهم أثر منه بحيث لم تكن صافية.

وفي الثامنة إلا الربع مساءً كنا نسير تاركين أهل القرية وبخاصة أهل الخيمة، وهم يلوحون بأيديهم وسيارتنا تتهدأ في شوارع القرية وأزقتها لا تكاد تقوى على السير فيها للحفر والأماكن المرتفعة فيها، حتى لا نكاد نجد فيها زقاقاً واحداً مستويًا.

مأدبة الجمعية الإسلامية:

كان موعد مأدبة العشاء التي تقيمها الجمعية الإسلامية المنغولية في الثامنة، ولكننا لم نصل العاصمة إلا بعد ذلك بقليل، وحرصنا على المرور بالفندق، ورفيقنا الأخ (قادر سيراني) يعرف أننا نريد تأخير العشاء قليلاً لأننا قد أصبنا من لحم الخروف ومرقه ما احتاج لبعض الوقت لهضمه، وذهبنا في التاسعة إلى مقر الجمعية، فوجدنا عشاءهم معتاداً فيه البطاطس المسلوقة والخبز الإفرنجي والمرق الطازج اللذيذ، وهو مرق لحم الغنم الخالص الخالي من الخضار ونحوه.

ومع ذلك الأكلة الشهيرة هنا بأنها أكلة الأصابع الخمسة والطعام الرئيسي من لحم الضأن الجيد، وقد حضر المأدبة نائب رئيس البرلمان الأخ زردخان وثلاثة من حملة شهادة الدكتوراه من أعضاء الجمعية الإسلامية.

وقد أعلنت لهم التبرعات التي سيقدمها وفد رابطة العالم الإسلامي لجمعيتهم فوراً لمساعدتها على القيام بواجبها وهي:

- أ- شراء سيارة جيب روسية قوية لكي تستعملها الجمعية والدعاة فيها للاتصال بالإخوة المسلمين الذين يقطنون في أماكن بعيدة ليس لها خطوط معبدة، ويحتاجون للاتصال بهم.
- ب- خمسة آلاف دولاراً أمريكي لتسيير أمور الجمعية ودعم أنشطتها، وهذا مبلغ قليل عندنا، ولكنه كبير عندهم.

ج- ألفان وخمسائة ريال لمشروع مسجد نالاخ.

وأخبرتهم أن هذه مساعدات عاجلة، والأهم منها هو وجود الصلة بينهم وبين رابطة العالم الإسلامي التي نرجو أن تكون صلة مستمرة.

وقد بحثنا معهم أوضاع المسلمين في هذه البلاد وما يحتاجونه من أشياء عاجلة، وبخاصة ما يتعلق من ذلك بالمساجد ومدرسي الدين الإسلامي، لأن المسلمين هنا لا يعرفون شيئاً من أمور دينهم، يستوي في ذلك كبارهم وصغارهم، وأهل القرى والبوادي منهم، لكون الحكم الشيوعي كان قد هدم المساجد وحرّم التعليم الإسلامي، حتى خيل إليه أنه قضى على الإسلام ومحاه من بلاده محوّاً كاملاً.

وقد أهديت لهم في نهاية الاجتماع هدايا مناسبة من العباءات العربية والتمر وسجاد الصلاة.

وأهدى لي نائب البرلمان جبة قازاقية حمراء معها طاقيّة حمراء مثلها، كما أهدى رئيس الجمعية لي ولرفيقي هدية مناسبة هي سجادة كسجادة الصلاة، إلا أنها سميكة، وهي صنع هذه البلاد من صوف غنمها الكث.

وغادرنا المادبة التي كانت في مقر الجمعية في الحادية عشرة إربعاً.

يوم الخميس: ١٢ / ١١ / ١٤١٢هـ - ١٤ مايو ١٩٩٢م

صحبنا مبكرين لصلاة الفجر، ثم صنعنا الشاي في إحدى غرفنا وشربته مع الأخوين رفيقي الرحلة، وهما الأستاذان محمد حافظ ورحمة الله بن عناية الله، وأسرعنا بللممة أمتعتنا استعداداً لمغادرة الفندق التي ستكون مبكرة.

ودفع الأخ (قادر سيراني) أجرة الغرفة إلى الفندق فدفعتها له ويعادل ذلك عشرة دولارات أمريكية لكل غرفة من غرف الفندق الجيد.

وذلك لكونهم أجازوا الدفع بالعملة المحلية، أما لو كان الدفع بالدولار، فإن أجرة الغرفة المقررة للأجنبي هي ٦٥ دولاراً أو قالوا: ٨٠ دولاراً.

خرجنا من فندق (بيان قل) في السادسة والنصف إذ كان مقرراً أن نغادر (أولان باتور) متوجهين إلى موسكو في التاسعة والرابع.

وذلك بعد أن أيسنا من السفر إلى منطقة (بيان أولكي) التي يقطن فيها المسلمون، وتقع في الغرب الجنوبي من منغوليا، حيث الحدود مع قازاقستان، وذلك لعدم وجود طيران إليها، بسبب قلة وقود الطائرات عندهم، ومعنى اسم الفندق النهر العالي لأن (بيان) معناها عالٍ، وقل: نهر.

كان الجو مائلاً وبارداً جداً، وقد نمنا البارحة كلها في غرفنا ونحن نرتدي جباباً محلية فوق ملابسنا، ونضع كل ما في الغرفة من أغطية ثقيلة فوق أجسامنا مع أن الغرفة مدفأة، لأنه كانت مع المطر ريح باردة.

خرجنا من الفندق في جو بارد مكفهر يشبه أقسى أيام الشتاء العاتية في بلادنا، ويشبه بدون فرق أيام الشتاء الباردة في أوروبا، مع أننا الآن في منتصف شهر مايو شهر الدفء والربيع في أوروبا.

دخلنا مبنى المطار البارد الخالي من التدفئة، ولم نستطع الاستقرار في

مكان معين من شدة البرد، فقد كانت بعض الأبواب والنوافذ مفتوحة، والأدهى من ذلك أنهم لم يقبلوا تسلّم الأمتعة ولم يبدؤوا إجراءات الترحيل، وعرفنا بعد ذلك أن لديهم مشكلة كبيرة، وهي أن الطائرة النفاثة الوحيدة الموجودة عندهم هي واحدة بل وحيدة، وكانت سافرت أمس ظهرًا إلى مدينة بكين عاصمة الصين، ولكنها لم تستطع الهبوط في مطارها بسبب رداءة الجو فيها، فعادت بركابها إلى (أولان باتور)، وإن المسؤولين في المطار وفي خطوط منغوليا يبحثون الآن ما إذا كان عليهم أن يرسلوا الطائرة إلى بكين بركابها الذين لم تستطع إيصالهم إليها بالأمس، وأن يؤجلوا سفر ركاب موسكو الذين كان من المقرر أن يسافروا إليها الساعة التاسعة والرابع من صباح هذا اليوم، ومنهم نحن.

وبقي الركاب في أمر مريع، لا مرجع لهم يسمعون منه الأخبار حتى نحن الذين معنا الأخ (قادر سيراني) رئيس الجمعية الإسلامية المنغولية، وهو عضو في البرلمان عن المسلمين، وله مكانته عندهم، لم نستطع الحصول على أية معلومات.

ومسنا الضر من البرد والوقوف، لأن المقاعد قليلة، ولا تكفي الركاب والمودعين، فقررنا الاتجاه للمطعم من أجل الحصول على كرسي فيه، إلا أننا شممنا منه رائحة منتنة أظنها من لحم منتن أو نحوه، لأنه يقدم أطعمة خفيفة فخرنا منه مسرعين.

وبعد جهد جهيد من الأخ (قادر سيراني) وهو يحمل جوازي (الدبلوماسي) يريه الموظفين سمحوا بفتح قاعة كبار الزوار لنا نحن و(دبلوماسيين) غربيين آخرين، فكانت القاعة ذات مقاعد وثيرة، ونوافذ محكمة، لا يدخل منها الهواء البارد، وأسرعوا يقدمون لنا الشاي الساخن وكان فيها حمام نظيف.

وأخيراً قرر المسؤولون أن يرسلوا الطائرة إلى بكين أولاً، وبعد عودتها منها تقوم إلى موسكو في الساعة الخامسة عصراً بديلة من الساعة التاسعة صباحاً.

أيوم قطبي؟

خرجنا من المطار ونحن نرتجف برداً، إلى جو بارد عاصف عائدين إلى الفندق الذي كنا نسكن فيه.

ورأينا الآن قطعاناً من الخيول والأبقار والأغنام ترعى بشراهة لا تكاد ترفع رؤوسها عن الأرض، ومعها رعاتها قد وضع أكثرهم على رأسه أو كتفيه غطاء من الجلد، والحيوان والإنسان لا يبالي بهذا الجو البارد الممطر، وذلك لكون الجميع قد حبسوا شهوراً باردة مظلمة في بيوتهم، وحن منذ يومين فقط موعدهم مع الحرية في الخروج للمرعى، لكن ذلك صادف هذا البرد الشديد والمطر المتواصل الذي يمنع الجميع من ممارسة الرعي والانطلاق.

وقلت في نفسي وأنا أرى هذا المطر والجو الغاضب وأرتجف من برد الريح الباردة: أيوم كأيام القطب؟

وهي أيام القطب الربيعية الباردة، وإلا فإن أيام الشتاء القطبية لا يكون فيها مطر، وإنما يكون الثلج وحده.

وقد حدثنا أهل موسكو أنهم يتباشرون إذا رأوا سقوط المطر، لأن ذلك دليل على خروج فصل الشتاء وقرب حلول الربيع، إذ المطر لا يكون إلا في الأيام الدفيئة بالنسبة إلى تلك البلاد الباردة.

ومما ينبغي تذكره أنه رغم اشتهاار بلاد المغول بالإبل ذوات السنّامين، فإنها لا توجد في هذه البلاد المغولية الشمالية، وإنما توجد بكثرة في جنوبها،

كما توجد في بلاد منغولية أخرى وهي المعروفة بمنغوليا الداخلية التي تتبع الصين، وقد ركبت جملاً من تلك الجمال المغولية هناك، ووقعت منه عندما جمع مني، وسميت تلك بوقعة الجمل وذكرت في كتاب: «**مهذب العول**» الذي ذكرت فيه قصة تلك الرحلة.

وعدنا إلى فندقنا الذي خرجنا منه وهو فندق (بيان غل)، فوجدناه دفيئاً مريحاً فرحنا جميعاً في تهوية من النوم اللذيذ لفترة.

وكان الغداء أيضاً في بيت الأخ (قادر سيراني) على لحم وأرز وخضرات وفاكهة مستوردة، وذلك لعدم وجود الطعام الحلال في البلدة.

وبمناسبة وجود هذه الفاكهة المستوردة سألت الأخ (قادر سيراني) عن الفاكهة الموجودة عندهم فذكر أنه لا يوجد عندهم أي نوع من أنواع الفاكهة، وإنما توجد عندهم بعض الخضرات التي تنبت في الصيف في الجبال الطبيعية من دون زرع، فيأكلونها وهي أنفع عندهم من الخضرات المزروعة، ولكن الصيف عندهم قصير لذلك لا تنبت إلا في ثلاثة أشهر من السنة هي شهور الصيف.

وقد تلقى هاتفياً ونحن في بيته من أحد العاملين في المطار يفيد بأن الرحلة إلى بكين قد ألغيت اليوم، وأنهم عزموا على السفر إلى موسكو في الخامسة والنصف كما أعلنوا من قبل، وذلك لعدم اطمئنانهم إلى الجو في مطار بكين اليوم.

وقد سررنا هذا لأننا كنا خشيناً أن تتأخر طائرتهم النفاثة الوحيدة في بكين، فلا نسافر إلى موسكو اليوم.

ومما يجدر ذكره هنا أن المسافة بالطائرة النفاثة هذه من (أولان باتور) إلى بكين هي ساعتان ونصف، ومنها إلى موسكو ٦ ساعات إرباً.

غادرنا الفندق في الثالثة والنصف فتقاضوا منا أجره يوم كامل وهي عشرة دولارات لهذه الغرفة الـدفيئة الجيدة التي لو طلبوا لها مائة دولار أجره لأعطيناهم إياها.

وخرجنا إلى المطار ثانية والطريق بين المدينة ومطارها يمر بمناطق ريفية خالية ترعى فيها الأنعام.

وعجبت من شيء استرعى انتباهي وهو شدة اخضرار الأرض هذا اليوم بالنسبة إليها منذ ثلاثة أيام، وقال الإخوة المرافقون وهم يتكلمون القازاقية شقيقة التركية التي يحسنها زميلنا في الوفد الأستاذ رحمة الله ابن عناية الله: إن هذه الملاحظة في محلها، فالأعشاب والمزروعات كلها تنمو في هذه الأيام إذا انصرف الشتاء ثلاثة أضعاف أو أربعة نموها في البلدان المعتدلة، وأن الأيام الثلاثة التي مضت عليها منذ أن وصلنا منغوليا أحدثت فرقاً كبيراً في أرضها فازدادت خضرتها، وأسرعت أعشابها إلى البروز، ولذلك رأيت هذه القطعان الكثيرة من الأنعام ترعى فيها لا تفتر عن ذلك.

وكان العمل في المطار معتاداً إذ تسلموا أمتعتنا وقطعوا التذاكر، ثم خرجنا نمشي إلى الطائفة في الهواء البارد والمطر الذي كان يسقط رذاذاً.

وهذه الطائفة هي النفاثة الوحيدة التي تستطيع السفر خارج بلادهم للبلدان البعيدة، وقد كتب عليها اسم خطوطهم وهي (خطوط منغوليا الجوية) التي يختصرونها بلفظ (ميات).

وليس في المطار أية طائفة نفاثة أخرى، وإنما توجد طائرات مروحية صغيرة ومتوسطة، كانت مخصصة للرحلات الداخلية، لأن بلادهم واسعة متباعدة النواحي، ولكن هذه الطائرات متوقفة لعدم وجود الوقود عندهم، فقد كان الاحاد السوفيتي السابق يمدهم بالوقود، ويتسامح معهم في مقاضاة ثمنه،

وأما الآن وبعد أن تفكك الاتحاد السوفيتي ورجعت قيادة روسيا الجديدة عن الشيوعية فإنها تطلب ثمن النفط عملة صعبة لا يقدرون عليها.

وكان الترحيل ميسراً إذ لم يفتشوا أمتعتنا بسبب جوازي (الدبلوماسي) مع أنني رأيتهم يفتشون أمتعة الركاب المغادرين الآخرين.

ركبنا في الدرجة الأولى في هذه الطائرة المصنوعة في روسيا، وهي من طراز توبوليف ١٥٤ لأن تذاكرنا مقطوعة من الأصل على الدرجة الأولى.

ودرجتها الأولى فيها ثلاثة صفوف من الكراسي كل صف فيه كرسيان عن يمين الممر ويساره، وليس فيها معنا ونحن ثلاثة إلا راكبان، أحدهما ذو مظهر أوروبي، والثاني مغولي من موظفي الدولة، أو من كبار العاملين في مؤسسة الطيران التي تسير الطائرة، ولكن انتقل إلى الأولى من السياحة بعد ذلك راكبان ولم أر أحداً اعترض على ذلك، وهما صديقان لذلك المغولي.

من أولان باتور إلى إيركوتسك:

أعلنت مضيفة الطائرة بلغتهم المغولية ثم بالإنكليزية مختصرة أن الطائرة ستغادر إلى موسكو، ولكنها ستنزل قبل ذلك في مطار إيركوتسك في سيبيريا، وهو المطار الذي أقلعنا منه عندما قدمنا إلى منغوليا كما سبق.

وأقلعت في السادسة إلا ربعاً متأخرة ربع ساعة عن الموعد المحدد لرحلتها إلى موسكو، وبتأخير ثمان ساعات عن الموعد الأصلي لتلك الرحلة.

واخترقت السحاب الكثيف الذي ران على هذه البلاد منذ مساء أمس إلى جو شامس منير، وما أجمل الشمس بعد الغياب!

وخيل إليّ أن هذه هي شمسنا الحارة التي نعرفها في بلادنا، فسرت بذلك

وقلت: ما أجمل شمسنا لأن الجو داخل الطائرة كان دافئاً مريحاً، لكنني تذكرت أنه كان قاسي البرد على سطح الأرض فكيف به على هذا الارتفاع! وعرفت لماذا يحب الأوروبيون الشمس ويتعرضون لها بإسراف عندما يصلون من بلادهم إلى البلاد الشامسة.

والمضيافة في الدرجة الأولى هي منغولية واحدة، تعتبر من جميلاتهم، وهي تشبه إلى حد كبير بيض التايلنديات، لولا أنها أجمل منهن، إضافة إلى الشكل المميز الذي يميز المغوليين الأصلاء عن الأقوام الأخرى الذين تظهر فيهم بعض التقاسيم والصفات المغولية، ومن ذلك - على سبيل المثال - أن المغوليين يتميزون بتباعد ما بين العينين مع كون أصل الأنف عندهم يكون متطامناً أي ليس بالمرتفع، وأهم ما يميزهم ويلاحظه أي شخص فيهم هو صغر العينين، بحيث إذا ضحك الضاحك منهم صار كأنما أطبق جفنيه أو أغمض عينيه، أو قل كأنما ابتلمت وجنتاه المرتفعتان عينيه إلى حين.

وهذه المضيافة فعلت مثلما تفعل المضيفات الروسيات، إذ لم تكلف نفسها عناء إلقاء أي تعليمات أو إرشادات للمسافرين، ولم تتفقد أحزمة المقاعد، فتتظر من حزمها من الركاب ومن أهمل ذلك، ولم توزع صحفاً أو مجلات أو أية منشورات أخرى تتعلق بأحوال الشركة أو الرحلة، ولذلك بقي راكب منغولي معنانياً في الأولى مستلقياً على كرسيه بعد أن أبعد ظهره والطائرة تقلع، وبعضهم أبقى مائدة الطعام أمامه منشورة، ولم تفعل لهم المضيافة شيئاً، مع أن عدد الركاب عندها قليل.

وخيل إلي أنها قد تمرنت على أعمال الضيافة هذه في إحدى الدول الإفريقية، وتذكرت المسافة الواسعة التي تفصل بينها وبين إفريقيا وبخاصة مسافة اللون، والبعد السحيق، إلا أن نبرات لغتهم تبدو في أذن الغريب الذي لا يفهمها كأنما تشبه نبرات بعض اللغات الإفريقية، وإن كانت حروفهم

الهجائية هي حروف عربية الأصل.

وأما الركاب فإن مضايقاتهم كانت كثيرة، من ذلك أن ركاب الأولى الذين جاؤوا إليها من السياحة قد جلسوا على الأرض تحت أقدام صاحبهم، وصاروا يدخنون ويشربون الخمر ويرفعون أصواتهم، ويأتون بحركات غير مهذبة، وركاب الدرجة السياحية كانوا يدخلون حمام الدرجة الأولى حتى جعلوه وسخاً، ولم تعترض المضيقة على ذلك.

ومما يجدر ذكره أن الشراب الذي قدمته المضيقة في الطائرة كله حرام، فهو خمر وجعة (بيرة)، وليس عندهم ماء معدني ولا كوكاكولا أو عصير برتقال.

في مطار إيركوتسك:

بعد أن أمضت الطائرة خمسين دقيقة من الطيران هبطت في مطار إيركوتسك الذي أقلعنا منه قبل أربعة أيام، وكانوا أعلنوا أن مدة الطيران ساعة واحدة ولم تكن كذلك.

كان المطار السيبيري مشمساً، وكان الجو فيه ربيعياً، بل هو صيفي بالنسبة إلى هذه البلاد، إذ الحرارة فيه كانت ٢٣ درجة مئوية، وهذا يشبه الجو في بلادنا في أول الربيع.

وأهم ما استرعى انتباهنا في هذا الأمر بعد مطار (أولان باتور) كثرة الطائرات النفاثة الضخمة فيه من أحجام مختلفة، إضافة إلى الطائرات المروحية العديدة.

والشيء الآخر الظاهر هو أنه ديفء إلى درجة عجيبة بعد جو منغوليا البارد، بل القاسي البارد، مع أن مطار (إيركوتسك) هو في سيبيريا المشهورة

بقسوة بردها، إلا أنه ينبغي أن يلاحظ أن في جو سيبيريا شيئاً من القارية فهو شديد البرد في الشتاء، ولكنه حار في الصيف بالنسبة إلى الجواء الشمالية الباردة، وعلى سبيل المثال أخبرنا الطلاب العرب الذين يدرسون في مدينة (إيركوتسك) هذه أن درجة الحرارة تهبط عندهم في العادة إلى حوالي ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر، على حين أن أهل منغوليا أخبرونا أن درجة البرودة لا تكون إلا في حدود ٢٢ إلى ٣٥، وقلما تنزل عن ٣٦ درجة، وهم يفاخرون بذلك يقولون: إن جو بلادهم أقل قسوة من قسوة البرد في جو (إيركوتسك) السيبيرية المجاورة لهم

وقد أعلنوا من مكبر الصوت في الطائرة أن الطائرة ستبقى في هذا المطار ساعة واحدة، وكان إعلانهم هذه المرة بالمغولية، فالإنكليزية، فالروسية.

نزلنا من الطائرة إلى مبنى المطار لأن المطار قديم ككل المطارات الروسية أو السوفيتية الموجودة في عواصم المقاطعات، وفي المدن الرئيسية، فأحسنا بالدفء العظيم مثلما كنا نحس إذا ما وصلنا في الشتاء إلى بلادنا قادمين إليها من أوروبا، وهذا من العجب الذي لم يكن منتظراً أن تكون سيبيريا دفيئة بالنسبة إلى منغوليا، وكان الأخ قادر سيراني أخبرني أن درجة الحرارة في (أولان باتور) عندما غادرتها كانت الواحدة فوق الصفر، واعتبر هذا غير بارد.

ووقفنا برهة في انتظار الحافلة التي تنقل الركاب من الطائرة إلى قاعة الوصول، لأنها بعيدة من المبنى، ثم جاءت فأركبوا فيها ركاب الدرجة السياحية، وتركونا ننتظر حتى عادت إذ كانت تتردد لنقل الركاب.

ثم أدخلونا جميعاً قاعة العابرين، وأقفلوا علينا الباب بالفتح بحيث لا يستطيع أي شخص أن يخرج إلى قاعة المسافرين فيما لو أراد ذلك، ولا أدري السبب، إلا أن يكون عدم الثقة في العاملين في المطار الذين قد يأخذون من

الركاب شيئاً مهرباً كالنقود الأجنبية، إذ رأيتهم حريصين جداً على معرفة ما يدخل البلاد وتسجيله.

ومر الجميع على مكاتب الجوازات ثم الجمارك، وذلك لكوننا وصلنا إلى أرض جمهورية روسيا الاتحادية.

ورأيتهم يشددون على رؤية جميع ما يحمله الركاب من العملات الأجنبية، كالدولارات والفرنكات الفرنسية والماركات الألمانية، ويعدها ضباط الجمر ك بأنفسهم لا يعتمدون على ما يذكره الركاب عنها، حتى الروبلات الروسية التي هي عملتهم الوطنية يعدونها ويحصونها على الركاب ويسجلونها في بطاقات الإقرارات الجمركية.

أما أنا فلم يطلبوا مني الإعلان عن أي شيء احتراماً لجوازي (الدبلوماسي)، وأما رفيقاي وأحدهما وهو الأخ محمد حافظ يحمل جواز سفر خاصاً، والثاني الأخ رحمة الله بن عناية الله جوازه معتاد، فقد طلبوا منهما إخراج كل ما معهما من النقود وعدوها بأنفسهم، أي عدوها الضباط بأنفسهم وسجلوها عليهم، وكنت أخذت منهم جميع النقود الأجنبية الزائدة ووضعتها في جيبي، وكذلك لم يفتشوا أمتعتنا بسبب جوازي الدبلوماسي.

وعدنا إلى الطائرة نسير على أقدامنا في جو بديع، وليس علينا معاطف، والجو ربيعي لا يشتكى فيه من حر ولا قر.

وتخللنا في سيرنا طائرات عديدة واقفة، ومررنا بسيارة (قلاب) قد وضعوا فوق ظهرها قطعة ضخمة من الإسمنت المسلح وهي تسحب طائرة نفاثة كبيرة من مكان إلى آخر في ساحة الوقوف في المطار.

إلى موسكو:

أعلن مكبر الصوت في الطائرة أن المسافة من (إيركوتسك) هذه إلى موسكو هي ٤٦٥٠ كيلو متراً تقطعها طائرتنا في ست ساعات إلا ثلاثاً.

وتصورت هذا الملك الروسي العريض الذي تبلغ مدينة ليست أقصى المدن التي بلغها جهة الجنوب الشرقي ٤٦٥٠ كيلو متراً في وقت كانت المواصلات فيه صعبة، وبخاصة وسط هذا الجو السيبييري القاسي!

وقدموا ضيافة الشراب لركاب الدرجة الأولى والطائرة على الأرض كأساً من الخمر، ليس معها شراب آخر!

وغادرت مطار (إيركوتسك) في الساعة الثامنة عصراً، وما تزال في النهار بقية صالحة، بل إنه ما يزال فتياً إذا اعتبرنا الحقيقة التي نحن فاعلوها، وهي أننا نتجه جهة الغرب، فكأنما كنا نلاحق الشمس، وأن فرق التوقيت بين منغوليا التي بدأنا رحلتنا منها وموسكو التي تنتهي إليها هذه الرحلة هي خمس ساعات، مع العلم بأن التوقيت الصيفي المعمول به في موسكو الآن يتقدم أيضاً ساعة واحدة عن التوقيت المعتاد الذي هو مساوٍ لتوقيت بلادنا.

وأما عشاء الطائرة فإنه أرز قليل مع بطاطس مقلي، ولحم يظهر أنه من لحم البقر، وقد رددناه لكونه ليس من اللحم الحلال، لأن الذين ذبحوه ليسوا من أهل الكتاب الذين تحل ذبيحتهم، وإنما هم من الشيوعيين الملحدين، أو هذا هو ما يظهر من أمرهم، إضافة إلى احتمال أن يكون لحم خنزير أيضاً.

وأما السلطة فإنها من الخيار وحده ليس معه شيء آخر، ومع ذلك خبزة صغيرة وحبنا حلوى كالتى تعطى للأطفال، وقد أكلناها دون غيرها.

وهذا هو ضيافة الدرجة الأولى، فماذا تكون ضيافة السياحة؟ ربما كانت مثلها، فالقوم فيما يظهر من أمرهم لا يدققون في مثل هذه الأمور، وقد

طلبنا من المضيفة أن تحضر لنا مزيداً من الحلوى ففعلت.

وكان الجو صاحياً من حسن حظنا إذ استمتعنا برؤية الأرض مع كون الطائرة مرتفعة، والدليل على ذلك أننا رأينا طائرة أمريكية الصنع تحتنا تطير على الممر الجوي الذي نطير فيه.

وقد سبقتها طائرتنا بعد أن ظلت فترة طويلة وهي فوقها، وكلتاهما تسعى إلى المغرب كأنما تطلب شيئاً من عين الشمس التي كانت ناصعة.

وكانت بقايا ثلوج الشتاء تظهر على سطح الأرض في بعض الأماكن دون بعض، ومررنا بعد مضي ساعتين من الطيران على نهر كبير لم نعرف عنه شيئاً، لأنه ليس هناك أية إيضاحات مكتوبة أو مسموعة، كما لا توجد خريطة في الطائرة تبين خط سيرها والأماكن التي يمر بها.

وقد لقينا عنقاً في هذه الدرجة الأولى هذه من الركاب الذين كانوا يتصرفون كما يتصرف السفلة، فقد انتهزوا كثرة الخمر التي وجدوها بالمجان، وأكثروا من الشراب إلى درجة السكر، فصاروا يغنون ويقهقهون ويدخنون طول الوقت، مما ضايقنا وأطال من الشعور بطول الرحلة التي هي طويلة بالفعل، إذ تستغرق ست ساعات إلا ثلثاً من الطيران المتصل كما سبق.

وكان ركب معنا من مطار إيركوتسك اثنان من ذوي المظهر الأوروبي، فكانا معنا في الدرجة الأولى، وما رأيتهم استنكروا هذا الفعل المشين.

وبعد مضي ثلاث ساعات من الطيران تغير مسار الطائرة، فصارت تطير إلى أيسر مغرب الشمس، فكانها ذهبت جهة الجنوب إن لم تكن الشمس قد غيرت موقعها، وهي تميل للغروب في هذا الجزء الشمالي الذي يضيق فيه عرض الأرض كما هو معروف.

وقد بلغت الساعة الآن بساعاتنا التي لم نغيرها عن وقت (أولان باتور) بعد الحادية عشر والنصف، وما تزال الشمس حية.

هذا وقد كثرت السحابتحت الطائرة، فمنعنا من رؤية الأرض التي كانت تبدو منها رمادية كالحبة.

وكان أكثر ما في الرحلة فائدة لي أنها كانت راقدة في طيرانها، فانتهزت هذه الفرصة وكتبت كثيراً، مما قصر من شعوري بطول الرحلة.

فوق منطقة موسكو:

بعد خمس ساعات ودقائق قليلة من الطيران بدأت الطائرة بالتدني، وما تزال الشمس حية، واستجلينا الأرض من تحتنا فإذا بها خضراء ذات أشجار مورقة، فهي دفيئة ليست في برد سيبيريا أو منغوليا التي لا تزال أشجارها هامدة، وحامت على ريف موسكو الذي تكثر فيه البحيرات الصغيرة، وتجلله الغابات الكثيفة في الأماكن الخالية من الحقول، وتتناثر فيه المنازل الريفية غير الفاخرة فحتى الطلاء فيها ليس شاملاً مثلنا، ولذلك تبدو في منظر غير بهيج، إلا أن البهجة من خضرة الأرض تعوض عن ذلك كله لمن ينظر إليها مثلنا من الطائرة.

في مطار موسكو:

هبطت الطائرة في مطار (شيرمانوفا ٢) وهو مطار واحد كبير من مطارات موسكو الكبيرة الثلاثة، وكلها هبطت فيه، وذكرت ذلك في عدد من كتبي في الرحلات، وبخاصة في كتاب «الرحلة الروسية». وقد مررنا بضابط الجوازات والجمارك كما لو كنا قادمين من رحلة خارجية، مع أننا نعتبر قادمين من رحلة داخلية لم يبق مما لم يطلعوا عليه افتراضاً مما معنا إلا

الحقائب الكبيرة.

وتوقف ضابط الجوازات عند جوازي برهة، وهو ينظر إليه تارة، وإليّ أخرى، ولا أدري السبب، حتى قال لي أحد الأخوين المرافقين: إنه يريد شيئاً، فقلت: لا أعطيه شيئاً بدون مبرر.

وبعد فترة رمي إليّ جوازي ولم يختمه، فطلبت منه أن يختمه فختمه متبرماً.

ومن عنده ذهبنا إلى قلعة تسلم الأمتعة، فرأيت واحداً عند العربات اليدوية لا يعطيك واحدة إلا إذا أعطيته دولاراً أمريكياً، وذلك كله بجفاء وغلظة كما فعل ضابط الجوازات.

ولاحظت الفوضى وانعدام المسؤولية في المطار، وكل شخص يحاول أن ينال منك شيئاً، وذلك لكونهم يعيشون الآن مرحلة انتقالية بعد أن تركوا الشيوعية إلى الرأسمالية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحسنوا التحول المنظم، فوقعوا في الفوضى والارتباك.

لم نجد مستقبلين في المطار، إذ تأخرت الطائرة عن وصولها أكثر من ثمان ساعات من دون أن يكون هذا التأخير معروفاً ومبرمجاً، وكانت الجمعية الإسلامية قد أبرقت للسفارة السعودية في موسكو وللإدارات الدينية فيها بموعد وصولنا الأصلي إليها، وذلك طمعاً في أن نرى السفير الدكتور عبد العزيز خوجة، والمسؤولين في الإدارة الدينية، فنبحث معهم بعض الأمور المتعلقة بأحوال المسلمين، وكيفية مساعدتهم في المستقبل، وبخاصة مساعدة مسلمي سيبيريا.

ولم نكن خصصنا لموسكو في الأصل إلا هذا اليوم الذي ضاع.

فنز لنا في فندق نوفتيل المقابل للمطار ب-١٤٩ دولاراً للغرفة في الليلة

الواحدة، وهذا أجر مرتفع رغم كون الفندق من الدرجة الأولى، فمثيله في أوروبا الغربية يمكن أن يكون بـ١٢ دولاراً، مع أن الأجور في أوروبا الغربية أكثر من الأجور هنا مئات الأضعاف.

وكان أحد الأخوين قد حجز لنا من مكتب الخطوط الروسية في المطار من موسكو إلى روما، فلم يقبل الموظفون أن يحجزوا لنا إلا بعد أن أعطاهم دولاراً أمريكياً عن كل تذكرة بمثابة الرشوة العلنية.

وظهر لنا البؤس ومظاهر نقص التغذية والملابس على العاملين في المطار.

يوم الجمعة: ١٣ / ١١ / ١٤١٢ هـ - ١٥ / ٥ / ١٩٩٢ م

إلى جدة عن طريق روما:

أسفر الفجر مبكراً في موسكو، ومالت الشمس الغرفة في حدود السادسة بتوقيت موسكو، وكان طعام الإفطار الجيد في هذا الفندق الراقى الذي هو من ذوات النجوم الخمس على طراز فرنسي جيد. ووجبة الإفطار داخلية في أجرة الغرفة.

وركبنا من هذا المطار مع طائرة أير وفلوت، وهي مؤسسة الطيران الروسية التي كانت سوفيتية من قبل، فأقلعت إلى روما في التاسعة والنصف من هذا الصباح، وأعلنوا أن الطيران سيستغرق إلى روما ساعتين وعشرين دقيقة.

وكان ركوبنا معها في الدرجة الأولى وضيافتهم فيها جيدة، وخدمتهم جيدة أيضاً، وإن كانت أقل من الخدمة في الدرجة الأولى في الطائرات العالمية.

ومن ذلك أننا لما ارددنا عليهم لحم الخنزير الذي جاؤا به طبخت المضيضة لنا فطيرة صنعوها فوراً من الجبن.

وعند الوصول إلى روما أعلنوا أن درجة الحرارة فيه هي ٢٤ درجة مئوية.

وقد لبثنا ثلاث ساعات في مطار روما غادرناه بعدها مع طائرتنا السعودية

إلى جدة.

ولله الحمد.

وعندما وصلت إلى مكتي في مكة المكرمة وجدت شقيقي الشيخ سليمان بن ناصر العبودي القاضي في محكمة بريدة قد أرسل لي قصيدة يقترح فيها عليّ وقف الأسفار، حذراً من التعرض للأخطار وهذه أبيات القصيدة:

قدمتم بحمد الله من أرض روسيا
 وما حولها شرقاً إلى سواحل البحر
 كماكم ذهاباً نحو كل بعيدة
 من الأرض في الأخطار والبرد والحر
 فلأنفس والأهلين حق مؤكّد
 وللصّحْب والأوطان حق به تدري
 تفرغ لتتقيح الذي قد جمعته
 من العلم والأخبار من واقع الأمر
 ففيها بحمد الله خير ومتعة
 لمن يقرأ المكتوب منشرح الصدر
 لقد زاد ما ألفت في كل رحلة
 ذهبتم إليها في المدائن والقفر
 على واحد بعد الثمانين منتقى
 يبين حال الناس في ذلك القطر
 وحطمت الرقْم القياسي عندما
 تجاوز ما ألفت عشرة العشر
 وقم يا أخي بالشكر لله دائماً
 فإن إليه الناس يجزي على الشكر

فهرس المحتويات

٨٨..... إلى جامع إيركوتسك:	كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف ٣
٩٠..... جامع إيركوتسك:	مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات ١٢
٩٣..... جماعة التبليغ:	المقدمة ١٥
٩٤..... عودة إلى الحديث عن الجامع:	الهدف من الرحلة: ٢٠
٩٩..... السبحة من نوى التمر:	سيبيريا ٢٣
١٠٥..... وكتاب أثري:	مقدمة: ٢٥
١٠١..... مصلى النساء:	تاريخ سيبيريا: ٢٧
١٠٢..... الجنازة المؤجلة:	خانية سيبيريا ١٤٨٠ - ١٥٩٨: ٢٧
١٠٣..... ضيعوا الغتهم:	المشاهدات ٤٣
١٠٤..... حديث المسجد:	من الما أتا إلى إيركوتسك: ٤٥
١٠٦..... آخر إصلاح للمسجد:	إجراءات المطار: ٥٢
١٠٦..... الخطر الذي هدد المسجد:	المطر بشير بالدفء: ٥٥
١٠٩..... التكفير عن الذنب:	مغادرة المأتا: ٥٧
١١٠..... الفرج العاجل:	فوق أرض قازاقستان: ٦٠
١١٤..... جو قاري:	الإعلان عن الطعام: ٦٤
١١٤..... إلى بحيرة باي كل:	ملك روسي عريض: ٧٢
١١٦..... ريف سيبيريا:	في مطار إيركوتسك: ٧٣
١١٧..... صحراء لولا الماء:	فندق المطار: ٧٣
١١٨..... داخل الغابة الهامدة:	في مدينة إيركوتسك: ٧٤
١١٩..... الأطراف المتجمدة:	تهامة في سيبيريا: ٧٦
١٢١..... من سكان البحيرة:	أرخص إفطار: ٧٨
١٢١..... إلى شاطئ آخر:	بردنا وبردهم: ٨٠
١٢٢..... العودة إلى إيركوتسك:	إيركوتسك في النهار: ٨٢
١٢٤..... المسلمون في مدينة إيركوتسك:	مدينة خشنة: ٨٥

- ١٢٦..... في سوق المدينة:
- ١٣٠..... العودة إلى المسجد:
- ١٣٢..... نتار منغبيرون:
- ١٣٤..... الأذان الباكي:
- ١٣٦..... تسليم المعونة:
- ١٣٨..... مأدبة تتارية:
- ١٣٩..... لحم الخيل:
- ١٤٢؟ لماذا يسكنون في إيركوتسك؟
- ١٤٤..... العودة إلى قلب المدينة:
- ١٤٨..... إلى خارج المدينة:
- ١٤٩..... نهر أنغارا:
- ١٥٠..... على ظهر البحيرة:
- ١٥١..... الطلاب العرب في إيركوتسك:
- ١٥١..... كيف يتحملون الجو؟
- ١٥٣..... الحياة البسيطة:
- ١٥٤..... نزهة في نهر أنغارا:
- ١٥٦..... محاولة دخول المطعم:
- ١٥٨..... مغادرة سيبيريا:
- ١٦١..... إلى بلاد المغول (منغوليا):
- ١٦٣..... جمهورية منغوليا:
- ١٦٥..... السكان:
- ١٦٦..... اللغة:
- ١٦٧..... الحروف العربية في منغوليا:
- ١٧٢..... المسلمون في منغوليا:
- ١٧٥..... الإسلام هو الدين الثاني:
- ١٧٦..... وصول الإسلام إلى منغوليا:
- ١٧٩..... عود إلى المشاهدات:
- ١٨١..... من إيركوتسك إلى أولان باتور:
- ١٨٣..... فوق أرض المغول:
- ١٨٤..... نجد في منغوليا:
- ١٨٥..... في مطار أولان باتور:
- ١٨٦..... إلى مدينة أولان باتور:
- ١٨٩..... مدينة أولان باتور:
- ١٩٣..... جولة سريعة:
- ١٩٣..... ميدان البطل:
- ١٩٥..... مدينة البطل الأحمر:
- ١٩٧..... أرض المركز الإسلامي:
- ١٩٨..... الجمعية الإسلامية المنغولية:
- ٢٠١..... وماذا عن السفارات الإسلامية:
- ٢٠٢..... موطن المسلمين:
- ٢٠٣..... جولة واسعة في مدينة أولان باتور:
- ٢٠٦..... في المنطقة الشمالية:
- ٢٠٧..... المعبد البوذي الكبير:
- ٢١١..... على ضفة النهر:
- ٢١٢..... على جبل زاي صن:
- ٢١٤..... العودة إلى قلب المدينة:
- ٢١٥..... الجنس المغولي:
- ٢١٧..... الخروف في غرفة الاستقبال:
- ٢٢٠..... الأقط المغولي:
- ٢٢٢..... أكلة الأصابع الخمسة:
- ٢٢٢..... الجمعة الأولى:
- ٢٢٨..... يوم بارد:

- ٢٦٤..... بدوي مغولي:
- ٢٦٥..... بين الجبال المغولية:
- ٢٦٨..... تماثيل العمالقة:
- ٢٧٠..... الخيمة المغولية:
- ٢٧٢..... صحرة في شكل رجل معه مصحف
- ٢٧٣..... الفندق السياحي:
- ٢٧٥..... العودة إلى نالاخ:
- ٢٧٥..... العودة إلى الخيمة:
- ٢٧٧..... لأكل الخروف قواعد أيضاً:
- ٢٧٩..... الوداع الحافل:
- ٢٨٠..... مأدبة الجمعية الإسلامية:
- ٢٨٤..... أيوم قطبي؟
- ٢٨٧..... من أولان باتور إلى إيركوتسك:
- ٢٨٩..... في مطار إيركوتسك:
- ٢٩٢..... إلى موسكو:
- ٢٩٤..... فوق منطقة موسكو:
- ٢٩٤..... في مطار موسكو:
- ٢٩٧..... إلى جدة عن طريق روما:
- ٢٩٩..... فهرس المحتويات
- ٢٢٩..... سمة الدخول إلى روسيا:
- ٢٢٩..... في برلمان منغوليا:
- ٢٣٣..... مع رئيس شؤون الأديان:
- ٢٣٧..... الحصول على سمة الدخول:
- ٢٣٨..... مأدبة الجمعية الإسلامية:
- ٢٣٩..... إلى بلدة نالاخ:
- ٢٤١..... الوجه المطروق:
- ٢٤٢..... وقفة في الصحراء:
- ٢٤٤..... بُعد المزار:
- ٢٤٥..... هذه نالاخ:
- ٢٤٥..... الاجتماع بالمسلمين:
- ٢٤٩..... إلى أرض المسجد:
- ٢٥٢..... في خيمة قازاقية:
- ٢٥٣..... قواعد الخيمة:
- ٢٥٥..... الضيافة الحية:
- ٢٥٦..... صحراء المغول:
- ٢٥٧..... خيل المغول:
- ٢٥٩..... مقبرة المسلمين:
- ٢٦٠..... نهر تول:
- ٢٦١..... برقة منغولية:

Dar Alholothia



9789960584447
SR 20.00

ردمك : ٧-٤٤٤-٥٨-٩٩٦-٩٧٨